جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد

محمد علي ابوزيد

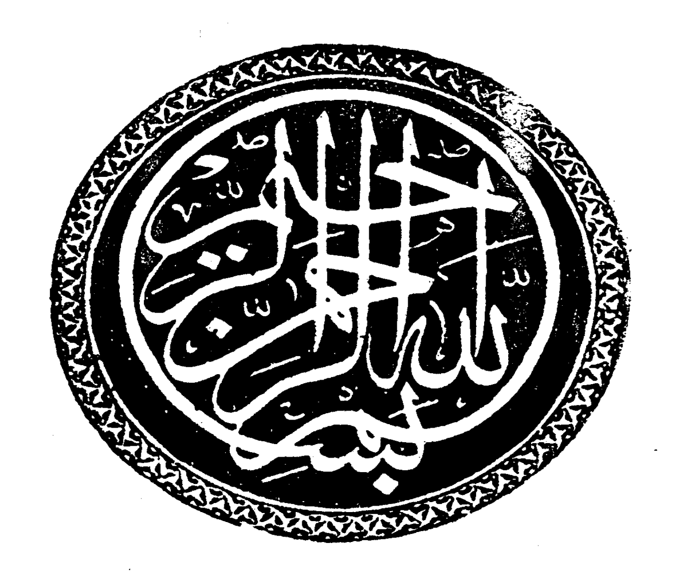
الاستعارة بالكناية
تطور دراستها ومعالجة مشكلاتها

رسالة مقدمة إلى كلية اللغة العربية
للحصول على درجة الماجستير في البلاغة والنقد

إشراف
الأستاذ الدكتور
محمد جلال الذهبي

إعداد
محمد علي أبو زيد

١٤٠٣ هـ
١٩٨٣ م


بسم الله الرحمن الرحيم


المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا و ما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و على آله و صحبه و التابعين باحسان الى يوم الدين .

و بعد

فأن من لطائف البلاغة ، و أسرار البيان ، و بديع الاستعارات ذلك الضرب الذى لا نرى فيه المستعار ماثلا للعيان : و أنما يلقاك برمز ينبئك عنه و يرشدك اليه .

و لهذا الفن من التصوير سحره و جماله و اثره فى النفوس ما دام قد أتى به على شرط المقام و سلك معه الطريق الميسور و عدل به عن الإفراط و الاغراب .

و مدار الفضيلة معه ما نرى فيه من بث للحياة و الحركة و اضفاء الصفات الانسانية على الجمادات و على ما لا يعقل من الكائنات حتى لترى به الأخرس ناطقا و الأصم سميعا و الأعجمى يبين . و لما كانت هذه النزعة مركوزة فى طبيعة النفس رأينا هذه الصور فى كل شعر و على كل لسان و فى كل جيل و ان اختلفت الأمم و شعراء كل عصر فى المدى و الخصائص و السمات .

و فى أفصح الكلام و فصيحه : القرآن الكريم و الحديث الشريف و كذا كلام الصحابة . و الإعراب . منظومة و منثوره . صور عديدة من هذا الضرب تتمثل فى خلع الحياة و الحركة على الجمادات و الظواهر الطبيعية و الانفعالات الوجدانية حياة و حركة قد ترقى فتصبح حياة إنسانية حيث توهب هذه الأشياء عواطف آدمية و خلجات انسانية تشارك بها بنى البشر ، و هذا الضرب ما عرف فى البلاغة العربية بالاستعارة المكنية أو بالكناية أو المكنى عنها .

و قد عنى الدارسون منذ قديم على اختلاف طوائفهم بهذا الضرب من الاستعارات لاتصالها فى بعض الجوانب بأمور عقدية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لكونه أحد فنون البديع المهمة التى أقام عليها النقاد و البلاغيون كثيرا من بحوثهم و أجروا عليه كثيرا من الاصول و المقاييس النقدية و البلاغية الى أن جاء عبد القاهر فتناوله على طريقته الفذة تحليلا و كشفا و تمييزا ثم جاء العلماء من بعده و قد ذهبوا فى فهم كلامه و تأويل مراده مذاهب شتى ومن هنا اختلفت الآراء و تباينت وجهات النظر و تعددت المذاهب ثم جاء العصر الحديث فنادى اكثر النقاد بأخراج هذا

اللون من التعبير عن نطاق الاستعارة ، ظنا منهم أن في ذلك خلاصا من المشكلات التي صاحبت الكناية على حين أنه يعد اغفالا للأسس والأصول التي قام عليها الدرس البلاغي .

ومن هنا يمكن القول إن دراسات الكناية قد مرت بمراحل وأطوار مختلفة وقد امتازت كل مرحلة بملامح وسمات خاصة كما أن هناك عديدا من المشكلات التي صاحبت دراسة هذا الفن أوجدت عليه في بعض المراحل .

ولا ريب ان التأريخ للفن البلاغي وتناول نشأته وتتبع مراحل نموه وازدهاره منذ ان كان اشارة ورمزا الى ان أضحى فنا بلاغيا له أصوله وحدوده يمثل عملا جليلا قد يساعد على تبين كثير من قضايا هذا العلم ومن هنا فقد اخترت موضوع الاستعارة بالكناية . تطور دراستها ومعالجة مشكلاتها للحصول على درجة التخصص وذلك لدوافع وغايات أهمها :

أولا : محاولة التأصيل لهذا الفن وتتبع المراحل المختلفة التي مربها حيث إنه لا يوجد فيما أعلم بحث مستقل يتناول هذا الموضوع على هذا النحو . وإن كنت أعلم ان هناك بحوثا ودراسات مهمة قد تناولت هذا الضرب ضمن أحاديث الاستعارة وقد انتفعت بها وأفدت منها .

ثانيا : تحليل مذاهب البلاغيين وما دار حولها من مناقشات ، وإيضاح ما شاب تلك المذاهب من غموض أدى إلى التجاهل حينا أو التحامل أحيانا .

ثالثا : محاولة تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي صاحبت دراسة هذا الضرب .

رابعا : محاولة فض الالتباس القائم بين صور الكناية وكثير من صور البيان الأخرى عن طريق بعض الاصول التي يمكن أن يركن اليها في التفريق والتمييز بين الضروب المختلفة .

خامسا : تناول بعض القضايا النقدية والبلاغية المتصلة بهذا الضرب .

سادسا : القيمة الذاتية لهذا اللون من التصوير حيث إنه يعد ضربا من ضروب البيان له من السمات والخصائص مايجعله من أسمى صور التعبير وأجملها ويظهر ذلك من تحليل النصوص والكشف عما بها من أسرار ولطائف .

سابعا : ان هذا الموضوع يتيح الجمع بين الناحية النظرية وبين الناحية التطبيقية وهذا فيما أقدّر أفضل المناهج فى الدراسات البلاغية .

ومن الطبيعى أن تتعدد مناهج البحث وتختلف ولا يسلم منهج من استدراك وملاحظة ، والمرجّح دائما لإيثار منهج بعينه وافراده أو المزاوجة بين منهج وآخر مردّه الى طبيعة البحث واحواله ومقتضياته ، ولأن غرض تلك الدراسة يتجاوز التأريخ لفكرة المكنية ويتسع لكثير من القضايا والمسائل المتصلة بهذا الضرب من حيث هو فن أدبى وبلاغى ونقدى ، لذلك جاء البحث فى صورته العامة تاريخيا لكن لم أقصد من الدراسة أن تكون فهارس لما أثير فى كتب البلاغيين وليست مهمة هذه الدراسة أن تكون عبارات منقولة من الدلائل أو الكشاف أو نهاية الايجاز أو غيرها من المصادر لذلك كان ما أنقله منها لعرض أفكار أصحابها غير غافل عن التتابع التاريخى لأستطيع الوقوف على ملامح الموضوع منذ نشأته الأولى حتى عصر المتأخرين بحيث تتضح الملامح والسمات الخاصة بهذا الفن وما يتصل بها من دراسات فتلك الدراسة إذن ترتكز بالإضافة الى الجانب التاريخى على محاولة إدراك المدى الذى وصلت اليه الدراسات القرآنية والنقدية والبلاغية والأدبية فى فهم الاستعارة المكنية وطبيعة إبداعها الفنى وادراك الصلة القائمة بين كل مرحلة وما سبقتها بما يكشف جهود الباحثين على مر العصور فى هذا الميدان .

وصعوبة هذا البحث لا تقف عند حدود الجمع بين طوائف عديدة ذات مناهج مختلفة وغايات متفاوتة . بل تمتد هذه الصعوبة إلى الفترة الزمنية الممتدة وما يستتبع ذلك من ضرورة الرجوع الى مصادر عديدة ليس فى مجال البلاغة والنقد والأدب فحسب وانما يتطلب الامر مطالعة مصادر النحو واللغة ودواوين الشعراء حيث كانت المؤلفات العربية وخاصة فى عهودها الأولى ممتزجة . فالمصنّف الواحد لا يعالج علما محددا وانما هو موسوعة كاملة تشمل الوان الثقافة العربية كلها من ادب ولغة وبلاغة وتفسير ونحو وتصريف فتعطى صورة كاملة لفن القول ودقة التعبير لأن الفصل بين العلوم لم يكن المقصد الذى يهدف اليه العلماء فى هذه الفترة المضيئة .

منهـــــج البحث

يشتمل هذا البحث على مقدمة • وثلاثة أبواب وتعقيب

الباب الأول : المكنية قبل عبد القاهـــــر
يشتمل هذا الباب على فصلين :ـ

الفصل الأول : في الدراسات القرآنية واللغوية
وفيـــــه مبحثـان :

الأول : في الدراسات القرآنية والنبوية
الثاني : في الدراسات اللغـــــوية

الفصل الثانــــــى : في المصادر النقدية والبلاغيـــــة •
يشتمل هذا الفصل على أربعـــــة مباحث :ـ

المبحث الأول في البديع لابن المعتز ـ وأخبار ابى تمام للصولى
المبحث الثاني في موزانة الآمـــــدى
المبحث الثالث في وساطة القاضي الجرجاني •
المبحث الرابع عند أبى هلال وابن رشيق وابن سنان
الباب الثاني : المكنية من عبد القاهر الى السكاكي
ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصـــــول :
الفصل الأول : تطور دراسات المكنية على يد عبد القاهر
الفصل الثاني : المكنية على طريق التطبيق والتحديد الأصطلاحي
يشتمل هذا الفصل على مبحثين :ـ
المبحث الأول : في الكشاف للزمخشري •
المبحث الثاني : مع الفخر الرازي
الفصـــــل الثالث : الرجوع بصور المكنية الى روح الدرس الأدبي
أولا : عند ابن الأثير •
ثانيـــا : عند ابى الأصبع •
ثالثا : عند العلـــــوى •
الباب الثالث : مذاهب المكنية وصورها
الفصل الاول : ـــــع السكاكي في المكنية والتخييلية •
الفصل الثاني : مذاهب المكنية بعد السكاكـي •

يشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث :-
الأول : مذهب الخطيب القزوينى .
الثانى : المذهب المنسوب للجمهور.
الثالث: المذهب المنسوب الى صاحب الكشف ومذهب العصام .

الفصل الثالث : صور المكنية .

وبعد :

فان أكن قد وفقت فى تلك المحاولة . فذلك من فضل ربى وان تكن الأخرى فحسبى أجر المجتهد .

هذا و لا يفوتنى هنا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذى الجليل . فضيلة الاستاذ الدكتور : محمد جلال الذهبى لما كان لفضيلته من فضل فى تقويم هذا البحث فله منى جزيل الشكر والعرفان . ومن الله حسن الجزاء .

و على الله قصد السبيل .....

* * * *

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي البحث

لم أقصد من هذا التمهيد الحديث المفصل عن التحديدات والقواعد والأصول والمذاهب فذلك موضعه أصل البحث بأبوابه وفصوله ومباحثه وفقا لمراحله وإنما قصدت التعريف بهذا الضرب وبيان بلاغته ومكانته بين صور البيان والمجاز الأخرى .

وينبغي الاشارة أولا إلى أن هناك اختلافا جوهريا في طريقة التصوير والخيال والأداء بين ضربين من ضروب الاستعارة ، فقوله تعالى " وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "(١) . نجد أن المراد ليس هو الصراط الذى تراه العين طريقا واضحا مستقيما ، وإنما المراد حقائق الدين ومنهج القرآن وتجاوبه مع الفطرة الصحيحة ، واستقامته في نفوس أهل الحق واليقين ، كأنه طريق واضح ، والمهم أنه ليس معنا إلا الصراط المعبر به عن حقائق الدين ، وكذلك قوله تعالى في وصف أهل النفاق : " فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ "(٢) . ليس المراد بالمرض في الآية الكريمة العلة الجسمانية إذ الكلام مسوق لذم المنافقين على فعل صدر منهم بإرادتهم وهو إبطان الكفر وإظهار الاسلام ، والمرض الحقيقي ليس من فعلهم حتى يذموا عليه ، إذن فلفظ المرض مستعار للنفاق للمشابهة الحاصلة بينهما في أن كلا منهما يفسد مايتصل به ، فإذا كان المرض يفسد الأجسام فان النفاق يفسد النفوس .

ويقول صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ "(٣)

نراه صلى الله عليه وسلم جعل طول السفر وتكاليفه ومشقته بمنزلة الوعثاء (فعلاء من الوعث ضد الجدد أى الطريق السالك السهل المنبسط) .

نرى في كل ذلك ونحوه أن الشيء قد أطلق مرادا به غيره ، وليرهـ ذا

---

(١) الشورى : ٥٣ (٢) البقـرة : ١٠ .

(٣) المجازات النبوية — الشريف الرضى — تحقيق د /طه محمد الزيني ص ١٤٩ .

مثل قوله تعالى : " إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا "(١) فقد صورت جهنم فى صورة حيوان هائج يجول ويزفر من شدة غيظه ، ثم أستعير لها هذا الحيوان ، والأسلوب كما نرى على هذا النحو يثير الهول والخوف بهذه الصورة الغريبة المفزعة .

ومن هذا الضرب قوله صلى الله عليه وسلم : " أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَمَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ "(٢) .

نرى أن فى هذه الاستعارة ـ جرعة غيظ ـ تصويرا دقيقا لحالة الكظم والأخذ بخناق الغيظ ، وحبسه فى الصدر حتى يموت ، وذلك كفا عن المجازاة واحتسابا للأجر ، وهذه استعارة قريبة لأنك حين تحبس غيظك المتقد وتعبر عنه ، تشعر كأنك تعالج شرابا صابا مرا .

وهكذا نرى طبيعة الخيال فى هذه المجازات تختلف عن طبيعة الخيال الذى مضى حيث نرى هنا أشياء أضيفت إلى أشياء ، فقد أضيف التغيظ والزفير إلى جهنم ، كما أضيف الجرعة إلى الغيظ وهو لايجرع على الحقيقة وإنما ذلك من شأن الشراب أو الدواء . وهذا الضرب هو مايسمى بالاستعارة المكنية ، وأما الضرب الأول فهو التصريحية ، وواضح أن كلا من الضربين يقوم على أصل به يفترق عن الآخر ، فإذا كانت التصريحية تقوم فى أساسها على جعل الشىء الشىء وليس هو على الحقيقة ، فإن المكنية تقوم فى أصلها على جعل الشىء للشىء(٣) وليس له على الحقيقة أو بعبارة أخرى : إذا ذكر اللفظ المستعار كانت التصريحية ، وأما إذا حذف ودل عليه برادف من روادفه كانت المكنية (٤) .

على أن اصطلاح الاستعارة بالكناية لم يعرف فيما نعلم قبل الفخر الرازى فى كتابه نهاية الايجاز(٥) ، وقد أخذه عنه السكاكى والمتأخرون من بعده ،

---

(١) الفرقان : ١٢ .
(٢) المجازات النبوية ص٣٦٤ .
(٣) نهاية الايجاز ص٩٢ .
(٤) ينظر: رسالة الصبان فى علم البيان بحاشية الانبابى ص ٢٦٨ .
(٥) نهاية الايجاز للفخر الرازى ص ٩٢ .

خلافا لما قد يظن من أن الفضل فى ذلك يرجع الى السكاكى ، فالسكاكى فى الحقيقة ناقل لهذا الاصطلاح عن الفخر ، وإن أضاف إليه مصطلحا آخر أو استعمالا آخر وهو - " المكنى عنها " -(١)

وقد درج المتأخرون من بعد على أن يطلقوا على هذا الضرب الاستعارة بالكناية أو مكنية أو مكنى عنها .

والمراد بالكناية هنا هو المعنى اللغوى وهو الخفاء لا المعنى الاصطلاحى وعلى ذلك يكون معنى استعارة بالكناية أى الاستعارة الملابسة للكناية أى الخفاء .

واستعارة مكنية أى مخفية ، واستعارة مكنيا عنها أى مدلولا عليها بلازمها .

بلاغة المكنية ومكانتها بين صور المجاز

تكاد تجمع مصادر البلاغة العربية كما تذكر بعض المصادر غير العربية أيضا أن المجاز يفضل ويمتاز على الحقيقة ، فقد نقل عن أرسطو قوله : (ان أعظم شئ هو أن تمتلك زمام المجاز ، وهذه القدرة لاتمنح فانها من مواهب النابغين وعلامة عبقريتهم) (٢) .

وقد أطبق البلاغيون العرب على أن المجاز فى مقامه أبلغ من الحقيقة (٣) وأحسن موقعا فى القلوب والأسماع(٤) لما فيه من قدرة على التصوير والتخييل حتى يكاد السامع أن يرى المعنى عيانا ، وقد ذكر فى ذلك ابن الأثير أن عجب ما فى العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعى فى بعض الأحوال حتى أنها ليسمح بها البخيل ويشجع بها الجبان ، ويحكم بها الطائش المتسرع ، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر حتى إذا انقطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال ، أو ترك عقوبة ، أو اقدام أمر مهول ، وهذا هو فحوى السحر الحلال المستغنى عن القاء العصا والحبال) (٥) .

---

(١) المفتاح للسكاكى ص١٧٦ . (٢) الأصول الفنية للأدب د/عبد الحميد حسن ص١١٤ .
(٣) الايضاح للخطيب القزوينى ص١٨٩ .
(٤) العمدة لابن رشيق تحقيق محيى الدين عبد الحميد ج ١ ص ٢٦٦ .
(٥) المثل السائر لابن الأثير ص ٣٩ ج١ - ط بولاق .

ومن قبل أشاد بها عبدالقاهر وتكلم عنها من حيث قيمتها الجمالية وليس هذا الضرب من الاستعارة (المكنية) بدون الضرب الأول (التصريحية) فى إيجاب وصف الفصاحة للكلام لابل هو أقوى منه فى اقتضائها ، والمحاسن التى تظهر به ، والصور التى تحدث للمعانى بسببه آنق وأعجب) (١) .

ومع أن كثيرا من النقاد والباحثين المحدثين يتجهون إلى اخراج هذا الضرب من نطاق الاستعارة ويرون أنه نوع آخر لايقوم على تشبيه أصلا ويسمونه بالتشخيص (٢) فإنهم لايختلفون فى قيمته ، بل إن بعضهم قد جعل المكنية قمة المجاز (٣) ، وذلك لما يظهر معها من جهد الأديب وتمكنه من الخيال (فإن الخيال منها أظهر والادعاء أكثر وضوحا ، ومهما قلت فى التصريحية فإن المقاربة بين الطرفين موجودة إن لم تكن بذكرهما فبوجود القرينة المانعة من إرادة المعنى المستعار الذى وضع له . أما المكنية فان فيها من المبالغة مالا يخفى ، فقد انتزعت صفات المشبه به الذى أضمرته فى نفسك وأثبتها للمشبه وكأنها لوازمه وصفاته الثابته ، ولايهتدى لصاحبها الأصيل إلا بعد تدبر واعمال روية (٤) .

فبلاغة المكنية من ناحية اللفظ أن تركيبها يدل على تناس التشبيه ، ويحملك عمدا على تخيل صورة جديدة تنسيك روعتها ماتضمنه الكلام من تشبيه خفى مستور ، وأما بلاغتها من حيث الابتكار وروعة الخيال وماتحمله من أثر فى نفوس سامعيها فمجال فسيح للإبداع وميدان تسابق المجيدين فيه فرسان الكلام .

ونكتفى هنا بايراد مثال واحد بقصد التدليل: يقول الله سبحانه وتعالى " وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ ميثاقا غليظا) (*) ، فقد وصف سبحانه الميثاق الذى هو العهد الموثق والمؤكد بالغلظ وهو وصف للأجرام ، والوجه فى ذلك أنه شبه الميثاق بالحبل المتين من حيث إن كلا منهما يربط بين اثنين ، وحذف المشبه به

---

(١) دلائل الاعجاز ط المنار ص ٣٠٠ .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ـ د/شوقى ضيف ص ٢٣٦ .
البلاغة تطور وتاريخ ـ د/ شوقى ضيف ص ١٣٠ .
الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ـ د/حفنى محمد شرف ص ٣٧٢ .

(٣) الصورة الأدبية ـ د/ مصطفى ناصف ص ١٨٧ .

(٤) علم البيان ـ د/بدوى طبانة ص١٤٢ . (*) الأحزاب : ٧ .

والحق أن البلاغيين العرب لم يؤسسوا حكمهم بأبلغية المجاز على تقدير نظرى مجرد كما يتهم أحد المعاصرين [1] ، بل إنهم استمدوا ذلك من واقع الأساليب الأدبية التى عالجوها ، كما أنهم لم يهملوا دور الحقيقة وقيمتها فى مقاماتها ، إذ إن الفيصل فى إيثار طريق على آخر انما مرده الحال ومقتضياته ، فإن من غير المتصور فى حق هؤلاء أنهم كانوا على غير إدراك ببلاغة الحقيقة فى مواضعها ، وإلا كان ذلك يحتى منهم اتهاما للقرآن الكريم لأنه كما اشتمل على المجاز فقد استخدم الحقائق أيضا ، وهذا أمر غير وارد .

وما دام المجاز فى مقامه أبلغ من الحقيقة تكون الاستعارة أبلغ من التشبيه لكونها فرع مجاز ، ولأنها أعمق منه تصويرا وأحصر تعبيرا حيث أنها تقوم على تناسى تشبيه وحذف أحد طرفيه حتى يخيل للسامع صورة جديدة تنسى روعتها ماتضمنه الكلام من تشبيه خفى مستور .

والاستعارة أبلغ كذلك من المجاز المرسل لما فيها من دعوى الاتحاد وكذا الكناية كما نقل عن السبكى ورجحه الصبان معللا بأن الاستعارة كالجامعة بين كناية واستعارة .[2] أى لأن فيها الانتقال من الملزوم إلى اللازم شأن الكناية وفيها استعمال اللفظ فى غير موضوعه لعلاقة المشابهة الذى هو الاستعارة .

ونقل عن السيوطى أن أبلغ أنواع الاستعارات هى التمثيلية كما يؤخذ من كلام صاحب الكشاف " وجعل بعضهم الاستعارة بالكناية تالية للتمثيلية وأفضل من المصرحة بعامة لاشتمالها على المجاز العقلى من حال قرينتها على المشهور الى جانب التجوز اللغوى ، كما هى أبلغ من التصريحية والتبعية خاصة لعدم تبعيتها لاستعارة أخرى [3]

وان كنا نلاحظ أن من أبرز ما أهتم به الزمخشرى فى الاستعارة ذلك الذى نواهم يكنون فيه عن اللفظ المستعار ، وهذا النوع عنده من أسرار البلاغة ولطائفها كما يقول : (وقد أشار فى أكثر من موضع إلى حسن هذه الاستعارة وفصاحتها) [4] .

---

(١) ينظر الصورة الأدبية د/ مصطفى ناصف ص ١٨٧ .
(٢) رسالة الصبان بما نسبه الاجابى ٩ ص ٥٠٦ .
(٣) السابق ص ٥٠٥ ، ص ٥٠١ .
(٤) الكشاف جـ٢ ص ٩٠ ـ ط الاستقامة ـ .

وذكر وصفه وقد خيلت هذه الاستعارة ميثاق الله وعهده لانبيائه حبلا غليظا مرئيا وملموسا زيادة فى وضوحه وتشخيصه فى وجدان أممهم ، وحاجزا كثيفا بينهم وبين كل باطل ، ومثل ذلك قوله تعالى (﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾) أى عذاب بالغ فى الشدة ، ووصفه تعالى بما يوصف به المحسوس ليفهمنا أن هذا العذاب لضراوته كأنه شئ يرى بالعين ويُحَسّ باليد وهذا ضرب من ضروب البيان الكاشف الذى ترى به المعانى المعقولة ، تبرز فى صور مشاهدة محسوسة .

وإذا كان البلاغيون قد اتفقوا على أن الاستعارة هنا تسمى استعارة بالكناية أو مكنية أو مكنيا عنها ، فقد اختلفوا فى المعنى الذى يطلق عليه كلمة استعارة بالكناية ولهم فى ذلك مذاهب وآراء عديدة ومختلفة أبرزها مذهب السكاكى والمذهب المنسوب إلى الجمهور ، ومذهب الخطيب القزوينى ورأى العصام والرأى المنسوب إلى صاحب الكشف ، وكذا رأى محمد بن على بن محمد الجرجانى على ماسيأتى تفصيله فى مواضعه .

ولئن كان الخلاف فى فهم كلام الإمام عبدالقاهر وتأويل مراده أحد العوامل المهمة فى اختلاف الآراء ، فالذى لاشك فيه أن الشيخ لم يأت حديثه فى التفريق والتمييز من فراغ وإنما كان له أصول ممتدة فى تراث العلماء قبله ، يبدو ذلك فى الإشارات العديدة التى وقفنا على بعضها عند هؤلاء العلماء ، وهى وإن كانت فى عمومها عبارة عن إشارات موجزة لكنها تعد ذات قيمة حقيقية من الناحية التاريخية فى مجال التأصيل التاريخى للفن البلاغى ، وهذا يؤكد أن البلاغيين المتأخرين لم يبتكروا من رؤوسهم ولكن استمدوا آراءهم من أصول وجذور ممتدة ، وهكذا يمكن القول إن المكنية قد مرت بمراحل ثلاث ومن هنا جاء البحث فى ثلاثة أبواب .

* * *

الباب الاول

الكناية قبل عبد القاهر

الفصل الاول : فى الدراسات القرآنية واللغوية
الفصل الثانى : فى المصادر النقدية والبلاغية



الفصل الاول
فى الدراسات القرآنية واللغوية

المبحث الاول :

==============

النبوية

فى الدراسات القرآنية ~~واللغوية~~

أولا : عند أبى عبيدة

ثانيا : فى مجازات الشريف الرضى

ثالثا : فى أمالى المرتضى

المبحث الثانى :

==============

فى الدراسات اللغوية

أولا : فى الكتاب لسيبويه

ثانيا : فى قواعد الشعر لثعلب

ثالثا : فى الخصائص لابى جنى

رابعا : عند الثعالبى

اولا : عنـــد أبى عبيـدة ت ٢٠٨ (١)

يعد مجاز القرآن من اللبنات الأولى في بناء صرح البلاغة العربيـة والنواة الطيبـة التى أثمرت دراسات مفصلة وبحوثا واسعة فى كتب اللاحقـين ومع أنه لم يرد للفظ الاستعارة ذكر فى مجاز القرآن فانه قد وردت بعـض الاشارات النادرة الى فكرة المكنية •

ولعل أبرزها ماعلق به أبوعبيدة على قوله تعالى : (قَالَتَا أَتَيْنَـا طَائِعِينَ) حيث قال : / هذا مجاز الموات والحيوان الذى يشبه تقدير فعله بفعل الآدميين /(٢) ، وهذا يعنى أن السموات والأرض قد شبهتا بالانسـان الذى تكون منه الطاعة • ولايخفى أن المكنية فى جوهرها تستند إلى هـذا الأصل ، دون أن يعنى ذلك أن أبا عبيدة إنما كان يقصد من وراء كلامه المكنية أو غيرها ، فهذا أمر لم يدر فى خَلَده قطعا ، لم يكن يعنيه هو أو معاصـروه وعلى كل حال فان أمثال تلك الإشارات والتلميحات نادرة كما قلت فى مجـاز القرآن حيث وجدناه يعرض لكثير من شواهد المكنية موجها ومخرجا لها علـى الظاهـــر(٣) •

وإذا كان لفظ الاستعارة لم يرد ذكره فى مجاز القرآن فإن أبا عبيدة قد عبر بلفظ الاستعارة ونص عليه فى أربعة مواضع فى كتابه النقائض (٤) •

ولعل أوضح هذه المواضع الأربعة التى نص فيها أبوعبيدة على لفـظ الاستعارة تعليقه على قـــول جريـــر : —

والْلُؤم قدْ خطمَ البَعِيثَ وأَرْزَمْت ... أم الفرزدقِ عند شرِحـــوارِ

فقوله : (أُرزمت : يعنى حنت وهو حنين الناقة فاستعارة من الناقة فصيره لأم الفـرزدق وقد تفعل العرب ذلك كثيرا (٥) •

وتبدو أهمية هذا التعليق فى كونه الأصل الذى ينبت عليه الاستعارة مـــن الضرب الثانى على ماقال به عبدالقاهر فيمابعد حين قصد إلى التفريق بين ضربى الاستعارة

(١) تاريخ علوم البلاغة • أحمد مصطفى المراغى — ط الحلبى ١٩٥٠ ص ٦٣•
(٢) مجاز القرآن جـ٢ ص١٩٦ • (٣) السابق جـ ٢ ص ٢٣٥ •
(٤) ينظر: مواضع الاستعارة فى النقائض جـ١ص٢ ، ٢٦ • (٥) النقائض جـ٢ ص ٤١ •

ثانيا : عند الشريف الرضى ت ٤٠٦ هـ[١]

يلاحظ الباحث فى مجازات الرضى أنه لم يكن معنيا أصلا بوضع الحدود الفاصلة بين صور البيان ، إذ لم يصرف جهده الى التدقيق العلمى على طريقة البلاغيين الاصطلاحية وإنما كان بحثه أقرب إلى المنهج الأدبى المتلمس لأسرار التركيب مستندا إلى طبعه وذوقه وثقافاته .

ومن هنا وجدنا الشريف الرضى يستخدم كلا من المجاز والاستعارة بمدلول متسع يستوعب عديدا من الصور البيانية والبلاغية بصة عامة .

ومهما يكن من شئ فقد كان للرضى جهود حقيقية فيما يتصل بموضوع المكنية ، بعدها ضمن الدراسات الممهدة لبحوث المكنية عند المتأخرين بل لعلها من أهم تلك الدراسات ، ففى بيان الرضى لطريق المجازات والاستعارات فى آى القرآن والحديث الشريف الذى عرض لها فى كتابيه " الخالدين " نجد له كثيرا من الإشارات إلى طريق التجوز فى المكنية أو التخييلية ، وما جاء فى عباراته مايؤول إليهما معا ، وإن لوحظ على كثير من بيانه التباس المكنية بغيرها من ضروب الاستعارة أو صور البيان الأخرى .

فمن إشاراته الواضحة إلى طريق المكنية والتخييلية معا قوله تعليقا على قوله تعالى : " وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ " وهذه استعارة من وجهين أحدهما : وصف اليوم بالاحاطة وليس بجسم فيصح وصفه بذلك .
والوجه الآخر : أن لفظ "محيط" ههنا كان يجب أن يكون من نعت العذاب فيكون منصوبا فجعله سبحانه وتعالى من نعت اليوم فجاء مجرورا ، فأما وصف اليوم بالإحاطة وإن لم يأت فيه ذلك ، فالمراد به والله أعلم أن العذاب لما كان يعم المستحقين له يوم القيامة حسن وصف ذلك اليوم بأنه محيط بهم أى أنه كالسياج المضروب بينهم وبين الخلاص من العذاب والإفلات من العقاب ، وأما نقل نعت العذاب إلى نعت اليوم ، فالوجه فيه أن العذاب لما كان واقعا فى ذلك اليوم كان ذلك اليوم المحيط به لأنه ظرف لحلوله ووقت نزوله[٢] .

---

(١) الشريف الرضى — محمد عبدالغنى حسن — ص ٢٦ .
(٢) تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى تحقيق محمد عبدالغنى حسن — ط القاهرة سنة ١٩٥٥ — ص ١٦٥ .

والذى يعنينا من كلامه بيانه لطريق الاستعارة فى الوجه الأول فقوله وصف اليوم بالإحاطة وليس بجسم إشارة واضحة منه إلى ماعرف بعدُ بالتخييلية أو الضرب الثانى من الاستعارة عند عبدالقاهر وهى التى يوصف فيها الشئ بالشئ وليس له على الحقيقة (١)

وأما قوله إن العذاب لما كان يعم المستحقين له الى آخره فيجرى على مقتضى المكنية على المذهب المنسوب إلى الجمهور ، فمقتضى كلام الرضى أن اليوم فيه قد شبه بالسياج المضروب بينهم وبين الخلاص من العذاب ، والعلاقة قائمة وهى الإحاطة والشمول ثم حذف المشبه به ودل عليه بشئ من لوازمه .

ومن إشاراته القريبة أيضاً إلى طريق المكنية والتخييلية قوله تعليقاً على قوله صلى الله عليه وسلم وقد ذُكِر الجرجير: "والذى نَفْسُ محمد بيده ما مِنْ عبدٍ بَاتَ فى جَوْفِه شئٌ من هذه البَقْلَة إلاّ بات الجُذَام يُرَفْرِفُ على رأسِهِ حتى يُصْبِح إمّا أن يَسْلم وإمّا أنْ يَعْطَبَ" ، يقول الرضى وهذا القول مجاز لأن الداء المخصوص الذى هو الجذام لايصح أن يوصف بالرفرفة على الحقيقة لأنه عرض من الأعراض ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام يرفرف على رأسه ، عبارة عن دنو هذه العلة فيه ، فيكون بمنزلة الطائر الذى يرفرف على الشئ إذا هم بالنزول إليه والوقوع عليه (٢) .

فقول الرضى أولا لأن الداء إلى آخره يعود إلى التخييلية لأن الشئ قد وصف بما ليس له على الحقيقة أو بمعنى آخر جعل الشئ للشئ وليس له ، وأما قوله بعد ذلك بمنزلة الطائر ألخ ، بيان واضح للمكنية التى يشبه فيها الشئ بغيره لمشاركته إياه فى علاقة ما ويحذف ويدل عليه بشئ من لوازمه .

ولو أردنا أن تجرى الاستعارتين المكنية والتخييلية على مقتضى تخريج الرضى نقول أنه عليه الصلاة والسلام قد شبه الجذام بالطائر والعلاقة قائمة ،

---

(١) ينظر: دلائل الاعجاز ص ١٠٦ .
(٢) المجازات النبوية للشريف الرضى — د/طه الزينى — ط الحلبى ص ١٥٣ ، ١٥٤

فالجذام يكون على حال من قرب الوقوع على من ملأ جوفه بتلك البقلة ، كما أن للطائر حالا شبيهه بذلك حين يرفرف على الشيء إذا هم بالنزول إليه والوقوع عليه وتلك الصلة سوغت ذلك التشبيه ثم حذف المشبه به ، ثم دل عليه بشيء من روادفه على سبيل التخييلية التى هى قرينة المكنية عند المتأخرين .

[وقد يأتى فى بيان الرضى مايشير إلى طريق المكنية فقط على المذهب المنسوب إلى الجمهور يقول فى بيان وجه الاستعارة فى قوله صلى الله عليه (إنى عَلَى جَنَاحِ سَفَر) وهذه استعارة واقعة موقعها ومقرطه غرضها لأنه عليه السلام شبه السفر بالطائر الذى قد هم بالمطار وخيل الآخذ أهبة المسافر كالكائن على جناح ذلك الطائر ينتظر نهوضه ويراقب تحليقه ، ومما يؤكد ذلك قولهم فى الانسان الذى تكثر أسفاره ، ماهو إلا طائر طيار عبارة عن التردد فى السفر وكثرة الانزعاج عن الوطن (١) .

وواضح أن فهم الشريف الرضى للاستعارة فى هذا الحديث الشريف على هذا النحو دقيق ذلك لأن كلمة الجناح قد تأتى مضافة إلى غيرها ، ويختلف التوجيه معها تبعا للمعنى والسياق ، فهم يقولون جناح الطريق وجناح الوادى وجناح الانسان كما قال سبحانه وتعالى (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ) (٢) كل ذلك مستعار للجانب على طريقة الاستعارة التصريحية ، أما قولهم : جناح الأمن ، أو جناح الخوف ، وكذا جناح السفر فيما نحن فيه كما فى قول على كرم الله وجهه فى وصف أحوال الدنيا وتشبيهها بالانسان .... ولم يمس منها فى جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف) (٣) ، لأنه جعل للأمن جناحا فصوره فى صورة طائر قد ألقى جناحه هادئا لايفزعه شيء ، والطائر من أدق الحيوانات حسا بالأمن والخوف ، فهو إذا سكن وهدأ كان ذلك من فرط الأمن والدعة ، وذلك مهم فى السياق — ثم جعل للخوف قوادم ، فصوره فى صورة طائر مذعور قد مد قوادمه جادا فى الهرب ، ولهذا آثر القوادم هنا على الجناح ليشعر بامتداد الجناح وبسط القوادم ، وناهيك عمن يكون على قوادم طائر مذعور .

---

(١) السابق ص ١٣٤ .
(٢) سورة طه : آية ٢٢ .
(٣) التصوير البيانى — د/ أبو موسى — ص ٢٨٦ .

وقد يأتى فى بيان الرضى مايومئ أيضا الى العلاقة القائمة بين المستعار منه والمستعار له ، ومنه تعقيبه على قوله صلى الله عليه وسلم : (وَاللَّهِ لا أُعْطِيكُمَا وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَنْطَوِى بُطُونُهُمْ لا أَجِدُ ما أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ) (١) . يقول الرضى : (وفى هذا القول مجاز ، وأهل الصفة هم فقراء المهاجرين — فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه بطونهم من الحمض والهضم لقلة الزاد والمطعم بالأوعية الفارغة التى تنطوى لفراغها وتنضم لخلو أجوافها) .

فقول الشريف هذا قريب جدا من إجراء المتأخرين مثل هذه الاستعارات ، حيث يقولون شبهت بطون أهل الصفة بالشئ الذى ينطوى إذا أفرغ منه الهواء كالقربة وحذف ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو تنطوى .

وفى قوله تعالى : " وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا " يعقب الرضى بأن ههنا استعارتين يعنينا منهما الأولى حيث يقول : أحدهما قوله سبحانه وتعالى : " إلا اتباع الظن " لأن الظن هنا جعل بمنزلة الداعى الذى يطاع أمره والقائد الذى يتبع أثره مبالغة فى صفة الظن بشدة الاستيلاء عليهم وقوة الغلبة على قلوبهم) (٢) فكأنه شبه الظن بالداعى أو القائد المتبع على وجه الاستعارة بالكناية .

وكذلك يرى الرضى أن هناك استعارتين فى قوله صلى الله عليه وسلم (الصَّوْمُ جُنَّةٌ والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخطيئة) ويشير إلى الاستعارة الأخرى بقوله : والاستعارة الأخرى قوله صلى الله عليه وسلم (والصدقة تطفئ الخطيئة) وذلك أنه صلى الله عليه وسلم جعل الخطيئة بمنزلة النار ، وجعل الصدقة مطفئة لها إذا كثرت فأثرت فى سقوط عقابها (٣) .

فقول الشريف الرضى جعل الخطيئة إلى آخره يجرى على مقتضى المكنية عند المتأخرين حيث يقولون إن الخطيئة قد شبهت بالنار فى ضررها ،

---

(١) المجازات النبوية ص ٣٥٥ ، ص ٣٥٦ .
(٢) ينظر : صور من تطور البيان العربى ص ١٧٦ نقلا عن تلخيص البيان للرضى .
(٣) المجازات النبوية ص ١٨٩ ، ص ١٩٠ .

ثم حذفت ورمز إليها بشئ من لوازمها وهو الانطفاء ، وفى بيان الرضى لوجه الاستعارة فى قوله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ قَالَ كَذَا وَكَذَا غُفِرَ له ولو كان عليه طِفَاحُ الأرضِ ذُنوباً) .

يقول الرضى : (وهذه استعارة ، والمراد : ولو كان عليه ملء الأرض ذنوبا ، فجعل الأرض كالاناء الذى طفح ماؤه وبلغ الغاية من امتلائه) (١) .

فتفسيره أولا طفاح الأرض بملء الأرض واضح فى اعتبار التصريحية ، لأن اللفظ حينئذ معنى يمكن أن ينص عليه ، وقوله بعد ذلك فجعل الأرض كالاناء يمكن أن يحمل على المكنية ، ويقال حينئذ إنه قد شبه الأرض بالاناء بجامع كون كل منهما مكانا للشئ يوضع فيه ، وحذف ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو الطفاح .

وربما جاءت عبارة الرضى ملتبسة فيها التخييلية بالتصريحية ، من ذلك إيضاحه للمجاز الأول عنده فى قوله عليه السلام (فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ إِلاَّ رَجُلٌ فِى الْحَرَمِ مَنَعَهُ الْحَرَمُ مِنْ عَذَابِ اللّٰهِ) يقول الرضى (وفى هذا الكلام مجازان ، أحدهما : قوله صلى الله عليه وسلم : تحت أديم السماء ، فجعل للسماء أديما ، يريد ماظهر منها للأبصار تشبيها بأديم الحيوان ، وهى الجلود التى تلبس الأجساد وتغطى اللحوم والعظام) (٢) .

فقوله أولا : فجعل للسماء أديما يؤول إلى جعل الشئ للشئ وليس له على الحقيقة وهو ، ماعرف عند المتأخرين بالتخييلية — أو الضرب الثانى من الاستعارات عند عبدالقاهر ، وأما قوله يريد ماظهر إلى آخره فمرده إلى التصريحية على مفهوم المتأخرين فيها .

وهناك صور أخرى عديدة من الالتباس وعدم الفصل بين الصور بما يضيق المجال عن تفصيله ، فقد يقع اللبس عند الرضى بين المكنية والتشبيه البليغ (٣) — وقد يجرى بعض الصور على التصريحية مع أن الأوفق فى التحليل اعتبار المكنية منها .

---

(١) السابق ص ٣٠٦ هـ ٣٠٧ . (٢) السابق ص ٣١٣ ، (٣) السابق ص ٢٦٩ .

وهكذا يمضى الشريف الرضى فى تتبع ألوان البيان القرآنى والنبوى آية آية وحديثا حديثا ، وقد وجدنا منه فى تحليله الكاشف والمستشرف آفاق النص وأسراره ماتعده من قبيل الإشارات المهمة جدا والممهدة لمذاهب المتأخرين فى المكنية أو التخييلية ، وربما اليهما معا ، وقد يذكر العلاقة المسوغة للتشبيه والاستعارة ، ولايعنينا بعد ذلك المصطلح البلاغى فسواء أسماه استعارة أم كناية أم مجازا أم غير ذلك فالأهم الفكرة التى بنى عليها تصورة وكشف بها عن طريق التجوز على ضوء مقاييس عصره .

وقد استطاع الرضى أيضاح فكرته بأسلوب أدبى كاشف وكثيرا ماتدفعه الرغبة فى مزيد الكشف والبيان مستعينا بذوقه وأدبه فيستطرد فى ذكر الاحتمالات التى يمكن أن يؤخذ عليها النص ، فيوقعه ذلك فيما يمكن أن يعد من قبيل الخلط والمزج بين الصور .

ولعل أهم الملاحظات التى نود أن نسجلها هنا أن تصور الرضى لأسلوب المكنية على ضوء تحليله يقترب جدا مع تصور صاحب الكشاف وسيزداد هذا الأمر وضوحا عند الحديث عن المكنية عند الزمخشرى .

* * *

ثالثا : في أمالي المرتضى ت ٤٣٦ هـ (١)

مما هو جدير بالحديث ولو في إيجاز إشارات المرتضى الى مبدأ لغوى ونقدى مهم ، والذى نرى فيه أن المرتضى مع كونه فقيها أصوليا متكلما إلا أنه قد استجاب فيه إلى دواعي الذوق على نحو فاق به كثيرا من كبار النقاد ، فقد خالف الأمدى في بعض نظراته النقدية ورأى فيها بعدا عن الصواب واتهمه وعنف في الرد عليه ، ومن ذلك إشارته (بأن الشاعر لايجب أن يؤخذ عليه في كلامه التحقيق والتحديد فإن ذلك متى اعتبر في الشعر بطل جميعه ، وكلام القوم مبنى على التجوز والتوسع والإشارات الخفية والايماء على المعاني تارة من بعد وأخرى من قرب لأنهم لم يخاطبوا بشعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم ويفهم أغراضهم (٢)

ولاشك أن هذا الكلام منه يلقى الضوء على اتجاهه العام في فهم النصوص الأدبية ثم يقول بعد ذلك (ومن شأن العرب أن تجرى على الشيء الوصف الذى قد كان يستحقه وقرب منه القرب الشديد ، فيقولون : قد قتل فلانا هوى فلانة ، وَدَلَّه عقله وأذال تميزه وأخرج نفسه ، وكل ذلك لم يقع ، وإنما أرادة المبالغة وإفادة المقاربة والمشارفة ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى (٣).

وعلى الرغم من أن المرتضى قد ألف أماليه في القرن الخامس ، فإننا مازلنا تشهد عنده امتزاجا بين ألوان الاستعارات ، وهذا يتضح في تأويله لقوله صلى الله عليه وسلم (تقىء الأرض أفلاذ كبدها ...) اذ صرح بأن معنى (تقىء) أى تخرج مافيها من الذهب والفضة ، وذلك من علامات قرب الساعة ، قوله (تقىء) تشبيه واستعارة من حيث كان إخراجا وإظهارا وكذلك تسميته مافى الأرض من الكنوز كبدا تشبيها لها بالكبد التى في بطن البعير وغيره (٤)

---

(١) مقدمة أمالي المرتضى تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم ص ١١.
(٢) السابق جـ٢ ص ٩٥.
(٣) السابق جـ٢ ص ٩٦.
(٤) السابق جـ٢ ص ٩٥.

وظاهر تأويل المرتضى ان الاستعارة فى (تقىء) كبدها ، تجرى على طريق التصريحية وهو وإن صرح بلفظ الاستعارة لكن يلاحظ أنه قرنهما بلفظ التشبيه وإذا كان هذا التوجيه واضحا ومقبولا إلا أننا نشعر بشىء من الخلط بين مفهوم الاستعارة التصريحية والمكنية - عنده - فبعد أن قرن الاستعارة فى الحديث قال : (وللعرب فى هذا مذهب معروف) ثم أورد بعض الشواهد منها : استعارة الغضب للقدر فى قول مرة بن محكان :

لَهَا أَزِيزٌ يُزِيلُ اللَّحْمَ أَزْمَلُهُ ... عَنِ الْعِظَامِ إِذَا مَا اسْتَحْمَشَتْ غَضَبَاً
تَرْمِي الصَّلَاةَ بِنَبْلٍ غَيْرِ طَائِشَةٍ ... وَفْقاً إِذَا آنَسَتْ مِنْ تَحْتِهَا لَهَبَا (٢)

وأيضا استعار الأكل والشرب للدهر فى قول النابغة الجعدى : -

سَأَلَتْنِي عَنْ أُنَاسٍ هَلَكُوا ... شَرِبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَأَكَلْ

ويتضح من تعليقه على هاتين الاستعارتين اختلافهما عما فى الحديث بناء على توجيهه السابق ، إذ أنه أعقب الشاهد الأول بقوله (فوصفها بالغضب تشبيها واستعارة) (٣) .

وعلى قول النابغة علق بقوله (فوصف الدهر بالأكل والشرب تشبيها واستعارة) (٤) .

وهنا تبدو المقارنة بين استعارتى الحديث وما فى الشاهدين غير متكافئة ، ففرق بين استعارة القىء لخروج مافى باطن الأرض والأكباد ولما فى باطنها من ناحية ، واستعارة الغضب للقدر ، والأكل والشرب للدهر من ناحية أخرى ، فمآل توجيه الاستعارتين الأوليين إلى التصريحية وما فى البيتين إلى المكنية مع أن الكل عنده تشبيه واستعارة .

---

(٢) تلقى الصلاة : جمع صال - غير طائشة : غير مخطئة ، وفقا : أى ربما وفقا ، شبه ما تلقى به النار من نفيانها بالنبل أى كلما اشتدت النار تحت القدر اشتد غليانها بقدر اشتداد النار تحتها ، ينظر : هامش الأمالى .

(٣) الآمالى جـ١ ص ٥٩ . (٤) السابق ص ١٩٦

وقد يكون من أقرب اشارات المرتضى إلى المفهوم الذى قامت عليه المكنية ما أورده تعليقا على بيت الراعى فى الأثا فى :-

أُنِخْنَ وَهُنَّ أَغْفَالٌ عَلَيْهَا فَقَدْ تَرَكَ الصَّلَاةُ بِهِنَّ نَسَارَا

حيث قال : (شبه الأثا فى بنوق أنخن اغفالا) (١) ، إذ أن لفظ النوق المشبه به ليس مذكورا وإنما المذكور الإناخة التى هى من صفاته ، ولو شئنا الاجراء على المكنية على مذهب المتأخرين لقلنا شبه الأثا فى بنوق ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وإسناد الاناخة إلى ضمير الأثافى تخييل ، ويمكن أن يعد من إشاراته أيضا تعليقه على قول الكميت بن يزيد :-

وَلَنْ تُحَيِّيكَ أَظْآرٌ مُعَطَّفَةٌ بِالْقَاعِ ، ولا عك فيها ولاتهل
ليست بحوز ، ولم تعطف على رُبَع ، ولايهيب بها ذو النية الأبل

حيث قال (فشبه عطفها على الرماد بنوق أظآر قد عطفن على فصيل (٢) وإجراء الاستعارة هنا لايختلف عما فى المثال السابق .

وقد تحدث عن الحذف والاختصار وبلاغته مستشهدا ببعض الأمثلة المقرر الحذف فيها على ضوء المقاييس النحوية فى مثل قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ....) الآية ، وكون الآية قد حذف فيها جواب لو لامنازعة فيه لكنه أجرى هذا التأويل على بعض الأمثلة التى تعد من قبيل المجازات مع وجود التفاوت النوعى ، وتحديد اللون المجازى المحمولة عليه ، فقد عقب على قوله تعالى : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. الآية) بقوله وتقديره : إن السموات والأرض والجبال لو كن مما يأتى ويشفقن ، وعرضنا عليهن الأمانة لأبين وأشفقن) وكذا فى قول الشاعر : «امتلأ الحوض» وقال قطنى ، والمعنى امتلأ حتى لو كان مما يقول فقال ذلك وهذا أولى فى نفسى من تفسيرهم لهذا البيت بأنه ظهرت منه أمارات القول والنطق .

---

(١) الأمالى جـ٢ ص ٣١ .
(٢) السابق ص ٣٢ .

وهذا الذى أشرنا اليه هو معنى كل ماجرى مجرى هذا انهيت ... من مثل قول الشاعر :

وأجهشت للتوباذ حين رأيته وكبّر للرحمن حين رآنى
فقلت له: أين الذين عهدتهم بجنبك فى خفض وطيب زمان
فقال : مضوا واستودعوا فى بلادهم ومن ذا الذى يبقى على الحدثان (١)

ومن المعلوم أن تلك الشواهد ونظائرها قد عدها بعض العلماء من باب الاستعارات(٢) بما يتفق والكناية بل إن كثيرا من المحدثين يحتم هذا التوجيه ويشجع عليه على ماسنعرض له مفصلا (٣)

والشىء الداعى إلى الاستغراب والدهشة أيضا ما صرح به المرتضى بعد قوله (وأنت إذا تأملت وجدت المجازات التى يتصرف فيها أهل اللسان فى منظومهم ومنثورهم وجدتها كلها مبنية على الحذف والاختصار) (٤) .

وفى هذا القول كما لايخفى تعميم فى الحكم يؤدى الأخذ به وتطبيقه فى أكثر الأحوال إلى شىء من التكلف والتعسف يصعب تلافيه ، إذ أن كثيرا من الصور المجازية ، وخاصة شواهد الكناية لاوجه إلى اعتبار الحذف معها إلا بتمحل لايقول به الذوق السليم الذى أوقفنا المرتضى على بعض جوانبه كما أسلفنا .

* * *
* *
*

(١) السابق جـ٢ ص ٣٠٩ ، ص ٣١٠ .
(٢) ينظر: نقد النثر المنسوب إلى قدامه بن جعفر ص ١٠ ، ١١ .
(٣) الامالى جـ ٢ ص ٣١١ .

المبحث الثاني

تمهيد : كتب اللغويين

وأما اللغويون فقد كان لهم أثر واضح في مضمار البلاغة ، فلم يكن البحث اللغوي في عهده الأول مقصورا على مايتصل بالسلامة أو الصحة اللغوية وإنما كان من الاتساع في مفهومه بحيث يمتد إلى فقه العربية والكشف عن أسرار التعبير وخصائص التراكيب .

ومن هنا وجدنا عند بعض هؤلاء العلماء لمحات أو إشارات مهمة إلى طريقة الاستعارة المكنية أو التخييلية ، ويبدو هذا في الكتاب لسيبويه وقواعد الشعر لثعلب ، والخصائص لابن جنى ، يضاف إلى ذلك بعض الإشارات التي وردت على ألسنة الرواة ، فقد ذكر ابن رشيق في تعليقه على قول ذي الرمة : —

أَقامَتْ بِهِ حَتّى ذَوَى العُودُ والْتَوَى ... وَسَاقَ الثُّرَيَّا فى مُلاءَتِهِ الفَجْرُ

وكان أبو عمرو بن العلاء ت ١٥٤[1] لايرى أن لأحد مثل هذه العبارة ، ويقول : (ألاترى كيف صير له ملاءة ، ولاملاءة له ، وإنما استعار له هذه اللفظة)[2] ، كما ذكر الحموى نقلا عن كفاية الطالب لابن الأثير أن أباعمرو يرى أن استعارة الشيء لما يقرب منه ويليق به أولى من استعارته لما ليس منه في شيء ، كقول أرطأة بن شهية : —

فقلتُ لها يا أمَّ بيضاء إنني ... هُرِيقَ شبابي واستشنّ أديمي

قال هريق شبابي ، لما في الشباب من الرونق والنضارة التي هي كالماء[3] .

اولا : في الكتاب لسيبويه ت : ١٨٠[4]

ويمكن القول إن سيبويه قد ضمن كتابه عرضا لعديد من صور البلاغة وضرب لها أمثلة مختلفة وفسرها تفسيرا بلاغيا أحيانا ، وإن لم يذكر لها

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٩ .
(٢) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢٦٨ .
(٣) درر العبارات وغرر الاشارات في تحقيق معاني الاستعارات لاحمد بن محمد مكي الحسيني الحموى — تحقيق عبدالحليم محمد شاذى ص ١٧٦ .
(٤) مراتب النحويين ص ٦٥ .

أسماء اصطلاحية ومن ثم فلاغرابة أن يكون قد وقع فى الكتاب بعض التعليقات والإشارات التى تتفق والفكرة التى بنيت عليها المكنية أو التخييلية •

يقول سيبويه تعليقا على بيت الخنساء : ـ

وداهية من دواهى المنو ن يرهبها الناس لافالها

فجعل للداهية فما حدثنا بذلك من نثق فيه(١)

وسواء أقصد بمن أخذ عنه الخليل أم غيره فإن قول سيبويه على وجازته يعد ذا قيمة تاريخية مهمة لأنه يلتقى ومفهوم عبدالقاهر لهذا الضرب من الاستعارة ، وذلك أن قوله جعل للداهية فما مما يؤول إلى أن الداهية لابد وأن تكون قد شبهت أولا بمن كان له فم على الحقيقة كحيوان مفترس حتى يسوغ جعل الفم للداهية •

فيصير الأمر إلى جعل الشئ للشئ وليس له كما ذكر عبدالقاهر فيما بعد وارتضاه العلوى(٢) بعدما فند كل التعريفات الأخرى •

ومن كلام سيبويه الهام جدا فيما يتصل بالمكنية حديثه عن حروف الجر وطريق الاتساع فيها ، ومن المعلوم أن حروف الجر فى اللغة العربية على كثرتها واسعة التصرف مما يكسب اللغة أثراء لتؤدى أغراضا متنوعة ومعانى شتى والعرب حينما يتوسعون فى استعمال الحروف أنما يهدفون تصوير معناها وأثرها فى البيان ، وسيبويه قد لاحظ توسع اللغة فى استعمال الحروف واستعمالها فى معانى غير التى وضعت لها وكان له فى ذلك موقف واضح وتوجيه محدد فقد تحدث سيبويه عن الحرف (فى) وأنه يستعمل على طريق الاتساع فقال " وأما " فى " فهى للوعاء كقولك : هو فى الجراب وفى الكيس وفى بطن أمه ، وكذلك هو فى الغل ، لأنه جعله إذا أدخله فيه كالوعاء له ، وكذلك هو فى القبة ، وفى الدار ، وإن اتسعت فى الكلام فهى على هذا وإنما تكون كالمثل يجاء به يقارب الشئ وليس مثله(٣)

(١) الكتاب لسيبويه ج ١ ص ٣١٤ •
(٢) الطراز للعلوى ج٢ ص ٢٠٤ •
(٣) الكتاب ج ٢ ص ٣٠٨ •

فقول سيبويه : جعله اذا أدخله فيه كالوعاء له مواضح جدا في أن الكلام مبنى على تشبيه الفعل بالوعاء ، وأن حرف الظرف (في) دال على ذلك وهذا بلاريب مما يدخل فيما عرف بعده بالاستعارة المكنية ، ويمكن أن نرجع بمذهب الخطيب وابن يعقوب إلى كلام سيبويه حيث ذهبا إلى أن الاستعارة في الحرف تابعة لتشبيه يجري في مدخول الحرف أي في مجروره ، وإن اختلفا في الاسم الاصطلاحي على تفصيل يأتي وفق مايقتضيه سياق البحث .

وتوجيه سيبويه هذا فيما أرى أولى مما أعتبره السكاكي حين ذهب إلى اعتبار الاستعارة في متعلق الحرف قاصدا به معناه الكلي كالظرفية بالنسبة للحرف (في) [1] .

وإنما قلنا ذلك لأن الذي يفهم من التعبير ليس هو ذلك التشبيه والتصوير الذي يجري في المعاني التجريدية للحروف ، إنما هو تصوير يجري في الأفق القريب لمدلول العبارة ، فقولك : هو في الغل فيه تصوير للغل في صورة ظرف يحيط بصاحبه ويغمره من جهاته .

ولعل في أقوال سيبويه وإشاراته مايؤكد التفات العلماء قبل الزمخشري ومن غير أصحاب كتب التفسير إلى هذا الفن ، فصاحب الكشاف مع عنايته الواضحة بحديث الاستعارة في الحرف إلا أن توجيهاته لم تكن من التحديد بحيث يصبح التنصيص بها على اتجاه بعينه، هل يعد التشبيه والاستعارة في أم في مدخوله مما جعل الاستاذ الدكتور محمد أبوموسى يستخلص أن كلام الزمخشري يصح أن يستدل به على الوجهين [2] .

وعلى ذلك فان قيمة ماذكره سيبويه لايرجع إلى اعتبار السبق الزمني فحسب وانما الى وضوح التوجيه وتميزه إلى حد كبير .

---

(١) المفتاح ص ٢٠٣ .
(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، د/ محمد أبو موسى — دار الفكر — ص ٤١٩ ومابعدها .

الملتبة

وهكذا يمكن القول إن سيبويه قد ضمن كتابه بعضا من أمثلةٍ وفسرها تفسيرا بلاغيا ، بل نراه يتناولها بعين الطريقة التى سلكها علماء البلاغة من بعد فى مباحثهم ، غاية الأمر أنه لم يذكر لها أسماء اصطلاحية فذكر المصطلحات فى عصره لم يكن ذا شأن خطير ، وإنما كان البحث ينصبُّ أصلا حول اللغة ومتصرفاتها ومحاولة الكشف عن خصائصها وأسرارها .

* * * *
* * *
* *
*

ثانيا : فى قواعد الشعر لثعلب ت ٢٩١ (١)

وأما أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب فقد خص فى كتابه قواعد الشعر الاستعارة بحديث قال عنها فى أوله (وهو أن يستعار للشئ اسم غيره أو معنى سواه) ثم أورد كثيرا من الأمثلة معقبا عليها فى إيجاز لكنه على كل حال كان فى القول بأنه يقصد الاستعارة المكنية دون غيرها فكل شواهده وتعليقاته تنطق بهذا المفهوم بما يقترب مما وجدناه عند سيبويه.

يقول تعقيبا على بيت زهير :

فشدَّ ولم يَنْظُرْ بيوتاً كثيرةً　　لَدَى حيثُ ألقتْ رحلَها أمُّ قشعمِ

ولا رجل للمنية .

وفى قول تأبط شرا فى شمس ابن مالك :

إذا هزَّه فى عظمِ قِرْنٍ تهلَّلتْ　　نواجذُ أفواهِ المنايا الضواحكِ

يقول ولا نواجذ للمنية ولافم .

ويقول تعليقا على قول الشاعر :

فظلَّ يُناجِى الأرضَ لم يَكْدَح الصفا　　به كَدْحَةً والموتُ خزيانُ يَنْظُرُ

يقول ولاعين للموت .

وعلى قول ذى الرمة : -

سقاهُ الكَرَى كأسَ النُعَاسِ فرأسُه　　لِدينِ الكَرَى مِنْ أولِ الليلِ ساجدُ

يقول ثعلب ولادينَ لكرى ولا كأس (٢) للنُعَاس.

---

(١) مقدمة كتاب : مجالس ثعلب ص ١٠.
(٢) ينظر: قواعد الشعر لثعلب ، شرح : د/خفاجى - ط / الحلبى ١٩٤٨ ص ٣٧ ومابعدها .

ولاتخرج تعليقات ثعلب الأخرى عما ذكرناه ، وهى تكشف عن اتجاه الرجل فى فهم تلك الأساليب،فتعريفه للاستعارة،وتعقيباته تشير فى وضوح إلى مدى التقارب بينه وما ذكره عبدالقاهر ، وأشرنا إليه سابقا ، فقوله فى التعريف أن يستعار للشئ اسم غيره أو معنى سواه يؤول إلى جعل الشئ للشئ وليس له على الحقيقة ، ويؤكد هذا المعنى تعليقاته فى نحو قوله ولا رجل للمنية يفيد أن جعل الرجل للمنية استعارة لأن المنية لا رجل لها على الحقيقة، وهذا يعنى تشبيه المنية بمن له رجل على الحقيقة حتى يسوغ جعل الرجل للمنية •

ويرجع د • عبدالقادر حسين احتفاء ثعلب بالاستعارة بالكناية إلى تعجب العرب منها وإجلالهم لها ، فالصولى يعتبر الاستعارة بالكناية أجل استعارة وأحسنها وكلام العرب جار عليها (١).

ويبدو لى أن ثعلبًا قصد إلى ذكر بعض الصور مما ورد فى أشعار العرب من ذلك اللون من البديع الذى أكثر منه المحدثون وظنوا أنهم مبتكروه ليثبت أصالة هذا الفن من ناحية ، وليبين الطريقة التى كان الشعراء فى القديم يجرون عليها ، ويؤكد هذا المعنى طريقة ثعلب فى الاستشهاد حيث جاءت شواهده مما ورد فى الشعر العربى من العصر الجاهلى والأموى فحسب •

---

(١) ينظر: أثر النحاة - د/ عبدالقادر حسين - دار نهضة مصر - ص ٢٣٥•

ثالثا : في الخصائص لابن جـــنى . ت ٣٩٢ هـ

وقد أشار أبو الفتح عثمان بن جنى فى الخصائص إلى المكنية وطريـق التجوز فيها وذلك فى الباب الذى عقده للتفريق بين الحقيقة والمجاز الـذى بدأه بتعريف الحقيقة والمجاز ، حيث قصد بالثانى أن يستعمل اللفظ فى غـير ماوضع له فى اللغة ، ومن خلال حديثه عن المجاز يتبين أنه لابد فيه مـن التشبيه الذى يعد عنده أحد الأصول الثلاثة التى بنى عليها كل مجـاز بالاضافة إلى التوسع والتوكيد ، وعلى ذلك فإن المجاز عنده ينصرف إلـى الاستعارة خاصة ، ومعنى هذا أن ابن جنى لم يلتفت إلى ماعرف بعده بالمجاز المرسـل [1] .

والذى أشار إليه من سبقوه والمعاصرون له [2] حتى جاء عبدالقاهـر الذى حرر الفرق بينه وبين غيره على طريقته فى تناول مسائل البلاغـة [3] والمهم أن أكثر ماذكره ابن جنى من أمثلة فى هذا الباب شرحه بما يفيـد عنده أنه من باب الاستعارة المكنيـة ـ اذا استثنينا من ذلك المثـال الأول الـذى أتـى بـه .

فمن إشارات ابن جنى القريبة إلى المكنية قوله وهو بصدد بيـان الأصول الثلاثة التى حتمها فى كل مجاز على ضوء قوله تعالى : " وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا " يقول هذا هو المجاز ، وفيه الأوصاف الثلاثة ، أما السعة فلأنـه كأنه زاد فى أسماء الجهات والمحال اسما هو الرحمة ، وأما التشبيه فلأنـه شبه الرحمة ، وإن لم يصح دخولها بما يجوز دخوله فلذلك وضعه بوضعهـا ، وأما التوكيد فلأنه أخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر ، وهذا يقـال بالعرض وتفخيم عنه [4] ، نراه فى قوله فلأنه شبه الرحمة إلى آخره يميل إلـى مقتضى الاستعارة بالكناية حيث شبهت الرحمة بمكان ودل على ذلك بـلازم المشبه به وهو الادخال .

(١) أنظـر : المفتـــاح ص١٧٢ .
(٢) ينظـر : الموازنـــة ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٣) ينظـر : الأســـرار جـ٢ ص ٣٥٩ .
(٤) ينظـر : الخصائـــص ص ٤٤٣ .

والمعروف أن تلك الآية قد آلت عند المتأخرين إلى المجاز المرسل مما تكون العلاقة فيه غير المشابهة سواء أكانت السببية [1] أم كانت المحلية كما نص صاحب الاتقان [2] فإن الذي يعنينا بالأصالة إنما هو اتجاه ابن جني .

وواضح في أنه يتفق ومقتضى المكنية عند المتأخرين

وأحيانا يشير ابن جني إلى نحو ما ذهب إليه عبد القاهر فقط من جعل الشيء للشيء وليس له على الحقيقة حيث يقول صاحب الخصائص تعليقا على قول الشاعر :

ووجه كأنّ الشمس حلّت رداءها   عليه نقيّ اللون لم يتخدّد

يقول : جعل للشمس رداء [3] ، ويعرض ابن جني لبعض الأمثلة التي سبق أن عرضها سيبويه تحت باب التوسع إلا أن ابن جني يعرضها بمفهوم آخر أكثر تحديدا بما يتجه بها إلى المكنية فيقول : (ألا ترى إذا قلت : بنو فلان يطؤهم الطريق ، ففيه من السعة أخبارك بمن لا يصح وطؤه بما لا يصح وطؤه فتقول على هذا : أخذنا على الطريق الواطئ لبني فلان ومررنا بقوم موطوئين بالطريق ، ويا طريق طأ بنا بني فلان أي أدنا إليهم ، وتقول : بنى فلان بيته على سنن المارة ، رغبة في طلة الطريق بأضيافه له ، أفلا ترى إلى وجه الاتساع عن هذا المجاز .

ووجه التشبيه إخبارك عن الطريق بما تخبر به عن سالكيه فشبهته بهم ، إذ كان هو المؤدي لهم فكأنه هم .

---

(١) ينظر : هامش الخصائص نفس الموضع
(٢) ينظر : الاتقان جـ ٢ ـ ط : دار الفكر ـ لبنان ـ جـ٢ ص ٣٧
(٣) ينظر : الخصائص ص٤٤٥

وأما التوكيد فلأنك اذا أخبرت عنه بوطئه إياهم كان أبلغ من وطء سالكيه لهم وذلك أن الطريق مقيم ملازم ، فأفعاله مقيمة معه ثابتة بثباتـــه وليس كذلك أهل الطريق لأنهم قد يحضرون فيه ويغيبون عنه فأفعالهم أيضا كذلك حاضرة وقتا وغائبة أخرى ، فأين هذا مما أفعاله ثابتة مستمرة ، ولما كان هذا كلاما الغـــــرض فيه المدح والثناء ، اختاروا له أقوى اللفظين لأنه يفيد أقوى المعنيين[1] .

نرى أن ابن جنى يذكر أولا كيف كان الاتساع بهذا التعبير المجازى ثم التشابه بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى ، ووضح لنا كيف أدى هذا التعبير المجنى حتى يكون المجاز أبلغ من الحقيقة لما فى الأداء به مـــن القوة التى تعرى عنها الحقيقة فى هذا السياق والأهم من ذلك كله أن فى قـــول ابـــن جنى فى بيان وجه التشبيه ، ووجه التشبيه أخبارك) الى آخـــره إشارة واضحة إلى طريق الكنية ، وميل بهذا الأسلوب إليها فهو يشبـــــه الطريق بقوم سائرين وجعل الوطء دليل ذلك التشبيه ، وبهذا نلحظ مـــدى التطور الكبير فى فهم تلك الأساليب ونظائرها على يدى ابن جنى عما كان عليـــه الأمر عند سيبويه[2] .

ومن إشارات ابن جنى الواضحة أيضا إلى الكنية وطريق التجوز بهـــا ما قاله فى بيانه لوجه التجوز فى قوله تعالى (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) يقول ابن جنى : (فيه المعانى الثلاثة ، أما الاتساع فلأنه استعمل لفـــظ السؤال مع مالا يصح فى الحقيقة سؤاله : وأما التشبيه : فلأنها شبهت بمـــن يصح سؤاله لما كان لها وظرفا لها ، وأما التوكيد فلأنه فى ظاهر اللفـــظ إحالة بالسؤال على من ليس من عادته الإجابة ، فكأنهم تضمنوا لأبيهم عليـــه السلام ، انه ان سأل الجمادات والجبال (أنبأته بصحة قولهم وهذا تناه فى تصحيح الخبر، أى لو سألها لأنطقها الله بصدقنا فكيف لو سألت من عادته الجواب[3] .

---

(١) ينظـــــر: الســــابق ص ٤٤٦ .
(٢) ينظـــــر: الكتـــــاب لسيبويه جـ١ ص ١٠٨ ، ص ١٠٩ .
(٣) الخصائـــــــص : جـ ٣ ص ٤٤٧ .

فالفرق واضح بين من يذكر فقط أن فى هذا الأسلوب اتساعا أو حذفا كما كان الأمر عند سيبويه ، وبين صاحب الخصائص الذى يذكر كيفية هذا الاتساع مع بيان المشابهة بين المعنى قبل أن يتسع ، وبعد أن دخله الاتساع مع إيضاحه لبلاغة الأسلوب المتجوز به وما طرأ عليه من توكيد ومبالغة — غير أن الذى يلفت النظر هنا أن ابن جنى ينظر إلى أن هذا المجاز ونظائره نظرة المتأخرين إلى الاستعارة بالكناية ، فعلى توجيهه تشبه القرية بانسان ، ثم حذف ودل على ذلك التشبيه بلازم المشبه به وهو السؤال ، فخرج على ذلك من كونه مجازا مرسلا ، وأصبح من أنواع الاستعارة التى يميل بها إلى المكنية ٠

والمتأخرون قد حملوا هذا المثال ونظائره على المجاز المرسل لكون العلاقة فيه غير المشابهة ، وإنما هى عندهم ماعرف بالمحلية ، كما ذكر السيوطى فى الاتقان(١) ٠

وقد كان لاتجاهات ابن جنى هنا آثار حقيقية ، فإذا كان السيوطى قد اكتفى بأن عرض لأمثلة ابن جنى دون تعليق ، فإن ابن الأثير قد فصل وناقش ، واعترض وخرج(٢) على ماستناوله فى مكانه من البحث ٠

---

(١) ينظر: الاتقان فى علوم القرآن جـ٢ ص ٣٧ ٠

(٢) ينظر: المثل السائر لابن الأثير — ط — بولاق ص ٨٤ ٠

ثالثاً: عند الثعالبي ت: ٤٣٠ (١)

ومن العلماء الذين وقفنا منهم على إشارات مهمة الثعالبي في كتابه فقه اللغة وأسرار العربية ، فقد وردت فيه بعض الإشارات إلى فكرة المكنية والتخييلية وإلى طريقة التجوز في الحرف بماله اتصال وما نبحث عنه .

ففي حديثه عن وقوع بعض حروف المعاني موقع بعض تحدث عن الحرف (في) ومجيئه بمعنى (على) فقال : (في بمعنى : (على) كقوله تعالى : "وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ " لأن الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور ، وينشد .

هُمُ صَلَبُوا الْعَبْدِيَّ في جِذْعِ نخلة فلا عَطَسَتْ شيبانُ إلاَّ بِأَجْدَعَا(٢)

فكأن الثعالبي يريد أن يقول : إنما ساغ استعمال الحرف (في) هنا مع أن الظاهر للحرف (على) لأن الجذع لما صار مستقرا للميت فكان بهذا مشبها بالغير فجاز أن يستعمل مع الجذع ما كان يستعمل في الأصل مع القبر لكونه قد نزل منزلته .

وهذا الاعتبار من الثعالبي يمكن أن يعد أصلا لما بني عليه أمر الاستعارة بالحرف عند الخطيب ، وابن يعقوب ، فظاهر كلام الثعالبي أن مدخول الحرف ، وهو الجذع قد شبه بالقبر ودل عليه باستعمال ما يختص به وهو حرف الظرفية .

وهذا الأمر أعده مهما جدا في باب التأصيل للفن البلاغي لأنه يعني ان المتأخرين لم يبتكروا من رؤسهم ، وانما بنوا على أصل في التراث ليبقى لهم بعد ذلك فضل التحديد والتمييز .

وواضح أن توجيه الثعالبي لوجه التجوز في الآية الكريمة على هذا النحو دقيق ومقبول وأولى مما ذهب إليه محمد بن على بن محمد الجرجاني ت ٧٢٩ ، حيث أجرى الاستعارة في الفعل لأنه لما استعير الصلب للتمكين روعى التمكين في التعدية (بفي) دون (على) (٢) .

ولا يخفى ما في هذا من ضعف ومخالفة لما عليه جمهور البلاغيين كصاحب

---

(١) مقدمة كتاب فقه اللغة للثعالبي ـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ـ ط: عيسى الحلبي ـ ص ١٠ .

(٢) السابق ص ٣٥٨ .

(٣) ينظر : الاشارات والتنبيهات ـ محمد بن على بن محمد الجرجاني ـ تحقيق د / عبد القادر حسين ص ٢٣١ .

الكشاف(1) والرازى(2) والسكاكى (3) والخطيب (4) ، على خلاف بينهم يأتى طرف منه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وفى موضع آخر نراه يخص الاستعارة بحديث يبدأه بتعريفه لها بما لايخرج كثيرا عما استخلصناه من كلامه السابق يقول الثعالبى (ذلك من سنن العرب هى أن تستعير للشىء مايليق به ويضع الكلمة مستعارة له من موضع آخر ثم حشد طائفة غير قليلة من منثور العرب .

والذى يتحقق فيه مفهوم الاستعارة عنده وإن كنا نلحظ أن فيما مثل به خلطا بين الصور ، يقول الثعالبى مستشهدا (كقولهم فى استعارة الأعضاء لما ليس من الحيوان : رأس الأمر ، رأس المال ، وجه النار ، عين الماء ، حاجب الشمس ، أنف الجبل ، أنف الباب ، لسان النار ، ريق المزن ، يد الدهر ، جناح الطريق ، كبد السماء ، ساق الشجرة .

كقولهم فى التفرق : أنشقت عصاهم ، شالت نعامتهم ، رويت سمع الأرض وبصرها ، وكقولهم فى اشتداد الأمر: كشفت الحرب عن ساقها ، أبدى الشر عن ناجذيه ، حمى الوطيس ، دارت رحى الحرب .

وكقولهم فى ذكر الآثار العلوية: افتز الصبح عند نواجذه ، ضرب بعمبوره سل سيف الصبح من عند الظلام ، نفر الصبح فى قفا الليل ، باح الصبح بسرحى نطاق الجوزاء ، انحط قنديل الثريا)(5) .

وإذا كان مفهوم الاستعارة عند الثعالبى على ماأشرنا إليه يتحقق بتعبير الشىء للشىء وليس له ، فإننا نلاحظ خلطا ظاهرا بين الضروب والصور فيما مثل به : أرأيت كيف خلط بين ماهو ظاهر فى الحمل على جعل الشئ للشئ وليس له وماهو منصرف الى ضرب آخر .

---

(1) الكشاف ص ٣٠٩٣ وج ٦٠

(2) تفسير الرازى ج٤ ص٣٢٠ ، ج٦ ص ٥٦ .

(3) مفتاح البلاغة : ص ١٦٢ . (4) الايضاح ص ١٦٩ .

(5) فقه اللغة ص ٣٨٢ .

فقد ساوى بين أمثال استعارة الدهر ، والنواجذ للشر وبين استعارة الجناح للطريق والأنف للجبل مع أن الفرق بين الضربين واقع ، ذلك أن الهد والنواجذ ، قد استعيرتا لمعنى لايمكن النص عليه على عكس استعارة الجناح والأنف حيث يمكن أن يقال انه استعار الجناح للجانب والأنف لأعلى الجبل وهكذا .

بل نراه يخلط بين صور الاستعارة وضروب أخرى من البيان ملتبسة بها ، فجاء بأمثلة عند التحقيق من قبيل الكناية أو التشبيه البليغ بما لاسبيل إلى الوقوف عنده الآن لنصل إلى حقيقة الفرق لدراسة أساليب البيان بين عبدالقاهر والسابقين عليه حيث عمد الإمام الى التحليل والاستخلاص والفصل الدقيق لمسائل الفن البلاغي وبذل فى ذلك جهدا امتدت أطنابه إلى موضوع المكنية مما سوف نحاول بسطه فى سياقه إن شاء الله تعالى .

وفى موطن آخر خص الثعالبى فصلا لما جرى من غير بنى آدم مجراه فى الإخبار عنه ذكر فيه (من سنن العرب أن تجرى الموات ، ومالايعقل فى بعض الكلام مجرى بنى آدم كما قال الجعدى :

تَمَزَّزْتُها والدِّيكُ يدْعو صَباحه وأما بنو نَعْشٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبوا

وكما قال الله عز وجل (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ، وأكبر من قول الجعدى قول عبدة بن الطبيب :

إذا أشرف الديك يدعو بعض أسرته إلى الصباح وهم قوم معازيل

فجعل للديك أسرة وسماهم قوما[1] .

ولئن كان قول الثعالبى ، فجعل للديك أسرة " يماثل ماوجدناه عند سيبويه وثعلب فإن الذى لاشك فيه أن ذلك كله يمثل الأصل الذى بنى عليه عبدالقاهر حين عمد الى الفرق بين هذا الضرب والضرب الآخر من الاستعارات الذى آل الى التصريحية وهكذا يمكن القول ان اللغويين ، قد كانت لهم اشارات نافعة التقت بها أصحابها الى فكرة المكنية وأفاد منها عبدالقاهر ومن بعده .

---

(١) فقه اللغة ص ٣٧٤ .

الفصـــــل الثانى
فى المصادر النقديـــــة والبلاغيـــــة

المبحـــث الاول :

فى البديع لابن المعتز ، وأخبار أبى تمـــام للصولى

المبحـــث الثانى :

مـــــ ـــــح الآمـــــدى

المبحـــث الثالث :

فى وساطـــــة القاضـــــى الجرجانـــــى

المبحـــث الرابع :

عند أبى هلال ، وابن رشيـــق وابن سنـــان

تمهيـــــــد

ظهر مما عرض في الفصل السابق أن المشتغلين بالدراسات القرآنية واللغوية سواء منهم من صرف جهده الى قضية الاعجاز ، أو اهتم بالتفسير والتأويل ، أو قصد الى بحث مسائل اللغة واسرار التركيب ، أنهم كانوا يهتمون اهتماما واضحا ببيان صور المجـــاز وانواعه لان ذلك يساعدهم دون شك على فهم كثير من آيات الكتاب العزيز ويعينهم علـــى تخريج كثير من الآيات المتشابهات والرد على الطاغين الذين يتبعون ما تشابه منـــه ابتغاء الفتنة .

ومن هنا فلا غرابة أن وقفنا في هذه الدراسات على كثير من الاشارات التي تـــدور حول فكرة الكناية والتخيلية جاوزت احيانا مجرد الرمز والاشارة بحيث جاءت على نحو يكـــاد يتفق أو يقترب وكلام المتأخرين ولو بشيء من الايضاح والبسط .

واذ قد ظهر ذلك فقد كانت الخصومات حول النصوص الأدبية حافزا قويـــــا اهـــم النقـــاد والبلاغيين وشحذ عقولهم ومد أبصارهم الى جوانب النص وتحليل صـــوره والحكم عليها قبولا أو ردا .

وقد كان لهذا دون ريـــب أثر واضـــح على الدرس البلاغي وخاصـــة الجانب التطبيقـــي .

واذا كان ذلك يمثل حقيقة تاريخية ثابتة فثم حقيقة أخرى وهي ان تلـــك الخصومات كانت حول صور البديع التي اكثر منها المحدثون . ولاشك ان الكناية تعد أحد بل أهم وابرز تلك الفنون التي أداروا عليها بحوثهم ودراساتهم وكانت مثار جدل ونقاش . ومـــن هنا تعددت المواقف، وتباينت الاتجاهات . فهناك اتجاه ينزع الى التجديد ولذا يحـــاول اصحابه التماس وجوه التخريج لتلك الصور من الاستعارة التي جاء بها أصحاب البديـــع على خلاف ما جرى عليه العرف والذوق العربي على ما يظهر عند ابن المعتز والصولي .

وهناك اتجاه آخر يؤثر طريقة العرب الموروثة وقد شاع هذا الاتجاه بين كثير من العلماء والنقاد العرب من ذوى الثقافات العربية الخالصة كما يمثلها القرآن الكريم والحديث الشريف ومأثور العرب شعرا ونثرا . وكان مقصدهم الرجوع بتلك الصور الى عهودها السالفة بما فيها من اصالة ووضوح واقتصاد فى غير مبالغة ولا اغراء أو تكلف ولذلك ناصروا طريقة البحترى وأضرابه ممن التزموا المقاييس التى يمثلها عمود الشعر العربى (1) .

واما ابو تمام ومن على طريقته فقد خالفوا فى الطريقة واتجهوا الى التجديد حتى آتوا بكل غريب وبعيد . ويبدو هذا الاتجاه واضحا عند أبى هلال وابن رشيق وابن سنان وعلى نحو أوضح عند صاحب الموازنة .

بقى اتجاه ثالث يرى أن فى كل من الاتجاهين السابقين نوع مغالاة وتطرف فلا ينبغى ان يرفض كل جديد لانه محدث ولو كان حسنا فى ذاته كما لا يسوغ تبجيل كل قديم ولو كان غير جيد فى ذاته . وانما الاوفق رد الحكم بالحسن أو القبح الى ذات النص وسياقه واحوال صاحبه وملابسات عصره .

ولعل القاضى الجرجانى كان أعدل حيث رأى انه لا ينبغى أطلاق الحكم . وانما ينبغى الاجتهاد فى محاولة التماس المعاذير وتحرى الوجوه التى تقرب تلك الاستعارات الى باب القبول .

وانما قلت هذا وأطلت فيه لان تلك الجهود المهمة من خير مايعتز به تراثنا العربى هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى - وهذا هو الاهم - فقد كانت عونا للامام عبد القاهر فى بناء طريقته الفذة فى مجال التحليل الواعى والمدرك للفروق بين ضروب الفن الواحد على ماسيظهر فى موضعه ان شاء الله تعالى .

---

(1) الموشح للمرزبانى ص٤٧٠ .

في البديع لابن المعتز ت ١٩٦ (١)

سبقت الإشارة إلى أن بعضا من العلماء ممن سبقوا ابن المعتز قد ألمحوا إلى أن من الاستعارة نوعا يقوم على وصف الشئ بما ليس له . و هو الذى لا يمكن أن يشار إلى المستعار له (التخييلية) .

و قد التفت ابن المعتز إلى ذلك أيضا . يؤخذ هذا أو يفهم من تعريفه للاستعارة و من بعض تعليقاته كذلك .

فقد عرف الاستعارة بأنها استعارة الكلمة لشئ لم يعرف بها من شئ قد عرف بها (٢) ، ثم ساق ابن المعتز للاستعارة شواهد كثيرة من القرآن الكريم و الحديث النبوى الشريف و كلام الصحابة و أشعار الجاهلين و الإسلاميين و كلام المحدثين من المنثور و المنظوم و المهم أننا وجدنا فى بعض تعليقاته إشارات مفيدة إلى هذا الضرب فمنها تعليقه على قول امرئ القيس :-

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَ أَرْدَفَ أَعْجَازاً وَ نَاءَ بِكَلْكَلِ

حيث قال : (هذا كله من الاستعارة لأن الليل لا صلب له و لا عجز (٣) .

و يذكر أيضا تعليقا على قول النابغة :-

وَصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... ... البيت .

يقول ابن المعتز : " أراح الليل عازب همه هذا مستعار من إراحة الراعى الإبل إلى صاحبها أى موضع تأوى إليه " (٤) .

و يعلق على قول الأفوه الأودى يهجو الجرهميين :-

مُلْكُنَا مُلْكٌ لَقَاحٌ أَوَّلُ ... وَ أَبُونَا مِنْ بَنِى أَودِ خِيَار

(١) تاريخ علوم البلاغة ص ٧٨ .
(٢) البديع لابن المعتز ضمن كتاب ابن المعتز و تراثه تحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٦١٢ .
(٣) السابق ص ٦١٨ .
(٤) السابق ص ٦٢٠ .

فيقول : اللقاح من العرب الذين لا يدينون للملوك و هو مأخوذ من لقاح الإبـــل أى هم مستغنون بما عندهم من العز عن غيرهم[1] .

فمعنى كلام ابن المعتز أن الليل قد وصف بما لا يوصف به على الحقيقة حيث جعل له صلبا و أعجازا إلى آخره كما أن الليل قد أثبت له إراحة ، و كذلك أثبت للملك اللقاح و هذا الوصف أصلا للأبل ، و واضح من ذلك أن هذا المفهوم يتفق و المعنى الذى أشار إليه عبد القاهر فيما بعد و جعله أصلا للتفريق بين ضربى الاستعارة التصريحية و التخييلية على ما سيأتى إيضاحه فى موضعه إن شاء اللـــه .

و مما يلاحظ أن أكثر الشواهد التى أوردها ابن المعتز تدخل فى باب المكنية و لهذا الأمر ما يبرره حيث كانت موضع النقاش بين المحافظين من اللغويين و الشعراء و بين من ينزعون نحو التجديد المسرف و سنرى كيف كان نقد الآمدى منصبا فى أكثره على هذا الضرب حيث أغرب فيه أبو تمام و أضرابه و جاءوا بصور منه على غير المألوف .

و مع أن ابن المعتز أول من ألف فى البديع فيما نعلم - إلا أنه لم ينظر إليه نظرة المعجب بشئ اهتدى إليه ، فلم يره حسنا كله ، فهو بعد تلك الاستعارات الجيدة التى وقعت موقعها من حسه و نفسه أورد كذلك بعض الاستعارات القبيحة التى لم يتذوقها لما رأى فيها من البعد بين المستعار له و المستعار منه ، فمن العيب قول الشاعـــر :ـ

كُلُوا الصَّبْرَ غَضّاً وَ اشْرَبُوهُ فَإِنَّكُمْ ... أَثَرْتُمْ بَعِيرَ الظُّلْمِ وَ الظُّلْمُ بَارِكُ

و قول العباس بن الأحنـــف :ـ

وَلِيَ جُفُونٌ جَفَاهَا النَّوْمُ فَاتَّصَلَتْ ... أَعْجَازُ دَمْعٍ بِأَعْنَاقِ الدَّمِ السَّرِبِ

و هذا و أمثاله من الاستعارة مما عيب من الشعر و الكلام و إنما نخبر بالقليل ليعرف فيجتنب[2] ، و مع أنا نوافقه فى قبح الاستعارة فيما أورد إلا أنه لم يذكر العلة التى بنى عليها حكمه ، و لعله رأى الاكتفاء بحس القارئ و ذوقه عن التماس

(١) السابـــق ص ٦٢٢ .
(٢) البديـــع ص ٦٤٢ .

العلل و الأسباب ، فأمر التعليل هنا يصور إلى التعبير عن احتمال الصبر بالأكل أو تشبيهه بطعام ردئ يقبح بعده ، و أساس الاستعارة هو التقارب بين المستعار له و المستعار منه في الشبه حتى يمكن مزجهما و لا يكون بينهما تباعد أو منافرة • و لا يظهر في أحدهما إعراض عن الآخر (و يبدو هذا البعد أو الإعراض بوضوح في بيت العباس بن الأحنف لأنه جعل للدمع أعجازا و للدم أعناقا) (١) •

و ما عابه ابن المعتز من الاستعارة في المنثور قول عبيد الله : أقعد على است الأرض فقال له مخاطبه ما أَعلم أن للأرض استا (٢) •

و الحق أن التنبيه إلى نقد الاستعارة على هذا الوجه قد فتح بابا لقيام النقد على أساس فني يتعمق فيه الناقد يغوص إلى قرار المعنى و يبحث عن الفكرة و مقدار التوفيق أو الاخفاق في تأديتها على ما سيتضح عند صاحب الموازنة و صاحب الوساطة و من تلاهما على ما سيأتي تفصيله قريبا •

في أخبار أبي تمام للصولي ت ٣٣٥ أو ٣٣٦ هـ (١)

يعد أبو بكر بن يحيى المعروف بالصولي من أهم و أبرز النقاد الذين حملوا عبء الدفاع عن تلك الاستعارات الغريبة أو الجديدة التي جاء بها أصحاب البديع و خاصة أبا تمام ، فقد ألف الصولي كتابه : أخبار أبي تمام و قدم فيه أبا تمام على غيره مستحسنا طريقته ، و قد بذل جهداً غير قليل في محاولة التخريج لما عيب من استعاراته ، و إن لم تلق محاولته استحساناً أو قبولاً من أكثر النقاد و البلاغيين و خاصة المحدثين بل ظل الصولي و تخريجاته محل ريبة و تجريح و اتهام .

و تحت داعي عدم الإطالة نكتفي بإيراد مثال واحد نتبين منه طريقة الصولي التوجيه و ما كان لذلك من أثر على الدراسات النقدية و البلاغية بعده .

فقد أورد الصولي في سياق رده على المعاب من استعارات أبي تمام قوله يمدح محمد بن حسان الضبي قوله :—

لا تسقني ماء الملام ، فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

يريد أبو تمام كما جاء في شرح التبريزي : أي لا تلمني فإني عاشق قد ألفت البكاء و استعذبته ، فلا أكاد أقلع عنه للومك إياي (٢) .

و ذكر قول المعترضين : ما معنى ماء الملام ، ثم بدأ الجواب و التوجيه مستنداً الى مأثور العرب نثراً و شعراً ، و كذلك بعض أي القرآن الكريم ، فهم (يقولون كلام كثير الماء ، و ما أكثر ماء شعر الأخطل ، و يقولون : ماء الصبابة و ماء الهوى ، يريدون الدمع ، قال ذو الرمة :—

أ أن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم ؟

و قال أيضا :—

أدارا بحزوى هجت للعين عبرة فماء الهوى يرفض أو يترقرق

---

(١) مقدمة كتاب أخبار أبي تمام .
(٢) شرح التبريزي لديوان أبي تمام جـ ١ ص ٣٢ ، ٣٣ .

و يعقب الصولي على هذا البيت بقوله : فصير لسماء الوجه ماء ، و قالوا : ماء الشباب و يستشهد لذلك بقول أبي العتاهية :—

ظبي عليه من الملاحة حلــــة ماء الشباب يجول في وجناتـــه

ثم يعقب بقوله (انما يكون أن استعار لابو تمام من هذا كله حرفا فجاء به في صدر بيته لما قال في آخره : فانني صب قد استعذبت ماء بكائي ، قال في اوله لا تسقني مـــاء الملام ، و قد تحمل العرب اللفظ على اللفظ فيما لا يستوى معناه) و يستشهـــــد لذلك ببعض آيات القرآن الكريم من نحو قوله تعالى : " و جزاء سيئة سيئة مثلهــــا " و السيئة الثانية ليست بسيئة لانها مجازاة و لكنه لما قال : (و جزاء سيئة ، قــــال : سيئة ، فحمل اللفظ على اللفظ " .

كما ذكر قوله عز و جل : " و أخفض لهما جناح الذل من الرحمة " معقبا بقوله : " فهذا أجل استعارة و أحسنها ، و كلام العرب جار عليهــــا .

ثم يختم الصولي حديثه عن هذه الاستعارة بقوله ردا على المنكرين : (و لـــو عرف هؤلاء ما أنكره الناس على الشعراء الحذاق من القدماء و المحدثين لكثر حــتى يقل عند هم ما عابوه على أبي تمـــام اذا اعتقدوا الانصاف و نظروا بعيونه و منزلـــة عائب أبي تمام — و هو رأس في الشعـــر مبتدئ لمذهب سلكه كل محسن بعــــده فلم يبلغه فيه حتى قيل : مذهب الطائي ، و كل حاذق بعده ينسب اليه ، و يقتفي أثره منزلة حقيرة يصبان عن ذكرها الذم و يرتفع عنها الوهد [1] .

و يظهر من كلام الصولي هذا أن هناك من عاب تلك الاستعارة ، ثم أوضـــح أن تلك الاستعارة لم تخرج عما عند العرب وأكد ذلك بشواهد عديدة لشعراء مشهـــود لهم بالجودة و الاحسان .

و واضح أن توجيه الصولي هذا انما يستند الى مبدأ هو القياس على النظائـــر و قد أثارت تلك الاستعارة بالذات و اقوال الصولي حولها اختلافا شديدا بيــــن النقاد و البلاغيين قديما و حديثا حيث لا يكاد يخلو منها مولف في مجال النقــــد و البلاغة و قبل أن نعرض لمناقشة الصولي نورد طرفا من آراء النقاد و البلاغيين .

---

(١) اخبار أبي تمـام ص ٣٣ و ما بعدهــا .

و من الغريب أن الآمدى مع موقفه الرافض لأمثال تلك الاستعارات بل لما هو أقل منها بعدا يكثير يكاد يتفق مع الصولى من حيث امكان قبول تلك الاستعارة (١) و ان ناقش الصولى من كثير من الشواهد التى قاس عليها موجه لها على طرق أخرى على ما سيتضح عند الحديث عن الموازنة ٠

و ابن سنان و ان رفض مثل هذه الاستعارة كما رفض توجيه الصولى لها و مع كونه قد رد على الآمدى الا أنه أبدى لمنافى الحكم حيث جعل أبا تمام من أصحاب البدائع فهذه الاستعارة و أمثالها لا ينبغى أن تقدح فيه (٢) ٠

و أما ابن الأثير فقد توسط فى الحكم و رأى أن هذه الاستعارة حسنة من وجه و بعيدة من وجه آخر اما سبب القرب فهو ان الملام هو القول الذى يعنف به الملوم لأمر جناه ٠ و ذلك مختص بالسمع ٠ فنقله أبو تمام الى السقيا التى هى مختصة بالحلق ٠ كأنه قال : لا تذقنى الملام ٠

و أما سبب البعد فهو أن الماء مستلذ ٠ و الملام مستنكرة فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه (٣) ٠

و أما السكاكى فقد رأى فى تلك الاستعارة نصيرا لدفى رأيه ٠ و هو امكان انفراد الاستعارة التخيلية عن المكنية (٤) و ان كان ذلك لم يرض جماعة البلاغيين بعده كالخطيب (٥) و غيره ٠ و من ثم حاولوا التماس وجوه أخرى للتخريج الا أن واحدا منها لم يسلم من نقاش و اعتراض على ما سيظهر عند الحديث عن مذهب السكاكى فى المكنية ان شاء الله تعالى ٠

و اذا كان ما سبق يمثل جانبا من آراء النقاد و البلاغيين تجاه هذه الاستعارة فى القديم فأن أكثر النقاد المحدثين يتجهون الى رد تلك الاستعارة و أمثالها و رفض تخريجات الصولى ٠

فقد أورد الدكتور مندور كلام الصولى مناقشا له و معترضا عليه بقوله : (والنقد

---

(١) ينظر : الموازنة ج ١ ص ٢٦١ ٠

(٢) ينظر : سر الفصاحة ١٣٠ — ١٣٥ ٠

(٣) المثل السائر ج ٢ ص ١٥٥ ٠

(٤) ينظر : المفتاح ص ١٨٣ ٠

(٥) ينظر : الايضاح ص ١٨٠ ٠

الصحيح هو أن ابا تمام قد أراد البديع — فخرج الى المحال • وقد ذكر ماء البكاء • فكان لابد له وفاء للبديع رد للاعجاز على الصدور أورد الصدور على الاعجاز من أن يذكر: (ماء الملام) وهذا سخف يدل على الإسراف وصفاقة الذوق عند أبي تمام وعند ناقديه) (١) •

واذا كانت تلك الاستعارة وأمثالها فيها من البعد والغرابة ما لا يقبل الجدل • واذا كان الصولى لم يحسن التوجيه الا أن ذلك لا يدفع ما يدا من تحامل فى قول الدكتور مندور • فالملاحظ أنه قد اسرف كثيرا فى اتهام الصولى ووصفه بما لا يرضى بمثله النقد المنهجى • والأخطر أن يجرد ابا تمام عن الاحساس بشئ مما يقوله (٢) وأن يصفه بالصفاقة والسخف • ونحن نعلم من أمر أبى تمام أنه كان حاد الشعور يكاد يحس الشئ قبل وقوعه على ما أخبرنا به من يعتد الدكتور مندور (٣)

وأما الدكتور زغلول سلام فيرى أن نقد الصولى تعوزه الدقة البيانية فهو متأثر بمذهب البديع حتى ولو على حساب الترابط المعنوى (٤) •

وأرى أنه وان كان من حق الشاعر أو الأديب أن يختار لمعانيه وصوره العبارات والألفاظ التى يراها أحق بها من غيرها بلا قيود ولا مصادرة • لكن بشرط الا يكون ذلك على حساب أصول الذوق العام أو بخروج عن القواعد التى لابد منها لصحة التعبير واستقامة التصوير • وبناء على ذلك فمن غير الميسور أن نقبل تلك الاستعارة وأمثالها اذ لا مناسبة من قرب أو بعد بين الملام والماء حتى يسوغ فى الذوق إضافة أحدهما للآخر •

اذ ان لفظ الماء يوحى بمعان مخالفة لما توحيه كلمة الملام كما لا اعتقد أن المقام يناسب لهذا الاستعمال اذ ليس المقام هنا مقام تهكم ولا سخرية • وكما هو معلوم فإن الاستعارة إنما تقوم على مناسبة والا كانت ضربا من العبث أو التعمية والإلغاز •

وأما دفاع الصولى وقياسه فغير مسلم اذ أن هناك فرقا كبيرا بين استعارة — ماء الملام — وماء الصبابة — وماء الهوى — عند ذى الرمة • اذ المراد بالماء هنا الدموع • فهو استعمال على سبيل الحقيقة •

---

(١) النقد المنهجى عند العرب د • محمد مندور ص ٩٨ •
(٢) السابق نفس الموضع •
(٣) ينظر : حديث الشعر والنثر د • طه حسين ص ١٦١ •
(٤) ينظر : أثر القرآن فى تطور النقد العربى د • زغلول سلام ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ •

و اما قياس الصولى — ماء الملام — على بعض الآيات الكريمة فلا وجه لتلك المقارنة لوجود التخالف الصحح كما فى الآيات الكريمة دون تلك الاستعارات ٠

و ما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق ٠ فليس جعل الجناح للذل كجعل الماء للملام فأن اثبات الجناح للذل مناسب و ذلك أن الطائر اذا وهن أو تعب بسط جناحيه و خفضهما، و ألقى نفسه على الأرض ٠ و للانسان أيضا جناح فأن جنبيه جناحاه و اذا خضع و استكان طأطأ من رأسه و خفض من يديه فحسن عند ئذ جعل الجناح للذل و صار تشبيها مناسبا ٠ و أما الماء للملام فليس كذلك فى مناسبة التشبيه كما يقول ابن الأثير(١) ٠

و مما هو معلوم أن هذه الآية الكريمة قد تناولها البلاغيون ضمن أحاديثهم عن الاستعارات المكنية و شرحوها على مقتضياتها على ما هو واضح فى أكثر من موضع فى هذا البحث ٠

و مع ذلك فقد رأى الدكتور أحمد بدوى أن ما فى الآية الكريمة خارج عن نطاق الاستعارة بالكناية أصلا ٠ و هو يدخل فى باب الكناية ٠

يقول تعقيبا على رأى البلاغيين فى الآية الكريمة : و عندى أن ليس الأمر على ما ذكروا ٠ و ان هذا التعبير كناية عن الرفق فى معاملة الوالدين و أخذهما باللين و الرقة ٠ كما تقول : و أخفض لهما الجناح فلا ٠ و لكن لما كان ثمة صلة بين الجناح بمعنى جانب الانسان و بين الذل ٠ اذ أن هذا الجانب هو مظهر الغطرسة حين يشمخ المرء بأنفه و مظهر التواضع حين يتطامن — أجازت هذه الصلة اضافة الجناح للذل لا على معنى المكنية ٠ فلسنا إذاً بحاجة الى تشبيه الذل بطائر نستعير جناحه ٠ و لكننا بحاجة الى استعارة الجناح للجانب و جمال ذلك هنا فى أن اختيار كلمة الجناح فى هذا الوضع توحى بما ينبغى أن يُظل به الابن أباه من رعاية و حب كما يظل الطائر صغار فراخه(٢) ٠

و الحق أن هذا الرأى و التوجيه يفتقر الى مناقشة ليس لمخالفته ما عليه البلاغيون فحسب و انما لأننا لانجد فى الحمل على الكناية معنى جديدا يفتقد عند أعتبار المكنية بل ربما كان فى أسلوب المكنية مزيد مبالغة فى تصوير المعنى المقصود على ما سيظهر فى موضعه ان شاء الله ٠

---

(١) ينظر : المثل السائر جـ ٢ ص ١٥٥ ٠
(٢) من بلاغة القرآن د ٠ أحمد بدوى ص ٢٢٢ ٠

ولا شك أن هذه الدراسة القيمة التي نهض بها أبو بشر الآمدي في كتابه الموازنة ، وهذه الجهود المتميزة التي أودعها القاضي علي بن عبد العزيز كتابه الواسطة من خير ما يعتز به تراثنا الأدبي . وقد كانت هذه التحليلات عونا لعبد القاهر الجرجاني في بناء طريقته في مجال التحليل والعرض .

ومع وجود ملامح مشتركة بين كل من الآمدي والجرجاني ، إلا أن ثمة خصائص مميزة لدراستيهما تصحح إفراد كل منهما بحديث خاص .

ولما كانت مجالات الدراسة فيما يتصل بالكناية عند الآمدي أكثر شمولا وأعم أثرا ، فضلا عن الاعتبار التاريخي ، كان الحديث عنه أولا .

* مع الآمدي ت ٣٧١ هـ(١)

تعد دراسة أبي بشر الآمدي حول أساليب الكناية من أهم ما قام حول هذا الفن من دراسات إذا أضفنا جهود عبد القاهر القيمة في مجال التأصيل والتمييز وكذا بعض المحاولات الجادة التي بذلت في ميدان التحليل والكشف عن أسراره وأغواره .

وقد عولجت الكناية عند الآمدي على نحو جديد جمع إلى الناحية الأدبية متمثلة في الحشد الهائل من الشواهد ، الجانب البلاغي والنقدي متحققا في المعايير المستمدة من النماذج ، سالكا في ذلك أسلوب التحليل والتطبيق والمقارنة وذلك كله يمثل قيمة ذاتية أصيلة يضاف إلى ذلك ما كان لها من آثار بعيدة المدى على الحياة الأدبية والنقدية ما تزال تشهد بعض جوانبها حتى الآن ، وتلك ميزة أخرى لها أهميتها الكبرى .

وينبغي أن نتفق على أن تناول ما يتصل بفن الكناية عند الآمدي على ضوء

---

(١) ينظر : معجم الأدباء جـ ص

مسألتين تتصل أولاهما بكيفية تصوره ، و موقفه منها ، و جهوده نحوها على طريق التحديد و التمييز ، و تتعلق ثانيتهما بالكيفية التى عالجها على ضوء المعايير البلاغية و النقدية .

الاستعارة :-

أورد الآمدى ما يعد حداً للاستعارة التى جرى عليها العرف العربى بقوله (و إنما استعارت العرب الشئ لما ليس هو له ، إذا كان يقاربه أو يناسبه ، أو يشابهه فى بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشئ الذى استعيرت له و ملائمة لمعناه " (١) .

و على هذا تكون المكنية داخلة فى هذا التعريف الذى غلب عليه التعميم بحيث يتسع لبعض الصور البيانية الأخرى ، و لقد خطأ الأستاذ الدكتور شوقى ضيف الناقد الآمدى فى كونه قد أدخل الاستعارة بالكناية فى حيز الاستعارة فى حين أنها لون آخر لا يدخل فى الاستعارة أصلا على ما ذهب إليه الأستاذ الباحث تعقيبا على تعريف الآمدى (و هو مخطئ فى هذه القاعدة التى وضعها للاستعارة ، ذلك أنه أدخل فى حيز الاستعارة ما سماه العرب بالاستعارة المكنية ، و كان أرسطو يسميه وضع الشئ تحت العين) أى بث الحياة و الحركة فيه ، و تسمية البلاغة الغربية الحديثة باسم التشخيص و هو ينفصل عن الاستعارة القائمة على التشبيه ، إذ هو جعل و خلق و تجسيد و نقل لعناصر الطبيعة و للمعانى من عالمها إلى العالم الحى المتحرك " (٢) .

و مع أن الأستاذ الباحث يعد أحد أولئك الذين نقدر لهم جهودهم فى ميدان البحث البلاغى و الأدبى إلا أن ذلك لا يمنع من أن نخالفه فى كلامه هذا ، فالآمدى و إن أدخل فى الاستعارة ما عرف بعده بالمكنية ، فقد سبقه من العلماء كثعلب و ابن المعتز من أدخل المكنية فى الاستعارة أيضا ، و قد سبق للأستاذ

---

(١) الموازنة بين شعر أبى تمام و البحترى ص ٢٦٦ .
(٢) البلاغة تطور و تاريخ ص ١٣٠ .

الباحث أن ذكر ابن المعتز ربما كان أول من وجه نقاد أبى تمام و منهم الآمدى الى هذا الجانب (١) — الاستعارات المكنية — ٠

ثم ان عموم النقاد و البلاغيين بعد الآمدى كعبد القاهر و الزمخشرى و الرازى و السكاكى و الخطيب لم يختلفوا فى اعتبار هذا اللون من قبيل الاستعارة و ان اختلفت كلمتهم حول مفهومها عندهم على ما سيأتى تفصيله فى مواضعه ان شاء الله تعالى ٠

نعم ان ابن الأثير قد أخرج المكنية عن الاستعارة و جعلها ضربا من التوسع، لكن لم يلق رأيه هذا قبولا و لم يكن له صدى عند المتأخرين ٠

و أما أن هذا اللون يسمى بأسماء أخرى فى البلاغة غير العربية فلا أعتقد أن هذا أمر تواخذ به البلاغة العربية ، اذ ليست المسألة مجرد مصطلح هذا من ناحية ٠

و من ناحية أخرى فان الاسم المقترح بهذا الفن و هو — التشخيص — لا يصلح بديلا عن المكنية لأن هذه الكلمة فيها من الاتساع ما يشمل صورا أخرى ، ثم ان القول باغفال جانب المشابهة فى تلك الاستعارة يعد اهمالا لأحد الأصول المهمة التى قام عليها الدرس البلاغى فى مراحله المختلفة ٠

و اذا كانت المكنية داخلة فى تعريف الاستعارة عند الآمدى فقد أشار الى طريقتها فى بعض المواضع و من ذلك قوله فى بيت البحترى :-

أبعد المشيب المنتضى فى الذوائب أحاول لطف الوعد عند الكواعب (٢)

يقول : " فجعل المشيب منتضى فى الذوائب ، أى مشهورا فيها على الاستعارة، كأنه جعل سيفا سل فى رأسه " (٣) ٠

---

(١) ينظر : البلاغة تطور و تاريخ نفس الموضع ٠
(٢) الموازنة جـ ٢ ص ١٩٢ ٠
(٣) نفس المرجع جـ ٢ ص ١٩٥ ٠

و من ذلك أيضا تخريجه لبيت الأخطل "فان الريح طيبة قبول"(1) إذ يقـول :

(فإن كانت العرب سمت الشمال و الجنوب إذا هبتا هبوبا لينا ، قبولا فانما شبهوهـا بالقَبا و أعاروها اسمها ".(2) و أقرب مما سبق و أدل على ما نسأل عنه قوله في تعليقه على بيت البحترى :-

قَدْ بَيَّنَ الْبَيْنُ الْمُفَرِّقُ بَيْنَنَـا … عِشْقَ النَّوَى لِرَبِيبِ ذَاكَ الرَّبْرَبِ(3)

حيث قال : " و النوى هى النية فى انتقال القوم من موضع لآخر و عشق النية لربيب الربرب : استعارة ليست بحسنة ، غير أن الشعراء المتأخرين قد أصطلحوا علـى أن جعلوا البين و الفراق و النوى كالأشخاص ، و جعلوها الحائلة بينهم و بين من يهوونـه . فهم يستعيرون الأفعال لها فربما حسنت الاستعارة لها وربما قبحت على حسب مواضعها فى الإغراق و الاقتصار ".(4)

و مع أهمية تلك الإشارات و نحوها ، و اعتبارها الأصول التى قام عليهـا التحديد للكناية فيما بعد ، إلا أنه لا ينبغى أن نسرف فى الاعتداد بهـا أو تحميلها أكثر مما تحتمله إذ ما نزال فى القـرن الرابع ، و لم نصل بعد إلـى حيث التمييز الدقيق للفنون البيانية بعامة و الكناية منها على وجه أخص .

و المهم أن تلك الإشارات تعين على فهم حقيقة موقف الآمدى و أنه لم يكـن متكرا له كما قد يقع اللبس فى ذلك لكثرة إيراده المعاب و المستقبح ، و كـذا تمسكه الشديد بأصول معينة أحتكم إليها فى بحثه لتلك الأساليب و الحكم عليها .

و الآمدى و إن جارى فى معظم جوانب دراسته ما يقتضيه الذوق العام ، و ما عليه عموم نقاد عصره ، إلا أنه قد أخذت مواقفه على شئ من التحفظ و ربما الاعتراض كذلك من قبل النقاد و الباحثين ، و بخاصة المحدثين ممن رأوا فى كثرة الضوابـط عنده قيودا لا تتفق كثيرا و الطبائع الأدبية بالإضافة إلى كونها صادرة علـى

---

(1) الموازنـة ج ١ ص ١٦٣ .
(2) السابـق ج ١ ص ١٦٤ .
(3) السابـق ج ٢ ص ٣٤ .
(4) الصدر السابـق ج ٢ ص ٣٥ .

أذواق الشعراء الذين جاءوا مقتضيات العصر متعمقين منه أخيلتهم وصورهم . بغض النظر عما قد يكون من مخالفة للتراث الموروث .

وعلى هذا فان أبا تمام وأضرابه قد جاءوا باستعارات مخالفة لما جرى عليه العرف العربي حيث قاسوا على ما ورد صورا أخرى جديدة تصل إلى حد المبالغة المفرطة أو الإحالة والأغراب في المعنى .

ويمكن القول إن الآمدى قد عالج الأمور النقدية المتصلة بالكناية في موضعين أساسيين :ـ

الموضع الأول : في الباب الذي عقده للبحث في أخطاء أبي تمام في المعاني والألفاظ (1) .

الموضع الثاني : في الباب الذي عقده لبيان القبيح من استعارات أبي تمام (2) .

ومن أهم المسائل التي عرض لها في الموضع الأول :ـ

الاحتكام إلى ما جرت به العادة واعتباره أصلا تقاس عليه جودة الاستعارات . وقد ألح الآمدى كثيرا على تلك القضية متخذا من مخالفة أبي تمام لهذا الأصل أساسا للحكم على كثير من استعاراته بالخطأ لأنه استخدم أوصافا لأشياء لم تأته في مأثور العرب المعتد بمذاهبهم في مثل قوله :ـ

رَقِيقُ حواشي الْحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ ... بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِيْ أَنَّهُ بُرْدُ

فقد أورد الآمدى إنكار ثعلب لهذا البيت وأن الناس ما زالوا يضحكون منذ سمعوه معلقا وموجها جانب الخطأ بقوله : (والخطأ في هذا البيت ظاهر لأني ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة . وإنما يوصف بالعظم والرجحان والثقل والرزانة (3) .

---

(1) الموازنة ج 1 ص 157 . وما بعدها .
(2) المصدر السابق ج 1 ص 261 .
(3) السابق ج 1 ص 143 .

ثم أورد عديداً من الشواهد التي وُصف الحلم فيها وفق المعاني التي أشار إليها معقبا بقوله : " فهذه طريقة وصفهم للحلم و ما مدحوه بالثقل و الرزانة و رموه بالطيش و الخفة و أيضا فأن البرد لا يوصف بالرقة ، و إنما يوصف بالمتانة والصفاقة ، و لولا أنه قال رقيق حواشي الحلم ، لظننت أنه (ما) شبه بالبرد إلا لمتانته ، و هذا عندي أفحش الخطأ ثم قوله : (لو أن حلمه بكفيك : كلام في غاية (القبح) و السخافة [1] هذا ما قاله بشأن تخطئته بيت أبي تمام .

فأما إنكار ثعلب ، فينبغي أن يؤخذ على شئ من الحذر و التروي و ذلك لصدوره في أحكامه عن منزع ثقافي متحفظ شديد الميل إلى القديم المتوارث إلى حد يشبه التعصب كما ظهر عند الحديث عن المكنية في دراسته ، و كما يومئ بهذا نحاه في شرحه لديوان زهير[2] و أما وجه الخطأ على ما أوضحه الآمدي : فمجال مناقشة ، إذ أنه لم يبن على أساس موضوعي مستمد من الأسلوب نفسه مما أوجد حوله خصومات كثيرة و على الأخص لدى الكتاب المعاصرين و المحدثين .

يقول الدكتور : طه حسين تعقيبا على رأي الآمدي في البيت السابق :"وهؤلاء النقاد لم يقدروا الفرق البعيد جدا بين عقلية أبي تمام ، و عقلية الشعراء المتقدمين و الذين تلدوهم من المحدثين و الذين شبهوا الحلم بالجبال ، فأبو تمام رجل حضري ، و هو إذا مدح فانما يمدح الوزراء و الكتاب و الخلفاء المترفين ، و هذا إذا وصف الخلفاء بالتأني و الرزانة لم يستحسن منه أن يجعل لهم رزانة هؤلاء الأعراب التي تزن الجبال ، لم يكن أحد هم يحب أن يوصف بضخامة الرأس ، وثقل السمع كما كان يستحسن من قيس بن عاصم أو معاوية بن أبي سفيان ، و إنما كان العصر عصرا آخر ، و كانت لأهله حضارة هي على أقل تقدير شديدة الابتسام من الناحية المادية حضارة أرستقراطية مترفة تظهر فيها الدعة "[3] .

ثم يلتمس وجها لوصف أبي تمام و استعارته بقوله فليس غريبا أن يكون حلم المتحضرين في بغداد و رقيق الحواشي أما ، لو أن حلمه بكفيه ، فهذا غريب

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ١٤٦ .
(٢) شرح ديوان زهير ص ١٨ .
(٣) من حديث الشعر و النثر د. طه حسين ص ١٧٤ .

و لكن أية قيمة للشاعر المبتكر إذا لم يستطع أن يخترع لك من الصور ما يبهرك و يضطرك إلى أن تعجب بهذه الصور الجميلة (١) .

و أما الأستاذ الدكتور شكرى عياد فيشير إلى ما يمكن عده تناقضا فى موقف الآمدى و أضرابه إذ يقول : " و الحق أن النقد العربى الخالص قد وضع الشعراء و النقاد جميعا فى مأزق ، فالشاعر المحدث ملزم بأن يجارى القدماء فى أوصافهم و تشبيهاتهم لا يستحسن إلا ما استحسنوا ، و لا يذم إلا ما ذموه ، و لا يشبه إلا على طريقتهم ، و لا يستعير إلا على أساليبهم ، فإن أوافق الشاعر المحدث بعد ذلك شاعرا مقدما فى معنى أو أسلوب ، فهو آخذ و هو مسبوق (٢) " .

و الحق أن موقف الآمدى .. يشوبه شئ من التحكم و ربما التنكر لأثر العصر و ما جد فيه على (اختلاف صور البيان من جماعة إلى جماعة و من زمن إلى زمن (٣) على أن الأدباء و خاصة أصحاب المذاهب يجدون فى ملابسات حياتهم و مصادر ثقافتهم ينابيع يستقون منها صورهم و أخيلتهم ، و إن كنا لا نقول بعدم الإفادة من طرائق المتقدمين فى التعبير و التصوير (و لكن لا نريد الوقوف بالأدب و بالانتاج البيانى وقفة ركود من غير أن نستوحى تجاربنا و نسترشد بعقولنا و لا نريد أن نجمد فلا ننهض بالأدب ، لا فى موضوعاته و لا فى أشكاله و لا فى أغراضه ، فيصبح أدبنا صورة أخرى من أدب العصور الماضية (٤) .

على أن موقف الآمدى فيما يتصل بجريان العادة و الاستناد إليها فى الحكم قد أثار مسألة أخرى لها أهميتها الكبرى على الصور البيانية بعامة ، و ربما أساليب الكناية على وجه خاص و تلك المسألة هى :ـ

" القول بعدم القياس فى المجاز "

و قبل أن نتناول رأى الآمدى حول تلك المشكلة نزيدها أيضاحا بتحديد المراد منها فنقول :ـ

---

(١) من حديث الشعر و النثر د . طه حسين ص ١٧٥ .
(٢) كتاب أرسطو تحقيق د . شكرى عياد ص ٢٣٤ .
(٣) علم البيان د . طبانة ص ٢٢٠ .
(٤) الأصول الفنية فى الأدب د . عبد الحميد حسن ص ١٩٤ .

هل دلالة الألفاظ و التراكيب على معانيها تعد من قبيل الدلالات التوقيفية بحيث يعد الخروج عنها خروجا عن أصول اللغة ذاتها ، أو أن تلك الدلالات لها طابع التغيير وفقا لتطور العصر ، و ارتقاء مظاهره بحيث تلائم الحياة و ما يطرأ عليها من ظواهر متباينة ، و كذا نفس الأديب المنفعلة بما يشاهد سواء من الواقع المحس أو ما استتر داخلة من أحاسيس و مشاعر و أيما كان القول بالاحتمال هذا أو ذاك فستصبح بمثابة دعوى تقام بغير دليل ، لذا احتاج الأمر إلى شئ من التفصيل .

رأى الآمـــدى :—

و يبدو موقف الآمدى فى تعليقه السابق على استعارة أبى تمام رقيق حواشى الحلم — كما أسلفنا — و إن كان هذا الرأى يظهر على نحو أكثر وضوحا فى العديد من أحكامه بالتخطئة لاستعارات أبى تمام التى لم يلتزم معها بالمتعارف • بل جدد فيها و وصف أشياء بأوصاف لم تعهد و كأنه بذلك يقيس على ما ورد و نجد مثلا لذلك فى تخطئته لأبى تمام فى قولـــه :—

بِيَوْمٍ كَطُولِ الدَّهْرِ فِي عَرْضِ مِثْلِهِ وَوَجْدِيَ مِنْ هَذَا وَهَذَاكَ أَطْوَلُ (١)

فقد ذكر أن فى هذا المعنى إحالة ، رادًا القول بامكان اعتبار المجاز (لأن المجاز فى هذا له صورة معروفة ، و ألفاظ مألوفة معتادة لا يتجاوزها فى النطق إلى ما سواها (٢) ثم يورد بعضًا من الأمثلة التى استعمل فيها وصف الطول و العرض استعمالا صحيحا على وجه الاستعارة معقبا بقوله : (فهذا إذا جرى على هذا اللفظ المستعمل حسن و لم يقبح ، و إن عدلت به عن هذه الطريقة ، و هذه الألفاظ المألوفة إلى ما يشبه الحقائق أو يقاربها كنت مخطئا) (٣) .

فالآمدى منع منعا باتا استعارة (العرض للزمان فى قول أبى تمام بحجة أن لا طول و لا عرض له على الحقيقة مع أنه أجاز قولهم (و ما زلنا فى رخاء و نعمة

(١) الموازنـــة جـ ١ ص ١٩٦ •
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٧ •
(٣) السابق جـ ١ ص ١٩٩ •

الدهر الطويل العريض و عشنا في خفض و دعة زمنا طويلا عريضا) على أن يكون المراد تمام النعمة و كما لها و اتساعها و قد جاء في شعر الراعي و كثير ما يفيد الجواز قضية استعارة العرض للمجد و الأخلاق و هي لا عرض لها على الحقيقة فلم جوز هنا و منع هناك و وقف دون أبي تمام يحصي عليه الأخطاء و يرميه بالخروج على اللغة ، الحق أن تعليل الآمدي غير واضح و التفرقة غير بينة و هذا راجع إلى أن الآمدي تقليدي محافظ لا يقبل أن يقاس على اللغة و يتشدد في هذا .

و قال التبريزي نقلا عن أبي العلاء : (لما جعل للدهر طولا وصفه بالعرض على معنى الاستعارة، و لا حقيقة بأن يوصف ، و إنما هو طويل لا غير ، فأما العرض فانما هو على الأماكن ، و ما جرى مجراها فاما الدهر فطويل ، و ما علم أحد قبل الطائي وصفه بالعرض ، و لكنه لما تقدم ذكر الطول استجاز أن يجئ بضده[1] و قد ذكر الآمدي أيضا قول أبي تمام :-

أَمَرَّ التَّجَلُّدَ بِالتَّلَدُّدِ حُرْقَةٌ ... أَمَرَّتْ جُمُودَ دُمُوعِهِ بِسُجُومِ

و قد أورد تعليقه مبينا وجه الخطأ بقوله : (فأي لفظ أسخف من أن يجعل الحرقة آمرة و أن كان ليس بخطأ ، و إنما العادة في مثل هذا أن تكون باعثة أو جالبة أو نحو هذا ، و أما الأمر فليس هذا موضعه[2] .

فكأن القبح ليس مرده إلى قبح الصورة في ذاتها كما يقرر هو و انما لخروج أبي تمام عن تقاليد العرب في استخدام الألفاظ (و هنا يبدو التحكم في الفن فمن قال إن الشاعر ينبغي ألا يخرج دائما عن التقاليد ، ان من حق " الأديب " أن يجدد و أن يخترع من الأدوات ما يريد ، و لعل التبريزي كان أكثر دقة من الآمدي حين قال : (إنّ أبا تمام له مذهب خاص في الاستعارة[3] و كثيرة هي المناقشات التي أثارها اتجاه الآمدي و كثيرة هي الاتهامات التي وجهها النقاد و الباحثون المحدثون إليه وحتى من أولئك الذين أخذ عنهم الاعجاب الشديد بالآمدي و الدفاع عن مواقفه .

---

(١) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي جـ ٣ ص ٧٢ .
(٢) الموازنة جـ ١ ص ٢٢٢ .
(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي د . شوقي ضيف ص ٢٣٥ .

فيورد ابن المستوفي تعليقا على كلام أبي العلاء السابق (كثيراً ما يقول أبو العلاء نحو قوله : ما أعلم أحداً قبل الطائي ذكر تلك أو سبق إليه و شبهها يريد ما يستعيره الطائي و ليست الاستعارة محصورة فإن وافق محدث من الشعراء من تقدمه في شيء منها فإما تعمداً أو اتفاقا و إلا فهي مما يستعملها كل شاعر إذا قصدها على ما يعرض عليه .(١)

و هذا الكلام يوحي بأن من حق الشاعر أن يتحرر من مذاهب القدماء و من تلك القيود التي وضعها أمثال الآمدي .

و يرى صاحب الرمزية في الأدب العربي ، أن الجدة و الطرافة و الخروج عن المألوف أساس تقدير العمل الفني ، لأن ذلك ما يميزه عن لغة الناس في حياتهم و أحاديثهم و محاوراتهم (٢) .

كما يجب أن يكون للغة الأديب ما يميزها أيضا عن لغة غيره من الأدباء .

و أما الأستاذ العقاد فيقول بعد أن أورد بعضا من ملاحظته القيمة عند بحثه موضوع المجاز و الشعر : (و ظاهر من جملة هذه الملاحظات أن أهل العربية جددوا كثيرا من مجازاتهم و إننا نستطيع أن نحذو حذوهم) (٣) .

و يضيف إلى ذلك (و شرط اللغة أن نصنع كما صنع أهلها فنجدد في المعاني من طريق المجاز بحيث لا يكاد السامع يفرق بينها للوهلة الأولى ، أهي أصل في اللغة قديم أم مجاز جديد (٤) .

و كذلك الدكتور طه حسين يعبر عن رفضه لتلك المقولة التي لا تتيح للشاعر التصرف في أساليب اللغة بقوله : (و إذا كان هذا الكلام شائعا في الكوفة و البصرة

---

(١) هامش شرح التبريزي لابن المستوفي جـ ٣ ص ٧٢ .
(٢) الرمزية في الأدب العربي د . درويش الجندي ص ٦٦ .
(٣) اللغة الشاعرة عباس العقاد ص ٥٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٥٦ .

فى القرن الأول فأظننا قد أصبحنا لا نسيغه فى القرن الثالث و أظننا أصبحنا نعتقد أن اللغة ملك لكل شاعر و كل كاتب ، فهوا إذاً يجب أن يصرفها لا أن تصرفه" (١)

كما يرى أن النقاد المحافظين و إن قبلوا مثل ذلك فى عهود ماضية ، فليس لنا أن نقبلها بهذا اليسر الآن (٢) .

و حتى الدكتور مندور مع إعجابه بدراسات الآمدى و كثرة دفاعه المشروع عن اتجاهاته لم يجد بُدًا من مناقشته و اتهامه فى تلك المسألة (٣).

و قد اتجه هذه الوجهة الدكتور محمد الديداوى يقول : "والمجاز فى اللغة رخصة للشاعر ، وفتح لباب التعبير على مصراعيه عندما تضيق الحقيقة عن التعبير الكامل فى المعانى ، و الشاعر المبدع إذا استطاع أن يحسن استخدام الألفاظ الحقيقية وتملك زمام ناصية المجاز بعد صناع فقد حاز الفن كله و باب المجاز مفتوح لكل شاعر و لا يشترط على الشاعر فى ولوجه إحكام الصنعة ، و لغة الشعر قوامها المجاز و لكن الآمدى ضيق واسعا ، و أحب للشعراء أن يقتصروا على ما جاء به سلفهم من المجاز و أن يحافظوا على حرمة الحقيقة فلا يمسوها و لكن هذا مخالف لسنة التطور و تحكم فى الفن لا مسوغ له) (٤) .

و فى الحق أن مشكلة كهذه يصعب البت فيها برأى قاطع و مرض تماما لاتصالها بأصل لغوى من ناحية و بملكة التصوير و الابداع الأدبى من ناحية أخرى و من ثم نشأ الخلاف تبعا لاعتبار البعض أحد الجانبين و لو على حساب الجانب الآخر و مع ذلك يمكن أن نقول إنه ينبغى التفريق بين اعتبارين لأن اختلاطهما لا يعين على الوصول إلى ما قد يكون أمرا مقبولا .

فأما الاعتبار الأول فيتصل باللغة من حيث صحة اللفظ و التركيب و ما يحكم ذلك من قواعد و أصول نحوية و صرفية و كذا ما يتصل بالأسلوب الشعرى من حيث القواعد التى من أجلها كان شعرا .

---

(١) من حديث الشعر و النثر د. طه حسين ص ١٧٦ .
(٢) المرجع السابق ص١٧٧ . (٣) النقد المنهجى ص ١٢٩ .
( ) الحركة النقدية حول مذهب أبى تمام د. محمود الربداوى ص ٢١٠ .

و هذا الجانب لا أعتقد أنه مجال مناقشة مجدية ، إذ الالتزام به أصل مقرر ، و الخروج عنه إنما هو خروج عن أصول اللغة ذاتها ، بغض النظر عن دعاوى البعض ممن يريدون أن يحرروا أنفسهم من كل شيء فمثل ذلك دليل عجز و قصور و يحسبون ظاهر الأمر اتهاما للغة ، في حين أنهم في الحقيقة هم المتهمون .

و أما الجانب الثاني فمتصل بالأساليب من حيث ألوان التعبير التي يسلكها الأدباء ، فالآمدي و أكثر النقاد القدامى لا يكادون يفرقون كثيرا بين هذا الجانب و ما سبقه .

و من ثم نادوا بضرورة الالتزام حتى بأشكال التعبير و التصوير و عدوا الخروج عن ذلك خروجا عن أصول اللغة يستوجب التخطئة و لو كان التعبير في ذاته ليس بمعيب ، و هذا الاعتبار الصارم قد خلف ما يمكن تسميته برد فعل و انعكاس مضاد وعلى الأخص من بعض المحدثين إذ يرون أن من حق الأديب أن يعبر عما شاء بما شاء ما دام صاحب مذهب و اتجاه (١) .

و لا شك أن في الأخذ بأي الاتجاهين نوع تطرف و مغالاة فإذا كنا لا نوافق كل الموافقة على مسلك الآمدي و أضرابه ، و نرى فيه قيدا على الابداع و حدا للملكات المبتكرة بما لا ينسجم مع طبيعة الحياة و تجددها فمن المنطقي أن لا نوافق أيضا على الاتجاهات الداعية الى عدم الالتزام بشيء ما دام الأديب صاحب مذهب ، و الحق أن عبارة « صاحب مذهب عبارة متسعة جدا و لا يسوغ الأخذ بها على عمومها و اطلاقها و إلا لجاز لكل أحد أن يبيح لنفسه ما يشاء تحت دعوى أنه صاحب مذهب كما يحدث الآن ، حين نسمع ما يقرب من الشعوذة التي لا تكاد تفهم بل و لا يكاد يفهمها أصحابها كذلك .

و لا نود الاطالة في تلك المشكلة أكثر من ذلك مع أهميتها لآثارها على درس الكناية ... لننتقل إلى الباب الذي عقده لبيان القبيح من استعارات أبي تمام .

---

(١) الفن و مذاهبه في الشعر العربي ص ٢٣٥

فقد أورد الآمدي في هذا الباب خمسة وعشرين شاهدا لاستعارات أبي تمام أجمل معظم شواهدها في قوله : " فجعل كما ترى ، مع غثاثة هذه الألفاظ للدهر أخدعا ، ويدا تُقْطع من الزند ، وكأنه يصرع ، وجعله يشرق بالكرام ويفكر" ويبتسم وأن الأيام بنون له ، والزمان أبلق ، وجعل للمدح يدا وللقصائد مزامير إلا أنها لا تنفخ ولا تزمر ، وجعل المعروف مسلما تارة ، ومرتدا أخرى ، والحادث وغدا ، وجَذَبَ ندى الممدوح بزعمه جذبةً حتى خر صريعا بين أيدي قصائده ، وجعل المجد مايجوز عليه الخرف ، وأن له جسدا وكبدا ، وجعل لصروف النوى قدا ، وللأمن فُرُشا ، وظن أن الغيث كان دهرا حائكا وجعل للأيام ظهرا يركب ، والليالي كأنها عوارك "والزمان كأنه صب عليه ماء ، والفرس كأنه ابن للصباح الأبلق ، وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبعد من الصواب "(١) .

ولا يعنينا هذا الحكم الأخير في كثير لما فيه من تجريح واتهام وتعميم ومن ثم نحاول أن نلتمس بعضا من الأسس الموضوعية التي احتكم إليها في عيب ما عاب ، وقد كان المقياس الأصيل عنده ما جاء عند العرب من استعارات إذ كان عمادها وجود علاقة بين طرفيها ومشابهة وقرب ووضوح ، وبعد عن الإغراب والتكلف على ما يمثله مأثورهم من مثل قول امرئ القيس :-

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ (١)

وقول زهير :- وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَا (٢)

وقول الهذلي :- وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا

وغير ذلك مما يعد من عيون الشواهد التي قامت عليها دراسات المكنية عند المتأخرين ، وقد علق الآمدي على هذا بقوله : (فهذا مجرى الاستعارات في كلام العرب "(٤) .

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ٢٦٥ .
(٢) الموازنة جـ ١ ص ٢٦٦ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٧ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٩ .

ويفهم من تلك الشواهد و من تعليقاته عليها أن المعايير المعتبرة فى قبح استعارات أبى تمام مخالفتها لما جاءت عليه عند الأقدمين .

بعد الشبه :ـ

يرى الآمدى أن بعد الشبه فى الاستعارة من الأمور الموجبة الحكم عليها بالقبح و الرد و الآمدى فى هذا يستند إلى أصل مهم و مقرر لدى أكثر النقاد و البلاغيين العرب و هو ضرورة التناسب بين طرفى الاستعارة و قرب الشبه فيها و كلما كانت العلاقة قريبة و صحيحة عقلا أو حسا كلما كانت الاستعارة حسنة و مقبولة، و بمقدار خروجها عن هذا الأصل يكون الحكم عليها بالقبح و الرد .

و الاستعارة فى هذا الجانب تخالف التشبيه فإنه يأتى فيما ظهر وجهه و قرب و فيما خفى و بعد ، و كلما احتاج الوجه إلى إمعان الفكر و تدقيق النظر كان أغرب و أجود متى و جد بين الطرفين شبه صحيح و مقبول ،لكن الاستعارة على العكس من ذلك يجب أن يكون الشبه فيها جليا و إلا صارت ضربا من الألغاز والإحالة.

و أساس التفريق بين الاستعارة و التشبيه فى هذا الجانب يرجع إلى أننا فى التشبيه نكون أمام طرفين ، على خلاف الاستعارة فليس معها ما يدل على التشبيه فإذا انضم إلى خفائه خفاء وجه الشبه زاد الخفاء و اشتد (1) .

و بناء على هذا الاصل حكم الآمدى على كثير من استعارات أبى تمام بالخطأ و القبح لبعد الشبه فيها ، فمن ذلك قول أبى تمام يمدح الحسن بن وهب :ـ

سأشكُرُ فُرْجَةَ اللَّبَبِ الرَّضِيِّ و لِينَ أخادِعِ الدَّهرِ الأَبِيِّ

و قال يمدح محمد بن يوسف :ـ

فَضَرَبْتَ الشِّتاءَ فِى أَخْدَعَيْهِ ضَرْبةً غادَرَتْه عَوْداً رَكُوبا

---

(1) ينظر حاشية مخلوف على شرح الدمنهورى للجوهر المكنون ص ١٥٠ .

وقال في مدح محمد ابن الهيثم :ـ

يا دهرُ قَوِّمْ منْ أخدَعَيْكَ فقــدْ　　　أضجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكْ

عد الآمدي هذه الأبيات من مرذول وقبيح الاستعارات ، وبعد أن زاد عليها عشرين بيتا من هذا القبيل واتبع ذلك كله استعارات العرب اللائقة والملائمة لمعناها قال : " انما استعارت العرب لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض احواله ، أو كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالمعنى الذى استعيرت له وملائمة لمعناه ، ثم أتى باستعارات لامرئ القيس وزهير وطفيل وغيرهم واستعارات من القرآن الكريم كل ذلك ليوازن بين الجيد والردئ وليضع القارئ امام قضية بينة المعالم واضحة الأسس ، ثم يستطرد مبينا عيوب تلك الاستعارات فقال : " وأما قول أبي تمام : " ولين أخادع الدهر الأبي " فأى حاجة إلى الأخادع حتى يستعيرها للزمن ؟ وكان يمكنه أن يقول : " ولين معاطف الدهر الأبي " أو " لين حوادث الدهر " أو " خلائق الدهر " كما تقول : فلان سهل الخلائق ولين الجانب ، وموطأ الاكناف ، ولأن الدهر قد يكون سهلا وحزنا وليّنا وخشنا ، على قدر تصرف الأحوال فيه ، فإن هذه الألفاظ كانت أولى بالاستعمال في هذا الموضع ، وكانت تنوب له عن المعنى الذى قصده ، ويتخلص من قبح الأخادع ، فإن في الكلام متسعا (١) .

فأما قوله : " ضربت الشتاء في أخدعيه " فإن ذكر الأخدعين ها هنا ـ على قبحها ـ أسوغ ، " أى من السابقة في البيت الأول " لأنه قال : " ضربة غادرته عودا ركوبا " وذلك أن (العود) المسن من الإبل ، والبعير أبدا يضرب على صفحتى عنقه فيذل ، فقربت الاستعارة ها هنا من الصواب قليلا .

ثم تابع النقد مشيرا إلى البيت الثالث :ـ

ومن القبيح في هذا قوله : " يا دهر قوم من أخدعيك " البيت ، أى ضرورة دعته إلى الأخدعين ؟ وقد كان يمكنه أن يقول : " من أعوجاجك " أو " قوم معوج صنعك " أو " يا دهر أحسن بنا الصنع " لأن الأخرق هو الذى لا يحسن العمل ، وضده " الصنع " .

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٥٥ .

فالآمدى لا يقبل مطلقا أمثال تلك الاستعارات ، و يرى أن فى اللغة متسعا فلما ذا الدخول فى المزالق ، و الولوج فى المضايق ، و المخاطرة بالتقعر و التعمق؟ و نرجئ أمر التعليق على هذه الاستعارات و رأى الآمدى لتعرض لبعض آراء النقاد و البلاغيين .

فقد عد أبو هلال العسكرى قول أبى تمام :—

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ ... ... البيت

من بغيض شعره (١) .

و أما القاضى الجرجانى فيظهر من كلامه أن تلك الاستعارة و ما شابهها على ما فيها من مجانبه للصواب يجب أن تغتفر ويلتمس له فيها العذر (٢) .

و أما ابن الأثير فلقد سلك فى نقد البيت مسلكا آخر ، و لم يتبع أثر ما قبله ، بل جعل عيب كلمة " الأخدع " و قبحها فى تثنيتها .

و بعد هذه الخصومة العنيفة حول كلمة الأخدع نجد الاجماع شبه منعقد على قبح الاستعارة فيها لثقلها على النفس إلا ما كان من تسامح القاضى الجرجانى ، و أما النقاد المحدثون فقد ذهب الدكتور شوقى ضيف إلى قبول تلك الاستعارة بل وبلغ حد الأعجاب ، و أنكر على الآمدى قوله لأن الآمدى لم يعجب بالاستعارة لأنها (الاستعارة المكنية التى يرى فيها خروجا على عمود الشعر العربى) (٣) .

و يشارك فى قبول الاستعارة أيضا من النقاد المحدثين الدكتور مصطفى ناصف (٤) .

و هكذا نجد تفاوت النظر بين النقاد والقدماء منهم و المحدثين و كل منهم

---

(١) الصناعتين ص ٤٤ .
(٢) الوساطة ص ٤٣٢ .
(٣) الفن و مذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٣٧ .
(٤) نظرية المعنى فى النقد العربى د . مصطفى ناصف ص ١٠٩ .

ينظر إليه من زاويتنا فالقدماء يتمسكون بعمود الشعر ، و المحدثون يتحللون منه بعض التحلل و يلاحظون تحضر الشعر و الشعراء وتخالف الأذواق ، و الذى أراه أن استعارات أبى تمام هنا ، و أمثالها لا شك أن فيها غرابة و بعدًا عن المألوف و إذا كنا لا نوافق الآمدى فى عرفه و تعنيفه فإننا لا نصل فى الوقت ذاته إلى درجة الإعجاب بها .

المبالغة و الإفراط :-

و الحق أن الأدب العربى فى مجمله كان يميل إلى الاعتدال و ينفر من المغالاة و المبالغة المفرطة ، و كان لذلك ما يبرره فى حينه وقد حافظ جماعة النقاد القدامى على هذا الأصل أيضا مع عصور أدبية قد تختلف طبائع الأشياء و الحكم عليها فيها تبعا للتفاوت الواضح فى العديد من مناحى الحياة .

و من هنا عابوا على الشعراء المحدثين مجئ استعاراتهم على نحو من الإفراط و المغالاة .

و الآمدى لا يختلف عن هؤلاء ، فقد عاب كثيرا من استعارات أبى تمام فى مثل قوله :-

تَحَمَّلْتَ مَا لَوْ حُمِّلَ الدَّهْرُ شَطْرَهُ لَفَكَّرَ دَهْرٌ أَيُّ عِبْئَيْهِ أَثْقَلُ (١)

و قد ذكر الآمدى فى تعقيبه قوله : (فجعل للدهر عقلا ، و جعله مفكرا فى أى العبئين أثقل و ما شئ هو أبعد من الصواب من هذه الاستعارة ، و كان الأشبه و الأليق بهذا المعنى لما قال ، تحملت ما لو حمل الدهر شطره ، أن يقول : لتضعضع أو لا نهد ، أو لأمن الناس صروفه و نوازله و نحو هذا المعنى مما يعتمده أهل المعانى فى المبالغة و الإغراق (٢) .

و هذا يعنى أن الآمدى لا يؤثر المغالاة التى قد تفقد الشاعر صوابه

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ٢٧١ .
(٢) السابق ج ١ ص ٢٧٢ .

(و قد كان قوم من الرواة يقولون أجود الشعر أكذبه)(1) ولا والله ما أجوده إلا أصدقه ٠

(و هذا هو الذي يأخذ بمجامع القلب و يستولى على النفس و من حذق الشاعر أن يصور لك الأشياء يصورها و يعبر عنها بألفاظها المستعملة فيها و اللائقة بها)(2) ٠

على أن توجيه الآمدي العيب في مثل تلك الاستعارات لم يرض أحد النقاد المعاصرين مع اتفاقه معه في الحكم : (و نحن و إن كنا لا ننكر ما في أمثال هذه الاستعارات من تكلف و إسراف ، إلا أننا لا نرى العيب في تشخيص المعنويات ٠

و أرى أن الوصف بالبعد كاف دون أن نسرف في الاتهام أذ ربما كان وراء البعد معنى أو معان تدخل في مقصد الشاعر و إن تعسر إدراكها إلا بعد حين ٠

و قد كان من آثار ما جاءت عليه استعارات أبي تمام من بُعد أن شاب الكثير منها الغموض و الخفاء مما أوقع في لبس قبل معانيها و كيفية تأديتها ٠

الغموض و الخفاء :-

و قضية الخفاء و الوضوح ما تزال مسار جدل لم ينتج شيئا مرضيا حتى اليوم، و فيما أعتقد أنه مما يزيد في صعوبة هذه المشكلة عدم الاهتداء على نحو قاطع، إلى الحد الفاصل بين الغموض و العمق و التعقيد من ناحية ، و الوضوح و السطحية من ناحية أخرى ٠

فاذا تساءلنا عن حقيقة الغموض بم يكون ؟ و ما المعايير التي يحتكم إليها في تقديره ؟ ثم ما المقصود بالوضوح و ما المدى الذي يقبل عليه في مجال الأدب ؟ و هل له من أسس حاكمه ؟ أقول : إنا تساءلنا عن شئ من ذلك و نحوه تعددت الآراء و اختلفت التوجيهات بما يضيع معه وجه الحقيقة فمثل تلك القضايا تعد من قبيل الأمور النسبية يختلف الحكم فيها تبعا لاختلاف الأشخاص و ثقافتهم وعصورهم و منازعهم الفكرية و الأدبية و يبقى القول الفصل للذوق

---

(1) الموازنة جـ ٢ ص ٥٨ ٠
(2) السابق جـ ٢ ص ١٩٩ ٠

التسليم المستند بأصول الأدب ومناهجه وأما موقف الآمدى فيتضح من خلال اتجاهاته السابقة على أن موقفه من قول أبى تمام :-

جَارَى إِلَيْهِ الْبَيْنُ وَصْلَ خَرِيدَةٍ ... مَاشَتْ إِلَيْهِ الْمَطْلَ مَشْىَ الْأَكْبَدِ

يزيد الأمر وضوحا ، قال الآمدى بعد تحليله لعناصر هذا الشاهد :-

فيا معشر الشعراء والبلغاء ، ويا أهل اللغة العربية ، خبرونا كيف يجارى البين وصلها ؟ وكيف تماشى هى مطلها ؟ أتسمعون ؟ ألا تضحكون ؟ (1) .

ولا ريب أن هذه الاستعارة على جانب كبير من الغرابة والبعد عن المألوف ، وفيها خفاء ولكن لا ينبغى أن نغفل أننا أمام شاعر من نوع خاص فأبو تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعانى (2) بل هو رب المعانى (3) (وقد شهد بكل معنى مبتكر لم يعثر فيه على أثر ، وقد أراد المتنبى أن يسلك مسلكه فقصر عنه خطاه (4) .

وفحوى ما تقدم أن الصور الخيالية والمعانى الذهنية هى الأصل فى جمال الأساليب فى الأدب والفنون وأن الفنان لا يطلب منه أن يكون سهلا لكل انسان ولا يتقيد بالمعانى والخوالج التى يتساوى فى التفطن لها والتأثر بها جميع الناس) (5) .

لكن لا يصل الأمر إلى حيث التعمية والالغاز ، ومهما يكن من شئ فإن بعض المذاهب الحديثة ، وبخاصة المتأثرة منها بالآداب الفرنسية قد سلكت فى طريق الإغراب والغموض سبلا ربما كانت أشد وعورة بكثير مما كان من أبى تمام مما دفع أحد الكاتبين إلى التعليق على بعض تلك النماذج يقوله :
" وقديما عيب أبو تمام ، وتناوله النقاد بالتجريح ووصفوا شعره بالأغلاق والتكلف لشئ دون هذا بكثير وبسببه أنزله كثير منهم عن منزلته بين الشعراء

---

(1) الموازنة جـ 1 ص 280 .
(2) ابن المعتز وتراثه د . خفاجى ص 305 ، 306 .
(3) الابانة عن سرقات المتنبى للعميدى ص 6 .
(4) المثل السائر ص 303 .
(5) مراجعات فى الآداب والفنون للعقاد ص 69 .

المطبوعـــين (١) على أنّ الآمدى وإن أكثر من ذكر القبيح والمعاب من استعـارات أبى تمام وإيراد الشبه حولها إلا أنه لم يهمل تماما الحسن من استعارات أبى تمام وقد ذكر بعضا مـما استحسن له مثل قولـه :-

وَمِنْ زَفْرَةٍ تُعْطِى الصَّبَابَةَ حَقَّهـا وَتُورِى زِنَادَ الشَّوقِ تَحْتَ الحَشا الصَّلْدِ

فقد ذكر فى تعقيبه أن من زفرة تعطى الصبابة حقها معنى جيد حسن "(٢). بـل إنه ربما يحاول التماس بعض وجوه القبول لبعض من استعارات أبى تمام التى عابها غيره . وذلك نحو محاولته فى تخريج (لا تسقنى ماء الملام) (٣).

مع أن هذا المثال بالذات وتوجيهه له لم يرض به معظم النقاد قديمـا وحديثـا .

ولعل فى كل ما سلف ما يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن الدراسات المتصلة بالمكنية عند الآمدى تعد من أوسع وأهم الدراسات التى عنيت بهـذا الأسلـوب إذ أنه قد أطلعنا على الكثير من الأصول والقواعد التى يحتكم إليها فى فهـم وتقدير هذا القبيل من الاستعارات مع عرضه لكثير من شواهدها ، وعنايته الفائقة بالتخريج والتوجيه والموازنة ، وإن كنا قد لاحظنا بعضا من التحامل عنده علـى كثير من استعارات أبى تمام . فهذا مرده فى الحقيقة إلى غلبة الذوق العربـى المحافظ الذى شاع فى عصره وبعده أيضا كما سيظهر فى دراسة أخرى لها قيمتهـا فى ميدان هذه الاستعارة على أسس نقدية ، ونعنى بذلك ما قام به القاضى الجرجانى فى وساطتــه .

(١) علم البيان د. بدوى طبانـة ص ٢٢٢ .
(٢) الموازنـة جـ ٢ ص ٤٥ .
(٣) السابـق جـ ١ ص ٢٢٧ .

فـى وساطـة الجرجانـــى

يعد القاضى الجرجانى ثانى نقاد عصره ، و ممن أخذوا بالمنهج العربـــى، و طريقة العرب ، و أقام النقد على عمود الشعر ، و هو الميزان الذى انتهى إليـــه نقد الشعر فى القرن الرابـــع .

و خلاصة المسائل التى تعرض لها علماء البيان فى القرآن ، و فى الشعـــر و الأدب بعامة و الشعر على وجه خاص .

و قبل أن نقف بشئ من التفصيل على اتجاه الجرجانى إزاء أساليـــب المكنية و كيفية معالجته لها نرى من المناسب ذكر بعض من الملاحظات العامة و التى كان لها أثرها على دراسته لهذا الباب ، و هى تتمثل فيما يأتى :ـ

أولا : نبه إلى أن لعامل البيئة و الزمان أثرهما على الشعر و الشعراء، فيعكس ذلك على ألفاظهم و معانيهم و طرق تعبيرهم (١) ، و هذا دون شك ملحظ يحمد له ، و إن لم يركن إليه تماما ، حينما يعتمد ما جرت به العـــادة عند السابقين أحد الأسس التى يقوم عليها تخريج بعض ما عيب من استعارات المحدثيـــــن .

ثانيـــا : لم يرتـض القضاء بالأحكام العامة ، فمديح أبى تمام و استعاراته محـــل تفاوت مع تقديره و اجلاله و عرفانه بفضلـه (٢) .

ثالثـــا : يقرر مثل كثير من نقاد عصره : أن الاستعارة لم تقع فى الشعر علـــى مقصد ما دام قد حصل له عندهم عمود الشعـــر (٣) .

رابعـــا : عد الاستعارة أحد أعمدة الكلام ، و عليها المعول فى التوسع و التصـرف و بها يتوصل إلى تزيين اللفظ و تحسين النثر (٤) .

---

(١) الوساطة بين المتنبى و خصومه للجرجانـــى ص ١٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩ .
(٣) السابق ص ٣٤ .
(٤) السابق ص ٤٢٨ .

خامسا : وقعت له بعض العبارات التي يمكن عدها من قبيل الإشارات على طريق التمييز بين الكناية وغيرها من صور الاستعارة (١) .

سادسا : جعل الذوق المرجع الأصيل الذي يحتكم إليه في قبول الاستعارات أو ردها .

وبعد تلك الملاحظات نجد أن الجرجاني قد عرف الاستعارة بقوله : (وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها) ولا يعنينا التعريف في ذاته ، إذ لا يختلف كثيرا عما سبقه وإن كان أكثر تحديدا لكن المهم أن نبحث عن الأسس التي احتكم إليها في تقديره للاستعارات .

وأما المقياس الأول فيتحقق في قوله بعد تعريفه السابق " وملاكها قرب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا توجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في أحدهما أعراض عن الآخر (٢) وهذا الشرط هو الفيصل في جمال الاستعارة أو قبحها ، وواضح التقاؤه مع الآمدي وعموم نقاد عصره فيه ، والذي يمكن اعتباره معيارا موضوعيا .

وثمة معيار آخر تقاس عليه الاستعارات حسنا أو قبحا ، ومرد ذلك إلى استجابة النفس أو نبوها (وربما تمكنت الحجج من إظهار بعضه واهتدت إلى الكشف عن صوابه أو غلطه) (٣) فليس صحيحا إذا ما قال به د. مندور من أن الجرجاني لا يعرف لجودة الاستعارة أو قبحها غير قبول النفس لها أو نفورها عنها (٤) ذلك أن القاضي وإن اعتد بالذوق الشخصي إلا أنه لم يقل بعدم محاولة التعليل والتماس التعليل ، وإنما يلجأ إلى ذلك عند فقد النص للمعيار الموضوعي الذي الذي حدده أولا ، كما أنه لم يقصد بقوله والتعليل غير مستطاع إلى عجزه عن بيان

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني ص ٤٣٠، ٤٣١ .
(٢) الوساطة ص ٤١ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٢٩ .
(٤) النقد المنهجي ص ٣٠٠ .

وجوه جمال الاستعارة أو قبحها ، بقدر قصده إلى ترتيب جانب ذوقى فى فهم الاستعارة ، و هو ما لا يخلو منه كل فن كلامى . أو غير كلامى ، كما أنه لا يمكن قياس الأدب قياسا موضوعيا يمكن فيه تحليل كل جانب من جوانبه ، ثم إن الجرجانى قد على أحيانا و لم يترك للذوق وحده تذوق الاستعارة و فهمها و الحكم عليها ، بل وضع مقياسا وضعيا غير ذلك المقياس الذاتى .

و على كل فقد عولجت أساليب المكنية عنده فى موضعين فى وساطته فقد تحدث عنها أولا عند تناوله للبديع ، حيث ذكر طائفة من الاستعارات المستحسنة تعود كلها إلى صور المكنية على سبيل القطع أو الاحتمال ، و لا غرابة فى ذلك ما دام بصدد الحديث عن البديع الذى أولع به المحدثون بما استتبع حديثه عن الاستعارات لكونها أحد عناصره البارزة و التى شاعت عندهم ، بينما وجدت على قلة فى أشعار المتقدمين .

و قد ذكر ههنا بعضا من شواهد المكنية الذائعة كقول زهير :-

و عُرِّى أفراس الصِّبا و رواحله

و قول لبيد :-

إذ أصْبَحَتْ بيد الشّمال زِمامُها[1] ، وغير ذلك مكتفيا بالسرد المجرد عن كل تعقيب سوى وصفه لتلك الاستعارات بالحسن و إصابة الصنعة و عذوبة اللفظ [2] .

ثم ذكر بعضا مما عابه[3] ، و إن لوحظ أن ما ذكره هنا إنما يعود جميعه إلى أبى تمام ما عدا شاهدا واحدا لأبى نواس .

فمما عابه قول أبى تمام :-

باشرت أسباب الغِنَى بمدائح ضربت بأبواب الملوك طُبُولا

و قوله أيضا :-

إلى ملك فى أيْكَةِ الْمَجْدِ لم يَزَلْ عَلَى كَبِدِ الْمَعْرُوفِ مِنْ نَيلِهِ بَرْدُ

(١) الوساطة ص٣٤ .
(٢) الوساطة ص ٣٩ .
(٣) السابق ص ٤٠ .

و كقول أبـــى نواس :ـ

يا عمرو أضحتْ مُبَيَّضَةً كبـدى ناصبغْ بَيَاضًا بِعُصْفُـر العنب

وقد علق على جملة العتاب بعبارة انشائية لا تحمل ضمونا نقديا محددا إذ قــال : " فاسدد مسامعك ، و استخشنها بلك ، و إياك و الاصغاء اليه ، و احذر الالتفات نحوه، فانه مما يصدئ القلب ويُعميه ، و يطمس البصيرة ، و يكد القريحة " (١) .

و قد تحدث عن صور المكنية ثانيا فى أثناء حديثه عن الافراط فى الاستعارة من خلال دفاعه عن المتنبى ، و قد يكون هذا الموضع أكثر أهمية إذ تناول فيه بعضا من شواهـد المكنية على شئ من التحليل و التعليل و المقارنة ، و إن كان ذلك لم يـــرض كثيرا من النقاد بعده ، مما أوجده مجالا للنقاش ، و فوق ذلك كله فقد وقعت منـــه عبارات تعد من قبيل الإشارات القريبة إلى طريقة المكنية

نقد عرض الشاهدين متهما المتنبى بالافراط فى الاستعارة وقبل أن يلتمــس وجها للتعليل : قدم لذلك بقوله : " وقد كانت الشعراء تجرى على نهج منهــــا قريـــب من الاقتصاد حتى استرسل فيه أبو تمام و مال إلى الرخصة فأخرجه إلــــى التعدى ، و تبعه أكثر المحدثين بعده ، فوقفوا عند مراتبهم من الإحســـــان و الاساءة و التقصير و الإصابــة " .

ثم قال : " و قد كان بعض من أصحابنا يجارينى أبياتا أبعد أبو الطيب فيهــا الاستعارة وخرج عن حد الاستعمال و العادة ، فكان مما عدد منها قوله :ـ

مَسَرَّةٌ فى قُلُوبِ الطِّيبِ مَفْرِقُهـا وَحَسْرَةٌ فِى قُلُوبِ البَيْضِ و اليَلَبِ

و قولـــــه :ـ

تجمعت فى فُؤادِهِـــــــمُ مِلْءُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَـا

فقال : جعل للطيب و البيض و اليلب قلوبا و للزمان فؤادا و هذه استعارة لم تجر على شبه قريب و لا بعيد ، و إنما يصح الاستعارة و تحسن على وجه من المناسبة و طرف من الشبه و المقاربة .

---

(١) الوساطـــة ص ٤١ .

و هنا يبدأ الجرجانى فى محاولة التماس العذر للمتنبى بالقياس على النظائـر فيقول : " فقلت لـه هذا ابن أحمر يقول :-

وَلِهَتْ عَلَيْهِ كُلُّ مُعْصِفَـــــةٍ هَوْجَاءَ لَيْسَ لِلُبِّهَا زَبْـــــر

فما الفصل بين من جعل للريح لُبـــا و من جعل للطيب و البيض قلبا .

و هذا أبو رميلـــة يقـــول :-

هُمُ ساعِدُ الدَّهْرِ الَّذِى يُتَّقَى بِهِ وَمَا خَيْرُ كَفٍّ لَا تَنُوءُ بِسَاعِـدِ

و هذا الكميت يقـــول :-

و لما رأينا الدهر وَعْرًا سهولُه و أبدى لنا ظهرا أجبَّ مسَمَّـا
و معرفة حصاء غير مفاضـــة عليه و لو نأذا عثانين أجْدَعــا
و جبهة قرد كالشِّراك ضئيلـــة و صعّر خديه وأنفا مُجَدَّعـــا

فهولاء قد جعلوا الدهر شخصا متكامل الأعضاء ، تام الجوارح فكيف أنكرت علـــى أبى الطيب أن جعل له فوادا " (١) .

و يعنينا من هذه الفقرة ما فيها من إشارات للطريقة التى تقوم عليها المكنيـة و المميزة لها عن التصريحية على حدود المتأخرين .

و قد بسط القاضى وجه هذه الاستعارة بقوله : " و ذلك أن الريح لما خرجـت بعصوفها من الاستقامة ، و زالت عن الترتيب شبهت بالأهوج الذى لا مسكة فــى عقله و لا زبر للبه و لما كان مدار الأهوج على التباس العقل حسن من هذا الوجـــه أن يجعل للريح عقلا " (٢) .

و هذه إشارة قريبة إلى ما ذكره البلاغيون من أن اللازم المذكور فى الاستعـارة المكنية هو ما يكون به قوام وجه الشبه أو كماله ، كنطق الحال و أظفار المنية " (٢)

---

(١) الوساطـــة ص ٤٢٩ .
(٢) السابـــق ص ٤٣٠ .
(٣) السابـــق ص ٤٣٠ .

و لئن كان تخريجه الاستعارة اللبراليح سائغا مقبولا إلا أن فى توجيهه لبعض الاستعارات الأخرى شيئا من التعسف الذى لا تدعو إليه ضرورة بالاضافة إلى فقده بعضا من جمال الصورة و يظهر ذلك فى تخريج استعارة الساعد للدهر إذ يقول : فاما الدهر فانما يذكره أهله فإذا جعل للدهر ساعدا و عضدا و منكبا فقد أقيم أهله مقام هذه الجوارح من الإنسان (١) .

يعنى هذا التوجيه إبعاد اعتبار الاستعارة أصلا ليصبح المثال محمولا على ما عرف بالإيجاز بالحذف . ثم يذكر قول امرئ القيس المشهور : " فقلت له لما تمطى بصلبه " واصفا إياه بأن ألفاظه مقبولة غير مستكرهة و قريبة المشاكلة ظاهرة المشابهة ، و مع أن استعارات المحدثين لم تأت على هذا النحو من القرب فى المشابهة ، إلا أنه يلتمس لهم بعض وجوه العذر التى تقربهم إلى الإصابة يقول : " فإذا قال أبو الطيب ، مسرة فى قلوب الطيب مفرقها ، فانما يريد أن مباشرة مفرقها شرف ، و مجاورته زين و مفخرة ، و أن التحاسد يقع فيه و الحسرة تقع عليه ، فلو كان الطيب ذا قلب كما لو كانت البيض ذوات قلوب لأسفت ؟ و اذا جعل للزمان فؤادا ملأته هذه الهمة فإنما أورده على مقابلة اللفظ باللفظ ، فلما افتتح البيت بقوله : تجمعت فى فؤاده همم ، ثم أراد أن يقول أن أحداها تشغل الزمان و أهله و لا يتسع لاكثر منها ترخص بأن جعل له فؤاد و أعانه على ذلك أن الهمة لا تحل الا الفؤاد و سهله فى استعارة الأوصاف و إذا قال أبو تمام : " يا دهر قوّم من أخدعيك " فإنما يريد اعدل و لا تجر ، و أنصف و لا تحف ، لكنه لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور و الميل ، و الأغراق انما وقع بانحراف الأخدع و ازورار المنكب استحسن أن يجعل له أخدعا و أن يأمر بتقويمه " (٢) .

و اتبع القاضى الجرجانى كلامه بما يشبه الحكم العام إذ يقول : " و هذه أمور متى حملت على التحقيق و غلب فيها محض التقويم ، أخرجت عن طريقة الشعر ، و متى أتبع فيها الرخص و أجريت على المسامحة ، أدت إلى فساد اللغة و اختلاط الكلام و إنما القصد فيها التوسط و الاجتزاء بما قرب و عرف ، و الاقتصار على ما شهر و وضح " (٣) .

---

(١) الوساطة ص ٤٣٠ / ٤٣١ . (٢) الوساطة ص ٤٣٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٣٣ .

و مع ذلك الجهد الواضح الذى بذله القاضى فى محاولته تخريج ما فى (بيت المتنبى من بعد فى الاستعارة و إغراق إلا أن توجيهه هذا قد قوبل من بعض النقاد بعده بشئ من المناقشة و الاعتراض ، كما فعل ابن سنان على ما سيجئ مفصلا فى موضعه و أيضا فأن الدكتور مندور قد حمل بشدة على استعارات المتنبى متهما إياها بالسخف و الإحالة و الاغراب و مناقشا الجرجانى فى حمله إياها على بعض الاستعارات الأخرى و قياسها عليها مع وجود التمايز بينهما .

يقول صاحب النقد المنهجى : " و موضع الضعف عند الجرجانى فى هذه الحجة هو منهجه الذى يعتمد على المنطق و القياس ، و هو يفعل ذلك بالرغم من أنه قد عثر على القياس الصحيح عندما قال : ان المميز هنا هو قبول النفس و نفورها ، و النفس لا تقبل و لا تنفر جريا وراء قياس ، و الأمثلة التى أوردها لا يمكن أن يقاس بعضها على بعض ، فوصف الكميت للزمن بأنه يقلب ظهره على بطنه كالمعك ، ليس للاستعارة فيه قيمة ذاتية و إنما يأتيه الجمال و القوة و الإيحاء من الصورة المشتركة التى يعبر عنها ".(1)

و أيا ما كان الأمر فإن صور المكنية قد اكتسبت على يدى الآمدى و القاضى أهمية خاصة نبعت من طبيعة مؤلفيهما حيث جاءت على نحو يستوعب لكثير من الجوانب و إن برز خلال ذلك بعض من المشكلات التى تتصل بصور المكنية بما كان لها أثرها على توجيه دراستها عندهما .

و من ذلك :-

أولا : دراستها من خلال فنون البديع و الذى كان مصدر تحفظ و حذر ، مما جعلهما ينظران اليها على أنها فن مستحدث يفتقد جانبا من جوانب الأصالة العربية .

ثانيا : افتقاد الكثير من نماذجها البحث الموضوعى الكاشف عما بها من أسرار ، و الاكتفاء أحيانا بمجرد حشد الشواهد فى غير تعقيب أو فى صورة أحكام عامة .

---

(1) النقد المنهجى ص ٣٠٠ .

ثالثا : الاحتكام فيها إلى الذوق العربي القديم وأخذ النماذج الجديدة منها على ضوء منه .

رابعا : عدم وضوح الفوارق المميزة لها عن غيرها من صور الاستعارة الأخرى، على نحو قاطع ، ولو كان ذلك لأمكن أن تُدرس وفق قواعد خاصة بها وإن لم يمنع ذلك من وقوع بعض الإشارات المميزة والقريبة من مفهوم المكنية عند المتأخرين .

ومع كل ذلك فستبقى بحوث الآمدي والقاضي الجرجاني. من أهم ما كتب فيما نعلم عن صور المكنية قبل عبد القاهر .

مع أبي هـلال ت ٣٩٥ (١) :-

الحق أننا لم نجد عند أبي هلال شيئا يتصل بالكناية في الفصل المتعدد الذي عقده للاستعارة حيث لم نقع منه على إشارة إلى طريقتها ، فقد نقل عن الرماني تعريفه للاستعارة المعترض عليه بكونه لا يشمل التخييلية كما نقل كثيرا من الشواهد عن الرماني مقتفيا أثره أيضا في التخريج بما يوافق طريقة التصريحية (٢) .

و يبدو أن العسكري قد غفل عن إدراك طبيعة التصوير و الخيال في هذا الضرب فقد رأيناه يذكر صورا عديدة منه في الفصل الخاص بالتنبيه على الأخطاء في المعاني .

يقول أبو هلال تعليقا على قول امرئ القيس :-

أَلِمَّا تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقِوَاءَ بِعَسْعَسًا ... كَأَنِّي أُنَادِي إِذْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

من هذا التشبيه فاسد لأجل أنه لا يقال كلمت حجرا فلم يجب فكأنه كان حجرا ، والجيد في ذلك قول كثير :-

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ ... إِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتِ
كَأَنِّي أُنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ ... مِنَ الصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا الْعُصْمُ زَلَّتِ

فشبه المرأة عند السكوت بالصخرة " (٣) .

و هذا كما قلنا إغفال لهذه الحقيقة النفسية في موقف الشاعر ، فالأطلال و الزمن ليست في وجدانه ميتة راكدة ، و إنما هي شواخص أحياء ، لأن الشاعر حين يقبل عليها بحنينه و جيشانه يذهل عن حقيقتها و يراها بعينه الملتاعة تروي أخبار الصحابة ، أو توسوس بها ، فلما سألها و سكتت ، كان هذا السكوت أمرا غير متوقع ، و كأنها صارت خرساء تجيش و لا تنطق ، و قد أفصح الشعر عن هذه الحقيقة فيما لا يحصى (٤) .

---

(١) تاريخ علوم البلاغة ص٩٢ .   (٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص
(٣) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٧٧ وصحة البيت في الديوان هكذا :-
ألما على الربع القديم بعسعسا ... كأني انادي أو أكلم أخرسا
(٤) ينظر التصوير البياني د . أبو موسى ص٢٧٣ وكتاب امرئ القيس أمير الشعراء الجاهلية د . طاهر مكي ص ٢٥٧ .

كما عاب أبو هلال قول أبى تمام :-

رقيق حواشى الحلم .. .. البيت

و عده من أغلاط الشاعر و تناوله بنحو ما سبق به الآمدى (١) .

و من المحقق أن أبا تمام فى جوانب كثيرة من مثل هذه الصور الغربية يحاول أن يجدد و أن يلائم بين العصر و أفكار الشعر ، و قد حاول أن يبتكر فى الصورة فأغرب فى كثير منها ، و الحضارة العباسية و الرقى العقلى الذى أصاب الشاعر العباسى ، كان جديرا بأن يستوعب هذه الصور الغريبة ، نجد ذلك عند مسلم و ابن الرومى ، و لكن لم يغربا أغراب أبى تمام و لم يتعمقا تعمقه (٢) .

فى العمدة لابن رشيق - ٤٥٦هـ (٣)

و أول ما نلحظه على دراسة ابن رشيق ، غلبة الاتجاه الأدبى ، و قد يكون من مبررات هذا المنهج أنه وجد فى فترة متأخرة نسبيا فوقع عليه حسب الجمع مع التخريج و التبويب ، لكن هذا لا يمنع أن نقف منه على اتجاه معين ، و موقف متميز ، و لو فى بعض جوانبه فيما يتصل بالمكنية .

وقبل أن نشرع فى تفصيل ذلك نورد مسألة أو مشكلة أثيرت حول درس ابن رشيق لموضوع الاستعارة عامة . إذ أن للمكنية فيها نصيبا ، فقد عد ابن رشيق الاستعارة من حلى الشعر " وليس فى حلى الشعر أحسن منها ، كما هى عنده من البديع ، بل أول أبوابه .

" و الاستعارة إنما هى من اتساعهم فى الكلام و أقتدار و داله ، ليس ضرورة ، لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، و ليس ذلك فى لغة أحد من الأمم غيرهم فانما استعار و مجازا و اتساعا " (٤) .

---

(١) الصناعتين ص ٨٦ .
(٢) الخصومات البلاغية و النقدية فى صنعة أبى تمام د . عبد الفتاح لاشين ص١٤٧ .
(٣) تاريخ علوم البلاغة ص ٩٥ .
(٤) العمدة فى محاسن الشعر و ادبه و نقده ، لابن رشيق القيروانى جـ ١ ص ٢٧٤ .

و قد خطأ د . طبانة ابن رشيق لأمر لا نعتقد أن ابن رشيق يقصده فيقول : " فقد رأيناه يعدها من الحلى . و شتان ما بين اعتبارها عنصرا من عناصر الجمال الطبيعى و اعتبارها مظهرا و زينة لشئ قد يكون فى ذاته جميلا . و قد يكون غير جميل . و ابن رشيق : لا يرى الاستعارة ضرورة فى الكلام ..... و قد أخطأ ابن رشيق فى هذا القول "(١) .

و لا خلاف فى أن الاستعارة تعد جوهرا أصيلا فى الشعر . و هى الخاصية النوعية للأدب و لا خلاف كذلك فى أن درس الاستعارة فى إطار البديع و إطلاق ألفاظ كالحلى و المحسنات و اللطائف و نحو ذلك قد يوقع فى لبس عند النظرة الأولى . لكن الأمر الذى لا ينبغى الخلاف فيه أيضا أن لفظ البديع قديما كان يعنى غير ما يعنيه مصطلح البديع حديثا . فقد كانت هذه الألفاظ تعنى أيضا معنى الجدة و الاختراع و الابتكار و كلها معان تتفق و الغايات الأصيلة للأدب . فلم الاصرار إذا على اتهام ابن رشيق مع أنه لم ينفرد بهذا الأمر إذ هو مسبوق بمثله من القاضى الجرجانى(٢) . و من قبلهما ابن المعتز(٣) .

و فوق ذلك ينبغى أخذ رأى ابن رشيق على ضوء موقفه العام و مراعاة سياق حديثه و الملابسات المختلفة التى قد تعين على الوصول إلى رأى قريب من الصواب . فابن رشيق و إن عد الاستعارة من قبيل الحلى و البديع إلا أنه قد عدها مجازا بل هى عنده أفضل أنواعه . و المجاز كما ذكر من مفاخر العرب فلو ساغ بعد ذلك أخذ عبارته على المعنى المناقش فيه لا نسحب هذا الحكم على التشبيه أيضا إذ عده هو الآخر لونا مجازيا "(٤) .

و بعد ذلك نجد أن ابن رشيق قد قسم الاستعارة إلى لونين :ـ

يقوم الأول على أن يستعار للشئ ما ليس منه و لا إليه و يستشهد لذلك بقول لبيد :ـ

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى د . بدوى طبانة جـ ١ ص ١٧١ .
(٢) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٣٤ .
(٣) البديع لابن المعتز ص ٦١٣ .
(٤) العمدة جـ ١ ص ٢٦٨ .

وَغَدَاةِ ريحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقِـــرَّةٍ   إذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمالِ زِمامُها

و قد علق بقوله : " فاستعار للريح الشمال يدا ، و للغداة زماما ، و جعل زمـــام الغداة ليد الشمال إذ كانت الغالبة عليها ، و ليست اليد من الشمال و لا الزمـــام من الغداة " (١) .

و أما القسم الثاني : فما أخرج مخرج التشبيه كما قـــال ذو الرمــة :–

أَقامَتْ بِهِ حَتّى ذَوَى الْعُودُ والتَوَى   وَسَاقَ الثُّرَيَّا فى مُلاءَتِهِ الْفَجْـــرُ

فاستعار للفجر ملاءة و أخرج لفظه مخرج التشبيه " (٢) .

ثم يورد اختلاف من قبله فالبعض يفضل ما كان من قبيل قول لبيد على حــين يؤثر آخرون ما فى قول ذى الرمة ، أما هو فيميل إلى ما كان على مثال استعــــــارة ذى الرمة و المخرجة على التشبيه مخطئا من يرى خلاف ذلك لأن جل العلماء علـــى تفضيل الاستعارات القريبة ، " و بها أتت النصوص عنهم ، و اذا استعير للشئ ما يقرب منه و يليق به كان أولى بما ليس منه فى شئ و لو كان البعيد أحسن استعارة مـــن القريب لما استهجنوا قول أبى نواس :–

بُحَّ صَوْتُ المالِ مِـــــــمَّا   مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيــــــــحُ

فأى شئ أبعد استعارة من صوت المال ؟ فكيف حتى بح من الشكوى و الصيـــاح ، مع ما أن له صوتا حين يوزن أو يوضع ؟ و لم يرد ، أبو نواس فيما أقدر لان معناه لا يتركب على لفظه إلا بعيدا و كذا قول الشاعـــــر :– بشار بن برد :

وَ جَزَّتْ رِقَابَ الوَصْلِ أَسيافُ هَجْرِهــــــا
وَقَدَّتْ لِرِجْـلِ البَيْنِ نَعلَينِ من خَدِّى

فما أهجن ، رجل البين ، و أقبح استعارتها ؟ و لو كانت الفصاحة بأسرها فيهـــا و كذلك رقاب الوصل " (٣) .

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٦٩ .
(٢) الموضع السابق نفســه .
(٣) السابـــق ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

نعم ان الذوق العربي العام يقر ابن رشيق على إيثار القريب و عدم الاغراق مع أن البعض قد خرج إلى حيث الميل إلى جانب البعيد و الدفاع عنه مما نجد له صورة عند الصولي كما سبق ، و آخرين ممن يرون أن خير الاستعارة ما بعد و علم من أول وهلة أنه استعارة [1] .

كما نسلم لابن رشيق الاتجاه الذي يراه أولى بالاتباع إذ ما زالت تلك المسألة تمثل اشكالية نقدية عجز النقد الحديث عن أن يجد لها حلا مرضيا ، و سيظل كذلك ما دامت الاذواق متفاوتة ، لكن الذي نسأل عنه ، و نناقش فيه هو تحكم هذا المقياس إلى حد بدا و كأن ابن رشيق يخضع النصوص عليه إخضاعا دون مراعاة حقيقية للفوارق المعنوية بينها ، فاعتبار استعارة لبيد من قبيل البعيد يعد أمرا جديدا غريبا ، فما أكثر الدراسات التي تعاقبت على هذا الشاهد بحيث لا يكاد يخلو مؤلف من ذكره ، و هو معدود عندهم من قبيل المستحسن إما صراحة وإما ضمنا .

و أما عن مقياس بناء الاستعارة على التشبيه فلا نطعن في سلامته من حيث هو و ان كنا ننازع في عدم قبول بيت لبيد لتصور التشبيه فيه و لو على نحو ما ، ثم إن المقارنة بين هذه الاستعارة و استعارة أبي نواس و بشار غير سلمة إذ مرد القبح في استعارة أبي نواس إنما هو قبح الصورة المعبر بها مع عمق المعنى المراد و كذا استعارة رجل البين ، لكن الاستعارة في رقاب الوصل مما قد نجد سبيلا إلى فهمها على وجه يبعدها عن القبح لما فيها من دلالة عميقة على المعنى الذي أراده الشاعر مع طرافة التعبير و خروج الصورة عن المعتاد ، و أما استعارة اليد للشمال فلا نرى وجها لقبحها أو بعدها معنى أو صورة أصلا و سيأتي من يقف على مثل تلك الاستعارات بالتحليل و الكشف و التمييز بما يثبت مجانبة ابن رشيق الصواب في تطبيق هذا الاصل في التمييز بين الاستعارات و إذ قد بدا تأثر ابن رشيق بالنهج العربي العام النافر من الإغراب و الاغراق فإننا نجده و قد تخفف بعض الشيء من هذا حين يعرض لبعض صور المكنية في سياق رده على رأي ابن جني في أن الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة حيث ذكر أن كلام ابن جني أيضا حسن في موضعه لأن الشيء إذا أعطى وصف نفسه لم يسم استعارة فإذا أعطى وصف غيره سمي استعارة إلا أنه لا يجب للشاعر أن يبعد الاستعارة جدا حتى ينافره و لا أن

---

(١) دور العبارات و غرر الاشارات في تحقيق معاني الاستعارات لأحمد بن محمد النحوي ت عبد الحليم شادي ص ١٨٠ .

يقربهما كثيرا حتى يحقق ولكن خير الأمور أوسطهـــا .

وينبه إلى أصل مهم وهو أن للاستعارات قرائن وأحوال يتبعها الحكـم بالحسن أو التقبيح . فقد يعيب أدباء عصر استعارات استحسنت فى عصر آخر (١) .

ويورد ابن رشيق قول الشاعـــر :-

فقلتُ لها يا أمَّ بيضاء إنــنى   هُريقَ شبابى واستشنَّ أديمى

ويعقب عليه بقوله : هريق شبابى . لما فى الشباب من الرونق والطراوة التى هـى كالمــاء (٢) .

وقول طفيـــل :-

فوضعتُ رحْلى فوقَ ناجيــةٍ   يَقْتَاتُ شحمَ سنامِها الرَّحْـلُ

ويعقب عليه بقوله : فجعل شحم سنامها قوتا للرحل . وهذه استعارة كما تراهـــا كأنها الحقيقة لتمكنها وقربها .

وهذا الكلام يمكن توجيهه على المكنية حيث قال فجعل شحم سنامها قوتـــا للرحل . فهذا يفيد أن التجوز فى وصف الرحل بالاقتيات . وليس فى وصف الحـــال التى عليها بالاقتيات . وعلى اجراء المتأخرين يشبه الرحل بمن الاقتيات صفتـــه كالانسان مثلا مع حذفـه والرمز إليه بشئ من لوازمه على طريق المكنية .

وفى تعليقه أيضا على بيتى امرئ القيس فى قوله :-

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدُولَـهُ   ... ... البيتين

ما يتفق ومفهوم المكنية إذ يقول : " فاستعار لليل سد ولا يوصف بها وهى الستـــور وصلبا يتمطى به وأعجازا يردفهـــا وكلكلا ينوء بـــه " (٣) .

---

(١) العمـدة جـ ١ ص ٢٧١ .
(٢) السابـــق جـ ١ ص ٢٧٤ .
(٣) السابـــق ص ٢٧٦ .

و هكذا يتضح مما تقدم حرص ابن رشيق على طريقة العرب فى الاستعارات وإيثار عدم الاغراب فيها .

و هذا الحرص نشعر به عنده فى كتاب له آخر و هو " الأنموذج " فعلى الرغم من أنه لم يصلنا منه سوى بعض إشارات متفرقة فى المصادر الأدبية ، فإنه يفهم منه اتجاهه ، فقد أرخ فيه لفن الاستعارة و تتبعها منذ امرئ القيس و حتى المتنبى ، و كان منهجه فيها يميل إلى إيثار الاقتصاد و عدم الاغراق و المبالغة على العكس من ابن شرف القيراونى .(١)

كما ظهر أيضا المزاوجة بين الناحية الأدبية من الدراسة و الجانب التطبيقى مع بعض الأصول و الآراء التى انعكست آثارها على المكنية فكانت خطوة بها على طريق التحديد والتمييز تلاها خطوة أخرى عند أديب ناقد معاصر له هو ابن سنان .

عند ابن سنان ت ٤٦٦ (٢)

لا ريب فى أن دراسة ابن سنان لموضوع الاستعارة ذات قيمة كبيرة فى ميدان الدرس النقدى و البلاغى و قد رأيناه أحيانا يحكم بعض المعايير التى انفرد بها مما يوقعه فى شئ من التضارب و مخالفة الذوق .

و ثمة ملاحظة عامة و هى أن دراسة ابن سنان لموضوع الاستعارة تكاد أن تنصرف فى مجملها إلى صور المكنية .

و لعل أول ما يلفتنا فى ذلك تحليله المستفيض و العميق للاستعارة فى قوله تعالى : " و اشتعل الرأس شيبا " فقد عقب بأن ما فى الآية " استعارة لأن الاشتعال للنار و لم يوضع فى أصل اللغة للشيب ، فلما نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه ، لأن الشيب لما كان يأخذ فى الرأس و يسعى فيه شيئا فشيئا حين يحيله إلى غير لونه الأول ، كان بمنزلة النار التى تشتعل فى الخشب و تسرى حتى تحيله الى غير حاله المتقدمة ".(٣) .

---

(١) تاريخ النقد العربى د. زغلول سلام ص ٥٤ .
(٢) تاريخ علوم البلاغة ص ٩٨ .
(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ١٠٨ .

وعباراته هذه تجعل تلك الاستعارة منطوية تحت المكنية فالاشتعال ليس على الحقيقة للشيب ، وإنما هو من خواص النار ، وعلى هذا يكون الشيب قد شبه بالنار ، المستعار فيه للشيب : المستعار له ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وقد زاد ابن سنان الأمر وضوحا فى اثناء تطبيقه لأركان الاستعارة على الآية الكريمة إذ قال : " لابد للاستعارة من حقيقة ، هى أصلها ، وهى مستعار ، ومستعار منه ، ومستعار له ، فالمستعار لفظ الاشتعال فيما مثلنا به ، والنار مستعار منه ، والشيب مستعار له " (1) .

لكنه يضيف إلى ذلك حينما يقرر بلاغة تلك الاستعارة على حقيقتها قوله : " واشتعل الرأس شيبا " أبلغ من كثر شيب الرأس وهو حقيقة هذا المعنى " (2) .

وقد يكون ذلك من ابن سنان وأمثاله وراء اختلاف التوجيه عند المتأخرين حين اتجه بها البعض إلى المكنية فى حين مال بها آخرون إلى الحمل على التصريحية وعلى كل فالتوجيهان سائغان بلاغة ويبقى التفضيل تابعا لأبلغية التصوير التى قد تختلف فيها الأذواق والأفهام .

ولا يعنى هذا أن ابن سنان قد سلك هذا المنهج مع الاستعارات القرآنية الأخرى ، فقد نقل عديدا منها عن الرمانى (3) بنص تحليله لها دون إضافة " (4) .

بعض المقاييس التى احتكم اليها ابن سنان فى تقدير الاستعارات :—

وقد جعل ابن سنان معيار جودة الاستعارة هو قربها : ذلك لأنه قسم الاستعارة إلى قسمين : " قريب مختار " وبعيد مطرح " فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى ، وشبه واضح ، والبعيد المطرح اما أن يكون لبعده مما استعير له فى الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك ، والقسمان معا يشملهما وصفى بالبعد " (5) ولم يستقم معيار الخفاجى

(1) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ١١٠ .
(2) السابق ص ١٠٩ .
(3) ينظر : النكت ص ٨٥ وما بعدها .
(4) السابق ص ١١٠ ، ١١١ .
(5) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ١٣٦ .

فى الحكم على الاستعارة ذاتها لأنه لم يستجد قول امرئ القيس :-

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

لأنه رأى فيه استعارة مبنية على استعارة .

و قد ناقض الآمدى حيث كان يرى أن الاستعارة فى البيت فى غاية الحسن لقربها و ملاءمتها ، و قد عابها كما يقول الآمدى من لم يعرف موضوعات المعانى و الاستعارات و المجازات "(١) .

و أما عند ابن سنان فليست هذه الاستعارة من الجيد فيها و لا رديئها بل هى من الوسط بينهما "(٢) .

و كذلك لم يستجد ابن سنان قول زهير :-

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله
و عرى أفراس الصبا و رواحله

و العلة ما ذكره فى بيت امرئ القيس " و ذلك أن الاستعارة فى بيت زهير مبنية على قولهم - ركب هواه و جرى فى ميدانه - على نحو ما قاله أبو القاسم ، و تلك استعارة بغير شك ، و قد بنى عليها ، و بيت طفيل أقرب و أحسن لغناه بنفسه "(٣) .

و هو مناقض فى تلك المسألة ، فإن حكمه على بيت امرئ القيس بما يبعد قبول الاستعارة فيه يتعارض و ما سبق أن صرح به من الاستعارة المبنية على أخرى من قبيل المطرح و المردود ، و قد تنبه إلى ذلك ابن الأثير (٤) و آخذه عليه و أكد ذلك د . الخولى مبديا موافقته على ملاحظة ابن الأثير "(٥) .

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٢) سر الفصاحة ص ١١٢ .
(٣) السابق ص ١١٣ .
(٤) المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ص ٢٣٠ ، ١٣١ .
(٥) صور من تطور البيان العربى ص ١٧٣ .

و يعقب استاذنا الدكتور جلال الذهبي على مسلك ابن سنان هذا فيقــول :
" و كنا ننتظر من الخفاجي — و هو الأديب الذي عانى صنعة الشعر — أن يحكـم احساسه قبل أن يحكم قاعدته ، و لو أنه فعل ذلك لتغير حكمه قطعا ، و لكان فـي الوقت نفسه أدق حكما و أقرب إلى الصواب قولا " (١) .

و يبدو أن أساس التفرقة عند ابن سنان بين الاستعارة و التشبيه غير واضـح تماما — الأمر الذي كان من آثاره ما نشعر به من خلـط ظاهر حيث قارن بـين قول أبي نصـر :—

حتى إذا بهرَ الأباطح و الرُّبـا   نظرتْ اليك بأعين النـوّارِ

و قول أبي تمـام :—

قرتْ بقُرّانَ عينُ الدين وانشترت   بالأشترين عيونُ الشرك فاصطلما

و في تلك المقارنة يحكم بحسن البيت الأول لوجود شبه بين النوار و العيون قرب الاستعارة من أصلها على العكس مما في استعارة أبي تمام فقد حكم بقبحها لفقدها شـرط الشبه القريـب " (٢) .

ويقول : " و مع تأمل هذين البيتين يفهم معنى الاستعارة لأن النوار و الشرك لا عيون لهما على الحقيقة و قد قبحت استعارة العيون لاحدهما و حسنت للآخـر ، و بيان العلة فيه أن النوار يشبه العيون ، و الدين و الشرك ليس فيهما ما يشبهها ، و لا يقاربها ، و هذه طريقة متى سلكت ظهر المحمود منها في هذا الباب من المذموم" (٣)

و كان عليه أن يتنبه إلى ما وقع فيه مما هو كالتناقض ، لأن النوار ما دام يشبه العيـون ، و الطرفان مذكوران فكيف يكون استعارة ؟ و مناطها عنده على تعليـق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة ، على جهة النقل كما نقل عن الرمانـي و نقـده .

---

(١) الفخر الرازي و البلاغة العربية د . جلال الذهبي ص ٢١١ .
(٢) سر الفصاحـة ص ١١٤ .
(٣) سر الفصاحـة ص ١٤١ .

و بناء على هذا الفرق يمكن ان يناقش فى رده لاستعارة أبى تمام لفقدها الشبه بين الشوك و العيون لان الشبه و القرب فيه الذى اشترطه أكثر النقاد و مال إليه الذوق العربى إنما يكون بين طرفى الاستعارة ...... المستعار منه ..... و المستعار له ..... و ابن سنان ممن قال بذلك لكنه لم يحسن التطبيق فى تلك المقارنة ، و قد بدأ ابن سنان فى دراساته لبعض أساليب المكنية و كأنه لا يقر بما عرف لدى المتأخرين بالترشيح حيث يوحى بأوصاف تلائم المستعار منه بما يكون من دواعى قوة الاستعارات و بلاغتها ، و أما هو فيوجه هذا النوع على أنه استعارة أخرى لذا يكون المثال الاستعارى المرشح من قبيل بناء الاستعارة على أخرى ، ففى قول الشريف الرضى :ـ

و الحب داء يضحل كأنما ترغو .و احله بغير لغُام

يقول فى تلك الاستعارة " فقربت من قول زهير ـ أفراس الصبا و رواحله لكنه أبعد منه ، لأنه بنى عليه أمرا آخر غير قريب ، و هو قوله : (رواحل الصبا ترغو و لا لغام لها ـ و هذا المذهب الردئ فى الاستعارة على ما قدمنا) (١) .

و فى بيت أبى ذُويب المعدود من شواهد المكنية و هو قوله :ـ

وَ إِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... ... البيت

علق عليه بقوله : " فليس من احسن الاستعارات و لا أقبحها ، و لا أراه نظير ما اخترته من قول طفيل و ذى الرمة و ابن نُباتة و الشريف الرضى ، و لا الأمثلة الجيدة التى ذكرتها ، بل هو وسط ، و إن كان إلى الاختيار أقرب لما جرت به العادة من قولهم : علقت به المنية ، و نشبت و ما أشبه ذلك ، و لأجل كثرة هذا حسن ، و لأنه مبنى على غيره لم أجعله من أبلغ الاستعارات على ما قدمت ذكره " (٢) .

و فى هذا الكلام نلمس شيئا من الاضطراب فى فهم الاستعارة إذ أنه كما يبدو وقع أسيرا للأصول التى قررها و قصد إلى إيقاع النصوص عليها حتى و لو أدى ذلك إلى مخالفة العرب و الحكم بما لم يرتضه لكنه لا يلبث أن يأتى ببعض العبارات التى قد تمثل تعارضا أو تراجعا منه .

---

(١) السابق ص ١١٤ .
(٢) السابق ص ١١٥ .

ويعرض لبعض كتابات أبي تمام المختارة و القبيحة موردا في ذلك بعض الشواهد التي سبق أن عابها صاحب الموازنة معقبا بقوله : فأن أخادع الدهر و الشتاء من أقبح الاستعارات و أبعدها مما استعيرت له ، و ليس بقبح ذلك خفاء .

و لا يعرف أبو تمام الوجه الذي لأجله جعل للشتاء و للدهر أخادع إلا سوء التوفيق في بعض المواضع .

و هنا يظهر جانب التحامل على أبي تمام ، فمع أنه يحق له أن يحكم بالقبح أو الحسن على مقتضى ذوقه لكن أن يصل إلى نفي الوجه الذي لأجله قال أبو تمام ما قاله فشيء لا يتفق و النظرة الموضوعية خاصة ، و إننا قد نستطيع أن نجد في أمثال تلك الاستعارات وجها يمكن أن تحمل عليه (١) .

و قد أفاض ابن سنان الحديث عن استعارة المتنبي و التي أثارت جدلا كثيرا و هي قوله :ـ

مسرةٌ في قلوب الطيب مفرقها   وحسرةٌ في قلوب البيضِ و اليلبِ

و نقل في ذلك كلام صاحب الوساطة ، و محاولته التماس وجه يمكن أن يحمل عليه (٢) ، ومع بعض التحريف في عبارة القاضي مما قد يترتب عليه لبس في فهم المعنى .

و قد تناول دفاع الجرجاني بالتحليل و النقد المفصل موجها إياه على أحد احتمالين ، إما أن يكون القصد نفي الخطأ عن المتنبي ما دام غيره قد فعل مثله و حينئذ يكون الكلام في موضعه (٣) .

و أما إن كان المراد التماس العذر للمتنبي و أنه غير مبتدع و أنه وجد طريقا مسلوكا ، فان ابن سنان لا يرتضي هذا التوجيه معللا بأن خطأ السابقين لا ينبغي أن يكون ذريعة تبرر خطأ اللاحقين (٤) .

---

(١) الفن و مذاهبه في الشعر العربي ص ٢٣٨ .
(٢) الوساطة للقاضي الجرجاني ص ٤٢٩ و ما بعدها .
(٣) سر الفصاحة ص ١٢٠ .
(٤) الموضع السابق .

وفى هذه الصور يجرى قاعدة نقدية مهمة لا أعتقد أن نقادا كثيرين وبخاصة فى العصر الحديث ـ يقرونه عليها ، فابن سنان لا يوافق على ارتباط العمل الفنى بصاحبه أو مراعاة العصر الذى قيل فيه ، وإنما ينظر إلى الفن فى ذاته ، وعلى هذا فإذا كان المتنبى قد أخطأ فى هذه الكنية مع وجود نظائر فى موروث السابقين حكمنا على الكل بالخطأ دون تمييز [١] .

وقبل أن نناقشه فى اعتراضه على دفاع الجرجانى نقول ان ذلك الأصل النقدى الذى يدعو الى انسلاخ الأدب والأديب عن عصره أمر ليس من الميسور الاقرار له به اذ فيه شىء من المصادرة على الأذواق المتغيرة والمتطورة ، فما يقبله عصر ليس بلازم أن يفرض قبوله على عهد آخر قد تتغير فيه ألوان الحياة والثقافات وتختلف تبعا لذلك الأذواق " أما البحث فى جمال العبارة أو العمل أو عدم جمالها فينبغى ألا يقتصر على النظر فيما عمل ، أو قيل ، أشريف هو أم خسيس ، بل يجب أن ينظر أيضا فى القائل أو الفاعل ، ومن قيل أو فعل له ، ومتى ، ولم " [٢] .

وأما مناقشته للجرجانى ففى حاجة إلى تعليق ، ذلك أن القاضى حينما يلتمس وجها لما وقع فيه المتنبى قد لا يكون غايته فقط مجرد القياس على النظائر ، فليس هذا من باب النقد ، وانما يذل محاولته ودعا إلى فهم المعنى ، والترفق به والتماس شتى الاحتمالات الممكنة والتى قد تدخل تحت مقاصد الشاعر وهو من أجل ذلك يستخدم اسلوبا يهيمنه يؤثره ، ولا ينبغى أن يفهم هذا على أنه دليل عجز من الشاعر بل قد يكون امارة اقتدار ، وبخاصة مع أمثال المتنبى لما عرف به من تمكن فى الأدب واللغة بالاضافة إلى الطموح والرغبة فى الابتداع والخروج عن المألوف ، ليس فى ميدان الصورة وحدها ، بل تخطى ذلك إلى ما ليس فى الامكان اقراره عليه ، دون أن يكون ذا اتصال مباشر بحديثنا الآن .

وقد وجد ابن سنان تفاوتا واختلافا بين بيت المتنبى والأبيات التى قاس عليها القاضى فان استعارة ابن أحمر فى قوله :ـ ولهَتْ عليه كلُّ مُعْصِفةٍ ... الى آخره

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٠ ، ١٢١ ..
(٢) كتاب أرسطوطاليس فى الشعر نقل أبى بشر متى ابن يونس مع ترجمة د. شكرى عياد ص ١٤٤ .

لها وجه من القبول لجريان العادة بها على العكس من استعارة المتنبي [1] وفي ذلك عود إلى ما وقع فيه من الاضطراب على الاستعارات التي بنيت على غيرها .

و أعتقد ان القاضي كان أعدل حينما التمس للمحدثين بعض الوجوه و يظل رفض ابن سنان لهذا المبدأ دليلا على التحفظ الشديد الذي ما زال حتى القرن الخامس مسيطرا حتى إنه لا يكاد يعترف بما تمليه العصور من تطور . وعلى الأديب ألا يتخلف . بل عليه أن يواكب و له أن يتفوق بإبداعه إلى آفاق قد لا تقع لإدراكها عقول ماضية .

و تبلغ بنا الدهشة مداها حين يعترض على الجرجاني في حمله مراد المتنبي في قوله : " قلوب الطيب " على قوله : " لو كان الطيب ذا قلب " و يرى أن ذلك ليس بتقدير يسوغ استعارة المتنبي . إذ أن هناك فرقا . لأن أحدهما قد جعله واجبا و الآخر ممتنعا ليس فيه أكثر من الغرض الذي يعلم من فحوى اللفظ أنه لم يقع .

و لا يخفى ما في مثل تلك التفرقة من تهافت يكاد يصل إلى حد السذاجة . فأي وجوب يفهم من جعل القلوب للطيب . أهو وجوب الواقع المشاهد . أم وجوب المستحيل . فان كان مراده الأول سلمنا قياده له . و تلزمه تهمة القول به . و إن كان الثاني . سقطت التفرقة أصلا . و سلم التماس القاضي و استشهاده على تلك التفرقة ببيت البحتري :-

فلو أنَّ مشتاقاً تكلف غير ما في طبعه لمشى إليك المنبرُ

و بجنسيه لو كان قال - إن المنبر مشى إليك[2] . و لا فرق بين الاستعمالين في المآل فمشي المنبر ممتنع في كليهما . و إن دل على الامتناع بأداة ظاهرة في البيت . و اكتفى بدلالة العقل و الحمل على الاتساع في غيره . و من هنا لن ننظر في نقد بيت المتنبي على أنه قد أوجب للمسرة قلوبا على الحقيقة . فذلك لا يقول بمثله إلا غير عاقل . و نحن نبرئ المتنبي في أن يقع في مثل ما اتهم به . دون أن يلزمنا ذلك التسليم العام بما قال به لكن ليس من الوجوه التي أوخذ بها .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٠ .
(٢) السابق ص ١٢٢ باختصار .

و يستمر ابن سنان فى المناقشة ، فيقر اصلا آخر ذا أهمية لكثاره المترتبة على المكنية مفصلا بقياس المجاز .

و مع انه غير متكر لهذا الاصل الا أن له رأيا واضحا و صريحا فيه ، فهو لا يقر بمبدأ جواز القياس على المجاز حتى إنه لا يحق للشاعر أو غيره الاتيان بالمجاز بالبناء على مجاز آخر ، نجد ذلك فى سياق رده على القاضى فى اعتذار من جعل المتنبى للزمان فؤادا لأنه قابله بها فى صدر البيت و هو قوله :-

تجمعت فى فؤاده همم

قال ابن سنان فى ذلك الرد على توجيه الجرجانى معترضا " لان مقابلة اللفظ باللفظ على ما أراده مجاز ، و المجاز لا يقاس عليه " (١) .

و قد يفهم من موقفه هذا جانب المحافظة أو كل التضييق على الأدباء ، و على كل فان ايضاحه لمقصوده ربما أعان على الوصول الى حقيقة مذهبه تجاه تلك المسألة اذ انه صرح بأنه ينبغى أن ينظر فى استعمال مثل هذا على ما يكون له وجوه معهودة و ليس يسوغ فى كل موضع ، فهو بهذا لا يطلق الحكم بالحظر أو الاباحة ، و قد قاس ذلك على مسألة حذف المضاف و اقامة المضاف اليه مقامه فهو جائز مع موضع دون موضع بحسب ما يتفق مع فهم المقصود و زمان اللبس و الاشكال (٢) .

ثم يعقب على تبرير الجرجانى جعل المتنبى للزمن فؤادا ، و انما اعان على ذلك تسامح الشعراء فى استعمال نحو تلك الأوصاف للدهر ، و لكن ابن سنان يرفض هذا لان الخطأ لا يسوغ الخطأ ، و ان الحمل على السابق لا يفيد ، و هنا نتساءل : هل المقصود مجرد الحمل فقط ، أم ان المراد ان كثرة وصف الشعراء للدهر و توسعهم الى حد التواطؤ يمكن أن يؤدى الى شىء من المقاربة المعينة على الفهم و استجابة النفس و انفعا لها بعناصر الصورة .

و الظاهرة اللافتة فى بعض الدراسات النقدية المتقدمة ما يمكن أن تصف

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٢ .
(٢) السابق ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

بالتحكم ، ذلك انا نلاحظ ان ابن سنان في الوقت الذي لا يقبل من الشاعر أن يأتي بصور قديمة لها في مجال الأدب سوابق يعيب على الشاعر الاتيان بصور لم يكن لها نظائر و لم تجر بها عادة .

و لا يكتفي بما مضى من مناقشات مسهبة حول تخريجات الجرجاني ، بل يعيب عليه أيضا اعتذاره عن استعارة أبي تمام للدهر اخدعا : يقول ابن سنان في ذلك: " و قوله فيما بعد ان أبا تمام قال : يا دهر قوم من أخدعيك فقد ، فكأنهم رأوهم قد استجازوا ان ينسبوا اليه الجور و الميل وقالوا : قد أعرض عنا و أقبل على فلان ، و جفانا ، و الميل و الاعراض انما يكون بانحراف الاخادع ، و أزورار المنكب ، كلام لا يعفي عن أبي تمام شيئا لأنا قد ذكرنا ان الاستعارة اذا بنيت على استعارة قبحت وبعدت ، و الواجب أن تكون لها حقيقة ترجع اليها بلا واسطة ،و اذا كان الأمر على هذا ، وكان قولهم عن الدهر قد اعرض عنا واقبل على فلان استعارة و مجازا بغير شك ، لم يحسن أن نجريه مجرى الحقيقة ، و نبني عليه أمرا بعيدا حتى نجعل للدهر أخدعا لاجل قولهم ، انه قد أعرض عنا و انحرف .

ويقال للقاضي أبي الحسن : هل تجوز لبعض المحدثين أن يبني استعارة أخرى على الأخدع في الدهر لان أبا تمام قد استعمل ذلك ، و يبني غيره على قول هذا المحدث استعارة أخرى بعيدة و يؤول الى ما لا نهاية له (1) .

و الملاحظ أن تمسك ابن سنان بمسألة البناء على المجاز الى هذا الحد و احتكامه إليه في تقبيح الاستعارة فيه نوع تحكم ، ذلك أنه لا ينبغي أن ينظر إلى هذا الاساس على أنه حتما يفضي الى إلبعد بين الاستعارة و أصلها ، بل قد يكون من دواعي التقريب كذلك .

وقد أعقب ابن سنان مناقشاته لأبي الحسن بذكر طائفة غير قليلة من شواهد المكنية مع تحليله الكاشف عن وجوه الحسن أو القبح فيه محتكما إلى المقاييس التي ارتضاها .

---

(1) سر الفصاحة ص ١٢٣ .

فمما استحسنه قول السرى الموصلـــى :ـ

عليلةُ أنفاسِ الرياحِ كأنمــا ... يُعلُّ بماءِ الوردِ نرجسُها النَّدى
يَشقُّ جُيوبَ الوردِ في شَجَراتِه ... نَسيمٌ متى يَنظُرْ إلى الماءِ يَبْرُدِ

و قد ذكر فى إيضاحه للاستعارات قوله : " و استعمال العلة فمنها كنايــة عن الضعف و الخفوت و قلة الحركة على وجه التشبيه بالمريض " (١) و لا يخرج هــذا عن الأصـل الذى أقام عليه المتأخرون إجراءهم للمكنية . إذ يقولون فى مثــل ذلك :ـ شبهت الرياح باعتبار الحالة التى هى عليها بمريض و حذف المشبه بــه و رمـز إليه بشئ من لوازمـه :ـ

و أما ما استقبحه منها فكثــير .... من نحو قول أبى تمام :ـ

و كم أحرزت منكم على قبح قدّهــا
صروفُ النوى من مُرْهَفٍ حسنِ القَدِّ

فان استعارة القد لصروف النوى من أبعد ما يقع فى هذا الباب وأقبحه . و إنمــا يقود أبا تمام إلى هذا و أمثاله رغبته فى الصنعة حتى كأنه يعتقد أن الحسن فــى الشعر مقصور عليها . فيورد منه لأجل التكلف ما لا غاية لقبحه و يسعفه الخاطر فــى بعض المواضع . فيأتى بالعجائب و الغرائب " (٢) .

كما أورد احدى استعارات أبى تمام المشهورة و التى كانت مسار تجاذب بيــن النقاد و ما زالت كذلك حتى الآن و هى قوله : لا تسقنى ماء الملام ...... البيت و قد أورد كلام الصولى فى تخريج تلك الاستعارة معترضا عليه بما هو قريب من موقــف الآمدى متخذا من اعتذار أبى القاسم أساسا يمكن أخذ هذه الاستعارة عليــه فقال و أما اعتذاره بأن العادة الجارية أن يقال : جرعته من القول كأســا أمــرا فلما استعمل فى الملام التجرع على الاستعارة جعل له ماء على الاستعارة، فلعمرى إن هذا أقرب ما يعتذر به لأبى تمام فى هذا البيت . و أولى من جميع ما قد ذكر لمــا

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٦ .
(٢) السابــق ص ١٢٥ .

قدمناه من فساد التعلق بذلك ، لكنا قدمنا أن الاستعارة إذا بنيت على استعارة بعدت ، وإن اعتبر فيها القرب فهذا الكلام ليس بقريب وإن لم يعتبر فيها لم ينحصر وبنى على كل استعارة واستعارة . وأدى ذلك إلى الاستحالة والفساد على ما قدمناه ، وليس هذا البيت عندي بمحمود ولا من أقبح ما يكون في هذا الباب "(1) .

ويبدو ابن سنان في هذا البيت أكثر اتزانا واعتدالا ، مع أن الاستعارة فيه لم تلق استجابة أو قبولا من عموم النقاد في القديم والحديث مع أنه كان أقسى في الحكم والاتهام مع استعارات أخرى قد تكون أقل بعدا وأقرب إلى التماس المعاذير ووجوه التخريج .

ومن واقع ما سبق يصبح من الميسور القول إن الدراسة التي قام بها ابن سنان في سر الفصاحة متصلة بالأسلوب الذي اصطلح عليه فيما بعد بالكناية تعد من أهم وأوسع الدراسات حولها إلى عصره ، لكنه لم يعمد إليها عرضا تقعيديا اصطلاحيا وإنما تناولها عرضا أدبيا نقديا يبين أثرها في صناعة الأديب من واقع نماذج عديدة لها للمستقبح منها والمستحسن محتكما في التقدير إلى عديد من الأصول التي عنى بها ، ولا يضره أن اتفقنا معه في بعضها في حين ناقشناه في أغلبها ، فذلك لا يقلل من أثره الحقيقي على هذا الباب على طريق الدراسة الأدبية البلاغية النقدية التطبيقية .

---

(1) سر الفصاحة ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

الباب الثاني

المكنية من عبد القاهر الى السكاكي

الفصل الاول :
تطور دراسات أساليب المكنية على يد عبد القاهر وأثره على العلماء بعده .

الفصل الثاني :
المكنية على طريق التطبيق والتحديد الاصطلاحي .

الفصل الثالث :
الرجوع بصور المكنية الى لروح الدرس الادبي .

" الفصـــل الاول "

تطور دراسات أساليب المكنية على يد عبد القاهر ت ٤٧١ هـ
وأثره على نشأة المذاهب حولهـــا

وصلت أساليب المكنية إلى الامام عبد القاهر ومعها عديد من المشكــلات التى صاحبت مراحل بحثها المختلفة على تفاوت الطوائف التى درست لديهـــا فقد ظلت دون معالم واضحة مميزة ، إن لم تهمل أصلا •

فقد عولجت فى ظل مصطلحات شتى "١" ، فهى لون من التوسع أو مجـــاز أو مثل ، وهى لون من البديع أو الكناية ، وغاية ما وصلت إليه أن أطلق عليهـــا استعارات وأن قرنت بوصف البعيدة كثيرا •

وكان وراء كل تلك الاستعمالات مشكلة أو مشكلات بعضها يرد إلى طبيعـــة المرحلة وظروف البيئة المتناولة لها ، وأكثرها نتاج خصومات أدبية ونقدية •

ومن هنا تأتى الأهمية الكبرى لدراسة عبد القاهر ، إذ بحث تلك الأساليـــب على نهج جديد هجر فيه الأحكام العامة ، وسلك الأسلوب العلمى الباحث عـــن التفاصيل المدرك للفروق والفواصل مع الارتقاء بالذوق المفيد بما طرأ عليه من عوامـــل الرقى الفكرى والثقافى والاجتماعى •

وكل هذه الخصائص والسمات قد ظهرت آثارها على تناوله لمسائل البلاغـــة بعامة لكنها قد تجلت أكثر ما تكون فى موضوع الاستعارة بما يشهد بفضله على هـــذا الباب وأثره العميق على ما كتب فيه بعده •

والمهم أن عبد القاهر قد تناول أساليب التخييلية مميزا لها ومشيدا بها ومشيـرا إلى طريقة المكنية كما عرض لعديد من المسائل البلاغية والنقدية المتصلة بها •

بلاغة الاستعارة :ـ

كثيرا ما يشيد عبد القاهر بفن الاستعارة مبينا شرفها وفضلها ومبرزا بلاغتها وخصائصها .

يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني (وهي أَمَدُّ ميدانا وأَشَدُّ افتنانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا ، وأوسع سعة ، وأبعد غورا وأذهب نجدا في الصياغة وغورا من أن تجمع شعبها وشعوبها . نعم وأسحر سحرا وأملأ بكل ما يملأ صدرا ويمتع عقلا ويؤنس نفسا ، ويوفر أنسا وأهدى إلى أن تهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال وعنى بها الكمال . ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا)

ثم يذكر أن من خصائص اللفظة المستعارة أنها تستخدم في عدة مواضع ولها في كل موضع فائدة أو فوائد فضلا عن كونها (تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ) ولكن أي نوع من الاستعارات هو المراد بهذا التقدير والثناء ولا ريب في أن ضروب الاستعارة على اختلافها تحقق تلك المزايا أو أكثرها وإن كان عبد القاهر يضيف إلى ما سبق بما يكاد يختص بصور المكنية والتخييلية إذ يقول : (وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة ، ومعها يستحق وصف البراعة وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها حلاها ، وتقصر عن أن تنازعها مداها ، وصادفتها نجوما هي بدرها ، وروضا هي زهرها ، وعرائس ما لم تعرها حليها فهي عواطل وكواعب ما لم تحسنها فليس لها في الحسن حظ كامل ، فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى تراها العيون " (١)

وفي الدلائل ينبه إلى فضل تلك الاستعارات وامتيازها عن الضرب الأول الذي يقصد به عنده التصريحية بقوله : (وليس هذا الضرب دون الضرب الأول في إيجاب

---

(١) أسرار البلاغة جـ ١ ص ١٣٦

وصف الفصاحة للكلام . لا بل هو أقوى منه فى اقتضائها . والمحاسن التى تظهر به . والصور التى تحدث للمعانى بسببه آنق وأعجب (١) كما كانت هى مواده من الاستعارة التى أشاد بها مع التشبيه والتمثيل . (٢)

ذلك تقدير عبد القاهر للاستعارات بهذا الفن (وهو تقدير رجل يتذوق فنون البلاغة . ويضع كل فن فى مكانه ويدرك قيمة الاستعارة فى رسم الإحساس وتصوير الخاطر . (٣))

ولا ينبغى أن يحمل حديث عبد القاهر هنا على أنه مجرد إطراء على طريقة علمائنا السابقين حين كانوا يقدمون أو يذيلون معظم موضوعات بحوثهم بأمثال تلك العبارات ترغيبا وتشويقا فإنَّ الأمر بالنسبة للاستعارة وبالذات صور المكنية والتخييلية قد يختلف ذلك أن إشادة الجرجانى بتلك الصور إنما ترجع بالاضافة إلى القيمة الفنية لها إلى أنه قد وجد فيها مُعينا على نصرة كثير من أفكاره وآرائه التى بسطها بعد أن آمن بها وأراد التدليل على صدقها كما سيتضح .

جهود عبد القاهر على طريق التحديد والتقسيم والتمييز :

لم يكتف الجرجانى بمجرد التنويه وإبراز قيمة الاستعارة بل كان وراء ذلك جهود حقيقية تناولت حدودها وضروبها والتمييز بينها فارقا بين التحقيقية والتخييلية مشيرا إلى طريقة المكنية . دون أن يعنى ذلك استعمال الشيخ لتلك المصطلحات اذ هى لم تعرف — فيما نعلم — قبل الفخر الرازى على ما سيأتى مفصلا فى موضعه إن شاء الله وإنما القصد أن الإمام قد أشار إلى الطريقة ومعنى هذه الاستعارات .

حدود الاستعارة : وهل تتناول المكنية والتخييلية ؟

ورد لعبد القاهر أكثر من تعريف للاستعارة فى الأسرار والدلائل فهو يقول فى الأسرار (اعلم أن الاستعارة فى الجملة أن يكون لفظ الأصل فى الوضع اللغوى

(١) الدلائل ص ٤١٢ (٢) أسرار البلاغة جـ ١ ص ١٢٠
(٣) من أعلام العرب . عبد القاهر الجرجانى د . احمد بدوى ص ١٩٤

معروفا . تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية) (١) .

وهذا التعريف لا يختلف عما سبق به الرمانى .

فالاستعارة عند الرمانى إنما يعرفها بقوله (الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة) (٢) فإننا نلاحظ أن هذا التعريف لا يستوعب التخييلية والتى لا يتصور فيها النقل أصلا كما يصورالجرجانى وسنبينه، وأيضا لا تدخل فيه المكنية .

وفى الدلائل يعرف الاستعارة بقوله (فالاستعارة أن تريد تشبيه الشئ بالشئ فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجئ إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه) (٣)

وظاهر أن هذا التعريف أيضا لا يعم أقسام الاستعارة بل لا يشمل سوى التصريحية وهذا ما لاحظه عبد القاهر حين وجد قسما آخر من الاستعارة يختلف عن نحو استعارة الاسد للشجاع مع أن السابقين قد خلطوا بين الضربين ومن هنا دعت الحاجة إلى التقسيم وبيان الفروق .

تقسيم الاستعارة إلى تحقيقية وتخييلية :

أشار عبد القاهر إلى هذا التقسيم فى الدلائل وبسطه فى الأسرار فبعد أن ذكر الاستعارة المفيدة وقيمتها البلاغية قسمها قسمة عامية وقال فى بيان هذه العمومية (ومعنى العامية أنك لا تجد فى هذه الاستعارة قسمة إلا أخص من هذه القسمة وأنها قسمة الاستعارة من حيث المعقول المتعارف فى طبقات الناس وأصناف اللغات وما تجد وتسمع أبدا نظيره من عوامهم كما تسمع من خواصهم وقد نظر فى هذه القسمة إلى اللفظ المستعار لأنه إما أن يكون اسما وإما أن يكون فعلا (فإذا كان اسما فانه يقع مستعارا على قسمين . أحدهما أن تنقله من مسماه الأصلى إلى شئ آخر ثابت معلوم فتجريه عليه وتجعله متنا ولا له تناول الصفة مثلا للموصوف)

---

(١) الاسرار جـ ١ ص ١٢٣
(٢) النكت للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٨٥
(٣) الدلائل ص ١٠٦

ثم يوضح عبد القاهر القسم الثاني بقوله (أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعا لا يبين فيه شئ يشار إليه ، فيقال هذا هو المراد بالاسم والذى استعير له وجعل حقيقة لاسمه الاصلي ونائبا منابه ومثاله قول لبيد :—

وَغَدَاةِ رِيحٍ قَدْ كَشَفْتُ وَقِرَّةٍ   إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

وذلك أنه جعل للشمال يدا ، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه كاجراء الاسد والسيف على الرجل فى قولك : انبرى لى أسد يزأر ، لأن معك فى هذا كله ذاتا ينص عليها .

وترى مكانها فى النفس إذا لم تجد ذكرها فى اللفظ وليس لك شئ من ذلك فى بيت لبيد بل ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك من غير أن يكون هناك شئ يحس وذات تحصل (١)

وهذا الضرب الثاني ما عرف عند المتأخرين بالتخييلية التى هى قرينة المكنية وإذا كانت الاستعارة تنقسم إلى هذين الضربين فما الفرق بينهما ؟

بذل الإمام عبد القاهر جهدا حقيقيا فى إيجاد الفروق المميزة لكل من الضربين ومنها :—

أولا : (أنك فى الأول تجعل الشئ للشئ ليس به ، وفى الثاني تجعل للشئ الشئ ليس له) يوضح ذلك (أنك إذا قلت رأيت أسدا فقد ادّعيت فى انسان أنه أسد وجعلته إياه ، ولا يكون الانسان أسدا ، وإذا قلت : إذ أصبحت بيد الشمال زمامها فقد ادعيت أن للشمال يدا ومعلوم أنه لا يكون للريح يد) (٢)

ويشير أحد الباحثين إلى فكرة الادعاء التى قال بها عبد القاهر هنا مشيدا بها بقوله (وفكرة الادعاء هذه دقيقة لأنه سيترتب عليها فيما بعد أن الاستعارة عمل عقلي وسيمد ذلك فى جميع الصور البيانية) (٣)

---

(١) الاسرار جـ ١ ص ١٣٨
(٢) الدلائل ص ١٠٦
(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٧٤

ثانيا : (أنك إذا رجعت في القسم الأول إلى التشبيه الذى هو المغزى من كل استعارة تفيد ، وجدته يأتيك عفوا ... وإن رمته فى القسم الثانى وجدته لا يواتيك تلك المواتاة إذ لا وجه لأن تقول : (اذ أصبح شيء مثل اليد للشمال أو حصل شبيه باليد للشمال ، وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه ستراً ، وتعمل تأملا وفكرا وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحذو الاول كقولك إذ أصبحت الشمال ولها فى قوة تأثيرها فى الغداة شبه المالك تصريف الشيء بيده وإجرائه على موافقته وجذبه نحو الجهة التى تقتضيها طبيعته وتنحوها إرادته فأنت كما ترى تجد الشبه المنتزع هنا إذا رجعت إلى الحقيقة ووضعت الاسم المستعار فى موضعه الأصلى لا يلقاك شبه المستعار نفسه ، بل ما يضاف اليه » (١)

ويفهم من هذا الفرق أن الاستعارة التخييلية والمكنية فى نظر عبد القاهر (أبلغ من الاستعارة التصريحية لما فيها من إعمال الفكر وقوة التأمل) (٢)

وبعد أن يجرى هذا الوجه من الفروق على قول زهير :

« وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُهُ »

يرى إمكان الاجراء على التصريحية بأن يقول «إن الأفراس عبارة عن دواعى النفوس وشهواتها وقواها فى لذاتها أو الأسباب التى تعتل فى حبل الصبا وتتمر جانب الهوى) وإن كان عبد القاهر يرجح الاحتمال الأول ، ويرى فى الوجه الثانى شيئا من التكلف بل ربما يجيء مالا يتصور معه الحمل على التصريحية (فانه ربما خرج بك إلى ما يضر المعنى وينبو عنه طبع الشعر وقد يتعاطاه من يخالطه شيء من طابع التعمق فنجد ما يفسد أكثر مما يصلح) (٣)

ويفرع عبد القاهر على هذا الاصل فى الفصل والتمييز خطأ من يصرون دائما على أنه لابد فى كل اسم يستعار

---

(١) الاسرار ج ١ ص ١٤٠
(٢) الصور البيانية د . حفنى شرف ص ٢٧٩
(٣) الاسرار ج ١ ص ١٤١

أن يكون هناك شيء يمكن الإشارة اليه على حد استعارة النور للهدى . مما يوقعهم في التشبيه . وكأن الجرجاني يرى في التخييلية خلاصا من هذا الخلط الذي يقدح في التوحيد وسيأتي من يأخذ هذه الفكرة عن عبد القاهر . (١) أو من يطبقها بتوسع على كثير من أي القرآن الحكيم بحيث تعم آيات اشتهرت على أنها تمثل ألوانا بلاغية أخرى (٢)

ثالثا : وجه آخر في التفرقة ذلك أن وجه الشبه يكون موجودا في المستعار له مع التصريحية دون التخييلية يقول الإمام عبد القاهر (وطريقة أخرى في بيان الفرق بين القسمين وهو أن الشبه في القسم الأول : وصف موجود في الشيء الذي له استعرت واليد ليست توصف بالشبه ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها ، ويحصل له بها موهي التصرف على وجه مخصوص .

وكذا قولك أفراس الصبا ليس الشبه الذي استعرت له الافراس موجودا في الأفراس بل هو شبه يحصل لما يضاف إليه الأفراس حيث يراد الحقيقة نحو قولنا عري أفراس الغزو — وأجمعت وذلك ما يوجبه الفعل الواقع على الافراس نحو أن .وقوع الفعل الذي هو عري على أفراس خيل الجهاد لغزو يوجب الامساك عن الغزو والترك ، وعلى هذا القياس" (٣)

رابعا : يزيد عبد القاهر في الدلائل أمرا آخر وهو أن التخييلية لا يتصور فيها تقدير النقل مطلقا حيث يقول (واعلم أن في الاستعارة ما لا يتصور تقدير النقل فيه البتة وذلك مثل قول لبيد وغداة ريح ... ويقول (لا خلاف في أن اليد استعارة ثم إنك لا تستطيع أن تزعم أن لفظ اليد قد نقل من شيء إلى شيء وذلك أنه ليس المعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكنك أن تزعم أنه نقل لفظ اليد اليه " (٤)

وواضح من تقسيم عبد القاهر والفروق التي أبداها أنه يعني من الضربين ما عرف بالتصريحية والتخييلية وأن التخييلية عنده أن تجعل الشيء للشيء ليس له

---

(١) نهاية الايجاز ص ١١٢
(٢) بديع القرآن لابن ابي الاصبع ص ٢٣ وما بعدها .
(٣) الاسرار ج ١ ص ١٤٣
(٤) الدلائل ص ٣٩٤

بخلاف التصريحية . اذ هى جعل الشئ الشئ ليس هو . (ولعل فى قول عبد القاهر فى حديثه عن هذا النوع (الضرب الثانى) من الاستعارة وذلك كله لا يتعدى التخييل والتوهم ما سوغ للمتأخرين تسميتها بالتخييلية " (١)

وهذا التقسيم عند الامام يجرى فى الاستعارة إذا كان اللفظ المستعار اسما أما اذا كان اللفظ المستعار فعلا فانه يقول : والذى يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات شئ كما يتصور فى الاسم ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذى اشتق منه لشئ فى الزمان الذى تدل صيغته عليه واذا كان الأمر كذلك فاذا استعير الفعل لما ليس له فى الأصل فانه يثبت باستعارته له وصفا هو شبيه المعنى الذى ذاك الفعل مشتق منه " (٢)

وكلام عبد القاهر يعنى أن وصف الفعل بانه مستعار حكم يرجع إلى مصدره الذى اشتق منه . فاذا قلنا فى (نطقت الحال) إن نطق مستعار فالمعنى إن النطق مستعار وإذا كانت الاستعارة تنصرف إلى المصدر فإن التشبيه يجرى أولا بين المصدرين ويستعار المصدر المشبه به للمشبه .

ويستخلص من ذلك أن عبد القاهر يجرى الاستعارة فى نحو نطقت الحال — وكلمتنى عيناه فى الفعل استعارة تصريحية تبعية لوجود معنى يستعار له دون أن — يجريها فى القرينة مكنية .

وبهذا يكون عبد القاهر قد أشار إلى الاستعارة التصريحية بنوعيها الأصلية والتبعية كما أشار إلى الاستعارة التخييلية التى هى قرينة المكنية (٣)

إشارات عبد القاهر إلى طريقة المكنيـــة :

وإذا كان الجرجانى قد بسط القول فى معنى الاستعارة التخييلية وأفاض فى التفرقة بينها وبين التصريحية فإن الأمر بالنسبة للمكنية قد يختلف إذ لم يزد الامر

---

(١) صور من تطور البيان العربى ص ١٨٧ ، ١٨٨

(٢) الاسرار جـ ١ ص ١٤٤

(٣) البلاغة القرآنية د . ابو موسى ص ١٥٩

معها عن إشارات إلى طبيعتها فى مواضع من كتابيه وإن كانت فى مجموعها تكاد أن تكون قريبة الشبه وما عرفت به عند أكثر المتأخرين مع أنها جاءت فى أحاديث تبعا لبيان منشأ التخييلية مما أوقع بعض المحدثين فى لبس وخلط على ما سيأتى .

فمن إشاراته فى الدلائل ما قاله فى سياق تدليله على عدم تصور النقل فى التخييلية (وذلك أنه ليس المعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكنك أن تزعم أنه نقل لفظ اليد إليه وإنما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال فى تصريفها الغداة على طبيعتها شبه الانسان قد أخذ الشىء بيده يقلبه ويصرفه كيف يريد فلما اثبت لها مثل فعل الانسان باليد استعار لها اليد " (١)

ومن إشاراته أيضا ما قاله وهو بصدد اثبات أن من الاستعارات ما لا يكون المستعار فيه اللفظ ابدا من مثل يد الشمال لعدم وجود ما يستعار له . يقول عبد القاهر (وإنما المعنى على أنه شبه الشمال فى تصريفها الغداة على طبيعتها بالانسان يكون زمام البعير فى يده ، فهو يصرفه على إرادته ولما اراد ذلك جعل للشمال يدا " (٢)

هذا ما أشار به الجرجانى ، أو بعضا منه إلى الكنية فى الدلائل وقد لاحظنا أن عباراته ولو بشىء من التعديل تلتقى مع مفهوم الكنية على المشهور فيها .

وفى الأسرار يذكر عبد القاهر أن جعل الشىء للشىء ليس له يكون نتيجة تشبيه ما صار الشىء له بالذى كان له على الحقيقة . أى تشبيه الشمال التى جعلت لها اليد بالمدبر المتصرف يقول الجرجانى (ليس لك أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبر المصرف لما زمامه بيده ومقادته فى كفه . وذلك كله لا يتعدى التخييل والوهم والتقدير فى النفس من غير أن يكون هناك شىء يحس وذات تحصل " (٣)

ولعل الخطيب وجد فى هذا الكلام مستندا لرأيه الذى قال به فى المكنية ومعه الفرق بينها وبين التخييلية حين يقول فى حديثه عن بيت لبيد وغداة الريح إلى آخره

---

(١) الدلائل ص ٣٩٤ (٢) السابق ص ٤١٣ (٣) الاسرار ج ١ ص ١٣٩

وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق اليه سترا وتعمل تأملا وفكرا وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحد الأول كقولك إذ اصبحت الشمال ولها فى قوة تأثيرها فى الغداة شبه المالك فى تصريف الشئ بيده .

ويُلمح عبد القاهر إلى التمييز بين التخييلية والمكنية بقوله فأنت كما ترى تجد الشبه المنتزع ههنا إذا رجعت إلى الحقيقة ووضعت الاسم المستعار فى موضعه الأصلى لا يلقاك من المستعار نفسه بل بما يضاف إليه - الشمال - ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشمال كاليد كما جعلت الرجل كالاسد . ولكنك أردت أن تجعل الشمال كذى اليد من الأحياء فأنت تجعل فى هذا الضرب المستعار وهو نحو الشمال ذو شئ وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشئ لا نفس ذلك الشئ فاعرفه " (١)

فعلى كلام عبد القاهر يكون الشمال مستعارا له وهو لم يذكر المستعار لأنه مطوى فى الكلام وإن عُبِّر عنه بقوله كذى اليد (وهذا ما دعا جمهور المتأخرين إلى تسميتها بالاستعارة المكنية أو بالكناية لأن لفظ المستعار فيها مخفى أى ملابس للخفاء " (٢)

ذلك حديث عبد القاهر عن التخييلية وهذه اشارته الى المكنية وقد وقع بعض المحدثين فى خلط حين لم يميزوا بين حديثه عن كل منهما فنقل بعضهم بعض كلامه عن التخييلية على أنه دليل على معرفته بالمكنية او اهتدائه إليها .

فقد أشار أحد الباحثين إلى تقسيم عبد القاهر الاستعارة إلى الضربين اللذين تحدثنا عنهما حاملا مراد عبد القاهر من الضرب الثانى على الاستعارة المكنية (٣) مع أن كلام عبد القاهر فى هذا الوضع بالذات لا يتصل بالمكنية وليس فيه إشارة إليها بل يتناول التخييلية فقط . (٤)

---

(١) الاسرار ج ١ ص ١٤١
(٢) صور من تطور البيان العربى ص ١٨٨
(٣) ينظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٤
(٤) ينظر الدلائل ص ١٠٦

وباحث آخر يجهد حديث عبد القاهر عن الاستعارة فى يد الشمال بما ينصب على الكنية فقط ثم يعقب بذكر الاستعارة بالكناية ورتب على ذلك حكما خاصا بها (١)

ولشيوع استعارة لبيد فى الاستعارة المكنية التبس الأمر على باحث آخر كذلك حين اقتصر على نقل كلام عبد القاهر فى استعارة اليد وأنها ليس لها مستعار له ليرتب عليها أن الجرجانى قد اهتدى إلى المكنية (٢) دون أن يتعرض للإشارات الخاصة بالمكنية •

وقد بدت عناية عبد القاهر بأمر التقسيم والفصل بين التخييلية والتحقيقية فى الأسرار أوضح منها فى الدلائل مما دفع أحد الباحثين إلى أخذ ذلك دليلا على أسبقية الدلائل للأسرار من حيث التأليف » (٣)

وعندى أن اختلاف المعالجة لا يصلح دليلا أو على الأقل لا يجوز أن يكون هو الدليل •

وما نلاحظه من اختلاف فى المنهج مرده فى الحقيقة إلى اختلاف الغايات التى عمد إليها فى الكتابين (ومعنى ذلك أنه عرض فى الدلائل للصور البيانية لا يعرض بحثها بحثا وإنما لإثبات أنه يطبق عليها فى النظم ومعانيه الإضافية ما يطبق على العبارات الحقيقية (٣)

ونستطيع أن نستخلص من كلام عبد القاهر فى التقسيم والتمييز الحقائق التالية :

أولا : أن كلا من الأسد فى قولنا : رأيت اسدا واليد فى نحو يد الشمال : استعارة أو مستعار •

ثانيا : أن كلمة الأسد منقولة إلى شىء ثابت محقق أجريت عليه وعنى بها وهو الرجل الشجاع وأما اليد فلم تنقل إلى شىء محقق حسا أو عقلا فى جانب الشمال بحيث يمكن أن ينص عليه أو يشار إليه •

---

(١) ينظر الصور البيانية د. حفنى شرف ص ٣٧٩
(٢) عبد القاهر الجرجانى • د • احمد بدوى ص ١٩٨
(٣) المرجع السابق ص ١٩٧ (٤) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٣

ثالثـا : ان كلا من الرجل الشجاع والشمال مستعار له فالرجل الشجاع مستعار لـه الاسد والشمال مستعار له اليد .

رابعـا : ان المستعار فى مثل "يد الشمال" لا يوصف بوجه الشبه بل يوصف بـه ما أضيف إليه ، وهو الشمال .

خامسـا : إن ثمرة كلام عبد القاهر ومغزاه أوحى الى بعض المتأخرين تقسيم الاستعارة إلى تحقيقية وهى التى قصدها من الضرب الاول . وإلى تخييلية وهى التى أرادها بالضرب الثانى لانهمـا تخيل أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها - مثلا - شبيهـا بالمصرف المدبر لما زمامه بيده ولما كانت استعارة اليد للشمال لاتتأتى إلا بعد استعارة ذى اليد على الحقيقة للشمال بنى بعض المتأخرين على ذلك ما عرف بالمكنية وجعلوا التخييلية رمزا لها (١) كما سيأتى التفصيـل فى المذاهب المختلفة فى الباب التالى لكنا نشير إلى أن الباحثين يكادون - يجمعون على أن مذهب الخطيب يعد أقرب مذاهب المتأخرين إلى فهم كـلام عبد القاهر وتأويل مراده . (٢) على تفصيل ومناقشة ومقارنة نرجئها إلى حيث الحديث عن مذهب الخطيب .

" المكنية والتمثيـل "

أشار عبد القاهر إلى أن التمثيل الذى يكون على حد الاستعارة قسم من أقسام المجاز (٣) كما أجاز اطلاق التمثيل على الاستعارة فى المفرد اذا كان الشبه فيهمـا عقليا . (٤)

ولكن هـل لاساليب التخييلية والمكنية دخل فى هذا الاطلاق ؟

ذكر عبد القاهر فى سياق تدليله على فضل التمثيل وبيان أثره ببيت نصيب :

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَـهُ ... وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبـًا

(١) محاضرات فى البيان أ . د . يوسف البيومى ص ١٧٨ ، ١٧٩

(٢) ينظر البلاغة القرآنية ص ١٦٠ ومحاضرات فى البيان ص ١٧٥ وهامش الاسرار ص ٣٣٤ جـ١ وصور من تطور البيان العربى ص ١٨٩

(٣) الدلائل ص ٤٦ (٤) المرجع السابق ص ٤٣

وقد أفاد أن المزية غير عائدة فقط إلى الإيجاز فيه (بل لأن أراك العزم واقعا بين العينين وفتح الى مكان المعقول من قلبك بابا من العين . (١)

وعبارة الإمام فيها من الاتساع بما لا يقطع معه الحمل على وجه معين مع أن الأسلوب فى ذاته يجرى على الكناية وقد علق الاستاذ المحقق بأن فى البيت استعارة بالكناية مبنية على تمثيل (٢) من غير أن يبين مراده بالبناء على التمثيل لكنه سبق وأن أجرى هذا البيت على الكناية كما هى عند المتأخرين فاثناء عرضه للضرب الثانى من التمثيل الذى يبرز المعنى فيه باختصار ملاحظا أن اعتبار هذا الوجه فى التمثيل يتناقض مع ما سبق من جعل عبد القاهر التمثيل قسما من التشبيه ثم يحاول التماس بعض العذر بان الجرجانى كان فى بدء تدوين البلاغة فلم تكن أصولها قد تقررت كما تقررت بعده وخلص من ذلك إلى أن التمثيل لا يكون أخص مطلقا من التشبيه كما ذكر عبد القاهر أولا بل يكون بينهما العموم والخصوص الوجهى (٣)

ويتصل بذكر التمثيل رأى أبداه الاستاذ المحقق حيث ذهب إلى أن عبد القاهر قد تكلم عن الكناية فى الأسرار وحلل أساليبها لكنه يرى ردها إلى التمثيل موضحا وجهته ومدللا بما يفتقر إلى بسط ومناقشة نعرض لها تفصيلا فى موضعها الأنسب و لنجتزئ منه هنا ماله اتصال مباشر بأمر عبد القاهر فمما استدل به أن المشبه فى الكناية لا يمكن أن يكون ذاتا أو شبه ذات ينص عليه أو يشار إليه وأن المشبه به فى مثل: يد الشمال ليس هو اليد التى ذكرها لبيد فى بيته بل هو ما أضيف إليه اليد . (٤)

ومما استدل به كذلك أن فى رد هذا الاسلوب إلى الاستعارة المكنية تكلفا كثيرا مما وقع فيه عبد القاهر ومن تبعه . (٥)

ونود هنا أن نشير إلى أن هذا الرأى ليس جديدا كل الجدة بل له أصل فى التراث البلاغى وسنقف عليه فى موضعه من هذا البحث ثم إن هناك أمورا لا ينبغى

---

(١) الاسرار ج ١ ص ٢٤٤
(٢) هامش المصدر السابق
(٣) ينظر المصدر السابق ص ٢٣٢ ، ٢٣٣
(٤) الاسرار ج ١ ص ٥٩
(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ١١٨

اغفاله وهو أن عبد القاهر لم يتناول الكتية كمصطلح على ما سبق، كما أنه لم يبسط القول على نحو محدد وقاطع فى الكتية وإلا لما كان هذا الشقاق الذى تولد وكان منشؤه اختلاف المتأخرين فى تأويل مراد عبد القاهر.

وربما كان الاستاذ الباحث يقصد التخييلية كما ينبئ عن ذلك أدلته فضلا عن كونها هى التى أفاض فيها عبد القاهر ثم إننا وإن كنا لا ننكر أمر التكلف إلا أن مرده فى الحقيقة إلى تعسف بعض البلاغيين المتأخرين وتمسكهم الصارم بالقواعد والحدود وانصراف كل منهم إلى تأكيد مذهبه دون مراعاة الجانب الفنى للون البلاغى مع أن الرد الى التمثيل لا يخلو هو الآخر من تكلف لعل منه عدم استيعابه لأفراد أمثلة الكتية كما يقول الاستاذ نفسه .

من قضايا التخييلية والمكنية :

وكما تناول عبد القاهر الاستعارة التخييلية إيضاحا وتمييزا اشارة الى طريقتها فقد عرض كذلك لكثير من الأحكام والمسائل المتصلة بها ، ومنها :

قرب الشبه وخفاء التشبيه :

لا يرى عبد القاهر أن كل تشبيه يصلح لأن يحول إلى استعارة (وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل تناوله . ويكون فى الحال دليل عليه . وفى العرف شاهد له حتى يمكن المخاطب اذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت . (١)

ومذهب عبد القاهر هذا هو مذهب العرب .

وعلى ذلك جرى النقاد والبلاغيون قبل عبد القاهر كالآمدى فى الموازنة (٢) والقاضى الجرجانى فى الوساطة (٣) وأما المرزوقى فقد جعل مناسبة المستعار فيه للمستعار له صلب عمود الشعر ومعيار جودته (٤) وكذلك من إستحسن من العلماء

---

(١) الاسرار جـ ٢ ص ٦٨، ص ٦٩
(٢) الموازنة جـ ١ ص ٢٥٠
(٣) الوساطة ص ٢٧
(٤) الخصومات البلاغية والنقدية ص ١٢٠

الاستعارات الجيدة كابن وقيع إشترط ألا توقع فى لبس وإبهام، فحسن الاستعارة إذن يكون بمقدار ما بين المستعار منه والمستعار له من التقارب والتماثل وتصور الجمع بينهما فى الذهن ولذلك كان الأدب المسمى بالرمزى بعيداً عن البلاغة لأن الالفاظ تستعمل كثيرا فى معان يصعب إدراك الصلة بينها وبين المعانى الأولى لهذه الألفـــاظ . (١)

وإذا كان المقصود من اشتراط القرب فى الشبه الوضوح والبعد عن الغموض فينبغى ألا يقصر الوضوح فيها على ما هى عليه فى ذات الأمر وإنما ما يحصل ولو بمعونة القرائن المرشدة والدالة كذلك . على أن اشتراط عبد القاهر القرب فى الشبه لا ينافى أن الاستعارة كلما ازداد خفاء التشبيه فيها ازداد عمقا وبلاغة . ولعل هذا يبرر اعجاب عبد القاهر الشديد وتقديره للاستعارات التخييلية والمكنية .

التخييلية والمكنية بين النقل والعقـــل : [illegible]

اختلف البيانيون حول عد الاستعارات مجازا لغويا بمعنى ان التصرف الذى يحدث فيها يكون بتغير فى دلالة الألفاظ ونقلها من معانيها الأصلية واستعمالها فى معنى آخر فيكون تصرفا فى دلالة اللفظ أو هى مجاز عقلى بمعنى أن التصرف الذى يحدث فيها هو تصرف عقلى بحت لا دخل للغة فيه ولا نقل للالفاظ عن معانيها إلى غيرهـــا . (٢)

واذا اتضح المراد فكيف كان موقف عبد القاهـــر ؟
كثيرا ما لاحظ الباحثون اختلاف مذهب الجرجانى فى الدلائل عنه فى الاســــرار ، فبينما يعبر فى الدلائل على اعتبار التجوز فى الاستعارة تجوزا عقليا ونفى الشبه ويرد على من يخالفه يقرر فى الأسرار فى مواضع أن التجوز فى الاستعارة عن طريق اللغة والنقل الأمر الذى اخذ على أنه نوع من التضارب او التناقض او التراجع وان لاحظ بعض الباحثين محاولة عبد القاهر التوفيق (٣)

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٥
(٢) ينظر الافصاح ص ١٥٣
(٣) ينظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٤ ص ١٩٣ ، ص ٢١٧

ولئن صح أمر التقارب عند عبد القاهر أو اتسع عقلنا لفهم محاولتـــــه في التوفيق فستبقى التخييلية بمنأى عن هذا الاختلاف ، فرأى عبد القاهر الإمـــام فيها قاطع لا يقبل الجدل .

يقول عبد القاهر : اعلم أن في الاستعارة ما لا يتصور تقدير النقل فيه وبعد أن استشهد ببيت لبيد قال (لا خلاف في أن اليد استعارة ثم إنك لا تستطيع أن تزعم أن لفظ اليد قد نقل من شيء [1] ويقول مثل ذلك في موضع آخر [2] (فـــانا نفى عبد القاهر النقل في أسلوب الاستعارة نفيا باتا مطلقا فهو يعني الاستعـــارة المعروفة أخيرا بالتخييلية) [3]

ويظهر من هذا أن ما سيأتي من أن السكاكي يعتبر قرينة المكنية استعارة ـــ تصريحية تخييلية قد أصر عبد القاهر على نفيه واستحالته (ولا يمنع رفض عبد القاهر واعتباره مستحيلا أن يكون السكاكي قد تأثر به) [4]

وأما عن المكنية فقد أشار أحد الباحثين إلى أن عبد القاهر يرى أن الاستعـــارة بالكناية لا يظهر فيها النقل [5] بناء على تعليقه على بيت لبيد في الدلائــــل وقد نوقش بأن مراد عبد القاهر الاستعارة التخييلية إذ هي التي لا يتصور النقل فيها عنده ، وأما المكنية فلا يفهم أنه ينفي النقل ألبتة عنها بعد أن صرح بأن الشمـــال في بيد (الشمال) مستعار له فيها وإنما مرد اللبس إلى شهرة بيت لبيد فـــى الاستعارة بالكناية ثم إن الاعتماد على نفي النقل على أنه ليس هناك شيء يراد من اليد ولم يقل أحد إن اليد فيها استعارة بالكناية [6]

وإذا جاز لنا أن نعتبر ما ذهب إليه الخطيب أقرب المذاهب إلى رأي عبـــد القاهر وفهم روح كلامه وإشاراته يصبح من الأوفق فيما أرى أن تكون المكنية عنـــد

---

(١) الدلائل ص ٣٩٤
(٢) ينظر المصدر ص ٤١٢
(٣) صور من تطور البيان العربي ص ١٩٨
(٤) البلاغة القرآنية ص ١٦٢
(٥) ينظر البيان د . طبانة ص ٢١٦
(٦) ينظر صور من تطور البيان العربي ص ١٨٩

عبد القاهر من التجوز المعنوي على ما هي عليه عند الخطيب [١] شأن التخييلية عندهما وسيتضح هذا الأمر اكثر عند تناول مذهب الخطيب في المكنية والتخييلية تفصيلا إن شاء الله .

بين اللفظ والمعنى والنظم :

وقضية اللفظ والمعنى وإلى أيهما توجع المزية قد فتلت بحثا في القديم والحديث ليس في الأدب العربي فحسب إنما هي مشكلة الأدب جميعا . وعلى كثرة ما قيل فيها إلا أن ذلك لم ينتج قولا فصلا . فالبعض يميل إلى اللفظ ويرى فيه الحسن والقبح وآخرون يؤثرون المعنى ولا ينظرون إلى غيره وفريق ثالث يرى فوق الأمرين شيئا اخر ينبغي ان ينسب اليه الفضل وهو النظم ولكل رأى دوافعه وحججه وغاياته كذلك وان كان - فيما أقدر - معظم جوانب تلك المسألة مختلقة أو مبالغا فيه . ولو قدر لكل ذي رأى التعرف على حقيقة الاتجاه الآخر وتبصره في موضوعية معتبرا ملابساته ومراميه لحد ذلك كثيرا من الجدل المثار وإن لم يلغه تماما لاختلاف الأذواق والعقول والمعارف .

ويبدو أن عصر عبد القاهر كان أكثر ميلا إلى إيثار اللفظ فقد رأينا ابن سنان الخفاجي يجعل الاستعارة من أوصاف اللفظ [٢] ومن هنا يفسر موقف عبد القاهر على أنه رد فعل منعكس ليتهم بأنه كان يؤثر المعنى تارة أو النظم تارة أخرى على حساب اللفظ .

فما حقيقة موقف عبد القاهر على ضوء معالجته للاستعارة ؟

ألح الجرجاني كثيرا على أن الحسن والقبح في الاستعارة ليس مرده إلى اللفظ فليس له في ذلك نصيب [٣] لكنه كان يقصد اللفظ من حيث هو لفظ مفرد [٤] وانما مرد الفصاحة فيها إلى المعنى . لعل المصور كان اكثر جلال

(١) ينظر مختصر السعد على التلخيص ص ٢٨٨
(٢) سر الفصاحة ص ١٠٨
(٣) اسرار البلاغة ج ١ ص ١١٢
(٤) ينظر الدلائل ص ٩٠ ، ٣١٠

وعبد القاهر وإن طبق رأيه هذا على بعض أمثلة التصريحية إلا أنه قد وجد بغيته في شواهد المكنية والتخييلية فقد أخذ يتناول عديدا من شواهد هذا الضرب مؤكدا على عدم تصور الفصاحة معه إلا باعتبار المعنى •

يقول عبد القاهر : ثم إن (من الاستعارة قبيلا لا يصح أن يكون المستعار فيه اللفظ البتة ولا يصح أن تقع الاستعارة فيه إلا على المعنى) وبعد أن أوضح مراده على استعارة لبيد ذكر أن هذا الضرب لا يقل شأنا عن الضرب الأول (التصريحيـــة) بل هذا أقوى في اقتضاء الفصاحة ثم قال : (وإن أردت أن تزداد علما بالذي ذكرت لك من أمره فانظر إلى قوله : (سقته كف الليل أكؤس الكرى) وذلك أنه ليس يخفى على عاقل أنه لم يرد أن يشبه شيئا بالكف ولا أراد ذلك في الأكؤس ولكن لما كان يقال • سكر الكرى وسكر النوم استعار الكرى للأكـــؤس كما استعار الآخـــر الكأس في قوله (وقد سقى القومَ كأسَ النعسة السهـــرُ) ثم إنه لما كان الكرى يكون في الليل جعل الليل ساقيا ولما جعله ساقيا جعل لـــه كفا إذ كان الساقي يتناول الكأس بالكف) •

ثم أتى بمثال آخر قال إنه من النادر اللطيف في هذا الباب ليشرحـــه بمثل ما مـــر • (١)

وعبد القاهر وإن أثبت الميزة للاستعارة من حيث معناها لكنه لا يقصد المعنى المفرد إذ لا قيمة له عنده إلا من خلال النظم (٢) الذي شرح مراده منـــه مرارا (٣) ومطبقا على بعض شواهد الاستعارة في بعض آي القرآن ونماذج مـــن الأدب •

يقول عبد القاهر تعليقا على بيت المتنبي :

غَضِبَ الدَّهْرُ والمُلُوكُ عَلَيْهَا ... فَبَنَاهَا فِي وَجْنَةِ الدَّهْرِ خَـــالا

---

(١) ينظر السابق ص ٤١٣ وما بعدها •
(٢) ينظر الدلائل ص ٣٥٩ وما بعدها •
(٣) المصدر السابق ص ٩٣

قد ترى فى أول الأمر أن حسنه اجمع فى ان جعل للدهر وجنة وجعل البنية خالا فى الوجنة . وليس الأمر على ذلك فإن موضع الأعجوبة فى أن أخرج الكلام مخرجه الذى ترى وأن أتى بالخال منصوبا على الحال من قوله (مبناها) أفلا ترى أنك لو قلت وهى خال فى وجنه الدهر لوجدت الصورة غير ما ترى (١)

فالاستعارة عند عبد القاهر جزء من النظم وليس سر جماله بل النظم فى الواقع سر جمالها ولذلك فهو يرفض أن نجعل الاستعارة الاصل فى الأعجاز لأن هذا يؤدى إلى أن يكون الاعجاز محصورا فى آى معدودة فى مواضع من السور الطوال وإذا امتنع ذلك لم يبق إلا أن يكون فى النظم . (٢)

ولعل من أبرز الاسباب التى كانت وراء الحاح عبد القاهر الدائم على أمر النظم أنه كان يهدف إلى إيجاد حد من التوازن أمام نظريتين متقابلتين نظرية اللفظ ونظرية المعنى فبذل جهده لينفى الأمرين وليثبت ثالثا رآه مدار الفضيلة وإن لوحظ أحيانا ميله إلى المعنى لكن ليس إلى الحد الذى يصوره بعض المحدثين (٣)

فهو لم يغفل اللفظ تماما فهو يقول مثلا: إن تفضيل الكلام بالنظر لمعناه يبطل قضية الإعجاز والنظم الذى رد إليه عبد القاهر الاعجاز لا يكون باللفظ فقط ولا بالمعنى فقط وإنما يكون بهما معا . فهو يقول (لو كان النظم وصفا للفظ وحده دون المعنى لكان ينبغى ألا يختلف حال اثنين فى العلم بحسن النظم! فعبد القاهر لا يخالف الجاحظ وعبد القاهر لا يمثل جانب المعنى وحده (٤)

وعلى كل حال فإن عبد القاهر بمحاولته الجادة تلك قد ملأ فراغا حقيقيا كثيرا ما أوخذ النقد العربى بفقدانه حين اتهم بعض المحدثين رجال النقد العربى والبلاغيين العرب بأنهم قد انصرفوا تماما إلى الجزئيات دون أن يعنوا بالصور الكلية (٥)

---

(١) السابق ص ١٣٥
(٢) ينظر الدلائل ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ط. المنار
(٣) ينظر البيان العربى ص ٢٢٤
(٤) ينظر صور من تطور البيان العربى ص ٢٠٨
(٥) ينظر التصوير الفنى فى القرآن سيد قطب ص ٣٠ وما بعدها

وإن كان هذا الاتهام يمثل حقيقة إلا أنه يهمل طبيعة النموذج المعالج وخصائصه كما انه يغفل بعض الجهود التي بذلت من عبد القاهر ومن أسلافه الذين أخذ عنهم وبنى على إشاراتهم إلى أن جاء الزمخشري فأحسن التطبيق وأجاد فيه على آي القرآن الكريم إلى أن جدت مرحلة أخرى خالفت في المنهج بدأت بعصر السكاكي وشاعت عند تلامذته وعصور الشروح والحواشي حيث أهملت فكرة عبد القاهر وانصرفت الجهود إلى ناحية التدقيق العلمي والتقعيد ووضع الاصطلاحات والحدود المانعة الجامعة إلى إن كان العصر الحديث وتبعا لعوامل كثيرة ومختلفة بدأ النقد يتجه إلى ما سبق أن نادى به الإمام (١)

تأثر عبد القاهر بالسابقين :

لا ريب في أن عبد القاهر قد اطلع على التراث العربي وأفاد منه إفادات واضحة، وفي باب الاستعارة خاصة تشهد معالجته لكثير من نصوصها باطلاعه على ما كتب السابقون إلى حد النقل عن بعضهم أحيانا كالآمدي والقاضي الجرجاني . وعلى هذا فلم تكن القيمة الحقيقية لأثر الجرجاني في الاستعارة في أنه ابتكر ضروبها واقسامها وطرق الفصل بينهما على ما قيل (٢) إذ أن هناك فيما سبق اشارات ولو على وجه ما، وانما الفضل الحقيقي في أنه بسط وأفاض في أمر هذا التقسيم والتمييز مع التحليل العلمي الأدبي بما لم يسبق إليه ومن هنا (لم ترجع عظمة جهود عبد القاهر في دراساته البلاغية إلى إشاراته الى اصول التقسيمات والتعليلات فحسب وإنما ترجع أيضا إلى هذه التحليلات المتأنية التي يبسط فيها وجه التجوز ويتحدث فيها عن العلاقات بين الاشياء وكل ما ذكره عبد القاهر في دراسة الاستعارة يصلح شاهدا على قدرته البالغة في فهم النص وتذوقه وتحليله .

وعلى كل حال فتأثر الجرجاني بالسابقين عليه او المعاصرين له واضح سواء اكان بطريق مباشر أم غير مباشر إيجابا أو سلبا .

---

(١) ينظر الميزان الجديد د . مندور ص ١١٧ والديوان للعقاد والمازني جـ ٢ ص ٣٣
(٢) ينظر صور من تطور البيان العربي ص ٢٠٤

فقد ضاق النقاد برأى ابن سنان الذى أوردناه وهو أن بناء الاستعارة على غيرها مما يجعلها بعيدة مطرحة أو على الأقل يجعلها دون الجيدة البليغة[١]

أما عبد القاهر المعاصر لابن سنان فقد عرض لتلك الصورة التى هوّن أمرها ابن سنان وهى وصف امرىء القيس لطول الليل واصفا لها بالحسن .

يقول عبد القاهر (ومما هو أصل فى شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصدا إلى أن يلحق الشكل بالشكل وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد مثل قول امرىء القيس فقلت له لما تمطى البيت لما جعل لليل صلبا قد تمطى به بنى على ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب . وثلث فجعل له كلكلا . قد ناء به فاستوفى جملة أركان الشخص وراعى ما يراه الناظر من سواده إذا نظر قدامه وإذا نظر الى خلفه وأذا رفع البصر ومده فى عرض الجو[٢]

فما عده ابن سنان عيبا عده عبد القاهر من دواعى الحسن والروعة ولم يقتصر على دعواه بل عللها بما يقربها إلى الاذهان والقلوب وبمقارنة ما قاله عبد القاهر تعليقا على تلك الاستعارة وما قاله الآمدى قبله ما يظهر التشابه فى المعالجة بينهما (فى المنزع والروح وإن لم يكن تقليدا ولا محاكاة)[٣]

وقد سبق أن تحدثنا عن بعض جهود ابن رشيق قبل الكناية بما اتضح معه أنه لم يكتف فيهما بالمثال كما يرى أحد الباحثين[٤] وإن افتقدنا معه التحديد التام والتمييز الدقيق والتحليل المستفيض الذى عرضنا طرفا منه عند عبد القاهر معاصره وكما أن ابن رشيق جعل الاستعارة أصل المجاز وأول أبواب البديع[٥] جعلها عبد القاهر كذلك من أبرز ألوان المجاز كما هى عنده من البديع .

---

(١) ينظر سر الفصاحة ص ١١٢ وما بعدها
(٢) الدلائل ص ١١٦
(٣) البلاغة القرآنية ص ١٦٣ ، ١٦٤
(٤) ينظر عبد القاهر واثره ص ٣٨١
(٥) ينظر العمدة جـ ١ ص ٢٦٨

الاستعارة من البديع عند الإمــام :

جعل عبد القاهر الاستعارة من البديع فارقاً إياها بالتطبيق (١) ليلتقي وعموم سلفه لكن على اعتبار خاص إذ شرط أن تكون مفيدة مبنية على التشبيه مع رده الحسن فيها وألوان البديع الأخرى إلى المعنى .

هل تأثر عبد القاهر في درس الاستعارة بالثقافات الوافدة ؟؟

وقضية تأثر عبد القاهر بالثقافة غير العربية وعلى وجه أخص بالفلسفات الإغريقيـــة قضية مثارة وقد توارد عليها الباحثون وتجاذبوها بين مثبت وناف مع ذهاب البعض إلى محاولة التوفيـــق .

على أن هناك أمراً ينبغي التنبيه إليه وهو التفرقة بين إطلاع عبد القاهـــر على تلك الثقافات وتأثره بها أياً كان وجه ذلك التأثر وبين النقل بما ينفي الأصالـة عن البيان العربي . فنحن لا نستطيع بل ولا ينبغي الزعم بعدم اطلاع عبد القاهـر على ألوان الثقافة الوافدة ومنها الفلسفة الاغريقية إذ ليس لنا من دليل قاطع على ذلك ومن هنا فلا أرى ضرورة تدعو إلى التخوف ونستجلب الإصرار على النص بل الأجـدى افتراض اطلاع الجرجاني على شتى المعارف المتاحة في عصره مع الإفـادة منهـا وإن لم يكن في صورة مباشرة بما لا يعني حتما النقل عن بلاغات أخرى تنفي معـه أصالة البلاغة العربية ولكن رجح بعض الباحثين النقل عن ارسطو في الاستعارة (٢) أو قطع البعض بذلك (٣) وإن لم يكن هناك دليل حاسم على الترجيح فضلا عن القطع بالأخذ عن أرسطو مما دعا باحثا آخر إلى ترجيح عدم انتفاع عبد القاهر بما كتبه ارسطو بل وعدم اتصاله بما كتبه أصلا . (٤)

والموازنة بين بعض ما كتبه ارسطو في الاستعارة وما كتبه الجرجاني يكشف عـن بعض التشابه بينهما بما مرده في الحقيقة إلى تماثل العمل الفني قبل بعضها لخصائص

---

(١) الاسرار ج ١ ص ١١٢

(٢) من الوجهة النفسية أ . د خلف الله احمد ص ١٠٩

(٣) مقدمة نقد النثر طه حسين ص ٣٠

(٤) عبد القاهر الجرجاني د . احمد بدوي ص ٣١٢ وما بعدها .

فمن ملامح منهجه أنه يريد أن يصل إلى وضع القوانين الشاملة وبيان الأقسام في كل شيء وذكر الفروق بين العبارات ويرى في ذلك فائدة لا تنكر وسار على هذا النهج في الاستعارة فذكر منها لونين مبينا في إيضاح الفرق بين هذين اللونين من أساليب التعبير وتنهجه في دراسته للاستعارة يتضح أيضا في إبراز الذوق الأدبي وتنميته عند القارئ (١) والدارس نتيجة لكثيرة مثله وتحليله الذوق لها .

والواقع ان البيان العربي لم يظفر بمثل هذا الاسلوب التحليلي الذي فيه مثل هذا البحث العميق والاستقصاء الدقيق فيما يخص موضوع الاستعارة في آية مرحلة من مراحل حياتها الممتدة دون أن يهمل القاعدة أساسا للدراسة فقد أنفق عبد القاهر جهودا كثيرا في محاولته الاقناع بأن أمر الاستعارة إنما يفهم على وجهه الصحيح من خلال النظم والتركيب وكذا محاولته إثبات أن طريق الاستعارة العقل وبالذات التخييلية . وأيضا سحب المزية والحسن أو التقبيح عن اللفظ .

وهنا ملاحظة لابد من إبدائها ذلك أن بعض الاستعارات لابد وأن ينظر في الحكم فيها إلى اعتبار اللفظ وإلا فبماذا نفسر قبح استعارة مثل رجل البين ورقاب الوصل ورياض الهوى مع أن لتلك الاستعارات معاني عميقة ويلاحظ أيضا تفريق عبد القاهر أحاديث التخييلية والمكنية بين الدلائل والأسرار الأمر الذي كان وراءه صعوبة حقيقية في إيجاد رباط دقيق يجمع أطراف هذا البحث على نحو متكامل وأيضا تكريره للضوابط والحدود وعدم الأخذ بالتحديدات الجامعة المانعة مما مهد الطريق أمام تعدد التأويلات والتفاوت في حمل مراده حين قصد البلاغيون المتأخرون إلى التحديدات ووضع المصطلحات الفاصلة . وكان من نتائج ذلك الاضطراب الواضح في معالجة المكنية والتخييلية كما سنفصل في الباب الثاني .

كما نلحظ أنه خص التصريحية ببعض مباحثه العميقة مثل الفصل الذي عقده لبيان كون الاستعارة تعتمد التشبيه أبدا (٢).

---

(١) محاضرات في تاريخ البلاغة العربية د . عبد الرحمن الكردي ص ٣٤

(٢) الاسرار ص ١٤٨

التي تشترك فيها اللغات بطبيعتها (فليس من ينكر أثر الصياغة وخاصة الاستعارة في استقرار المعنى في الأنفس استقرارا أكثر منه بدون الاستعارة .

وإذا رجعت إلى ما ذكره عبد القاهر من أسباب جمال الاستعارة وجدته قد ذكر كثيرا من هذه الأسباب من غير أن يذكر بينها الاستغراب والتعجب والهيبة والاستعظام) على ما يقول به أرسطو (١) ولو أنه نقل عن أرسطو لأضاف تلك الأسباب إلى ما ذكره وأشار إلى مصدرها كما هو دأبه مع من يأخذ عنهم وليس في ذلك مايضيره .

ومما يرجح عدم النقل أن ضروب الاستعارة عند عبد القاهر وتقسيمها إلى تخييلية وتحقيقية يخالف ما عند أرسطو . ثم إن هناك أمرا أساسيا سبقت الإشارة إليه كثيرا وهو أن أرسطو قد أخرج صور المكنية من الاستعارة وأدخلها تحت (وضع الشيء تحت العين ، أو نصب العين) .

ومما سبق يظهر أن القول بعدم اتصال عبد القاهر أو اطلاعه على ماكتب أرسطو مبالغ فيه وفي ذات الوقت فإن القول بتأثره إلى حد النقل أكثر مبالغة وبعدا عن الموضوعية وإنما الأمثل أنه لا مانع من اطلاع عبد القاهر لكن بعيدا عن كل تقليد أو محاكاة .

خصائص منهج عبد القاهر في معالجة أساليب الكتابة :

لا ريب أن عبد القاهر كان صاحب منهج خاص ومتميز وقد بدت ملامحه واضحة في معالجته لموضوع الاستعارة .

وكل ذي طريقة في البحث متفردة لابد أن يكون للناظر عليها ملاحظات لكنها لا تؤثر قط في كون عبد القاهر إماما للبيان العربي غير منازع .

---

(١) السابق ص ١١٧ ومن الوجهة النفسية د . خلف الله احمد ص ١١٣

هذا بالاضافة إلى ما نلحظه من أن عبد القاهر لم يعن العناية الكافية فيما أرى بالشاهد القرآني في مجال الاستعارات التخييلية والمكنية . إذ نراه يغفل جملة من أجَلِّ شواهدهما وانشغاله الدائم باثبات أمر النظم واقتصاره في التطبيق غالبا على نماذج أدبية سبق وأن توارد على معظمها السابقون .

واما انتفاع الجرجاني بأبواب النحو والاستعانة بها في إثبات أمر النظم فلا أرى فيه مأخذا . (١)

إذ لم يكن من اليسير أن يشرح عبد القاهر نظريته من غير اعتبار لموضوعات النحو وهي في حقيقتها قائمة عليها . بل ربما كان صنيع عبد القاهر واستخدامه النحو والتوفيق بينه وبين مسائل البلاغة من أبرز حسناته التي ضيعها من بعده المتأخرون حين فصلوا بين مسائل العلمين فصلا مصطنعا (فصار النحو جافا لا روح فيه) على النقيض مما كان عند عبد القاهر ولم تكن البلاغة هي الأخرى أحسن حالا .

ومما سبق يتضح أن تناول الشيخ عبد القاهر للاستعارة لم يكن تناولا نظريا تقريريا كما ذكر أحد الباحثين المعاصرين . (٢)

فقد عرض لها الشيخ على ضوء ثقافاته وعلى هدى من ذوقه وحسه مستعينا بفكره الناقد فهو يحلل الأساليب ويصل الى الفروق في التصوير بين أسلوب وأسلوب ومن هنا رأيناه يبين الفرق بين طريق الاستعارة التي عرفت بعده بالتصريحية وبين طريق الاستعارة التي عرفت بالتخييلية بيانا شافيا ووجدنا بعض الإشارات إلى طريق الاستعارة المكنية كما عرض لكثير من المسائل والقضايا المهمة التي تتصل بهذا الفن وهذا يصحح دون ريب ما سبقت الإشارة إليه من أن دراسات عبد القاهر لتلك الأساليب يعد في ذاته مرحلة مهمة هذا فضلا عن الآثار الحقيقية لتلك الجهود والتي بدت في دراسات العلماء بعده فقد ذهبوا في فهم كلامه وتأويل مراده مذاهب شتى ومن هنا تعددت الآراء واختلفت المذاهب .

---

(١) ينظر اثر القرآن د . كامل الخولي ص ١٧٩ ، ١٨٠

(٢) الصورة الادبية د . مصطفى ناصف ص ١١٧

الفصـــل الثانى

المكنية على طريق التطبيق والتحديد الاصطــلاحــى

المبحـــث الاول :

=============

فـــى الكشـــاف للزمخشـــرى

المبحـــث الثانى :

==============

مـــع الفخـــر الـــرازى

==================

الفصل الثانـــــــــى

المكنية على طريق التطبيق والتحديد الاصطـــلاحـــــى

خرجنا من دراسة المكنية والتخييلية عند عبد القاهر بجملة ملاحظات لعل مــن أبرزها انصراف الجرجانى إلى التنظير اكثر ، إلى جانب أن جهوده فى التحديـــد والتمييز على أهميتها لم تكن من الحسم بحيث تبعد التأويل وتنفى الاحتمال ومن هنا كانت تلك الدراسة فى حاجة إلى جهود أخرى متممة وهذا ما قام به كل من الزمخشرى والرازى ومن هنا افردنا لهما فصلا خاصا عقب عبد القاهر وإن كان هناك اختلاف بين صاحب الكشاف وبين الفخر الرازى

إذ عنى الزمخشرى اكثر بامر التطبيق على آى القرآن الكريم على حين صرف الرازى عنايته إلى التحديد ووضع المصطلحات. لذلك أتناول كلا منهما فى مبحث خاص .

جهود الزمخشرى فى مجال التطبيق والتحديـــد :

يكاد يجمع الباحثون على تأثر الزمخشرى بدراسات عبد القاهر إلى حد التمثل لآرائه التى بسطها فى الدلائل والاسرار وخاصة آراءه فى النظم [1] .فقد رأى الزمخشرى فيها خير وسيلة لتصوير البلاغة القرآنية فأقبل عليها يطبقها فى إفاضــــة واتساع وهذا يحرر توفيقه فى إبراز مسائل المعانى لكنه مضى أيضا فى تطبيق نظريـــة البيان مستندا إلى قوة إحساسه وإدراكه الواعى لخفايا النص وذخائره المكنونــة مبديا إعجابه بالمجاز إلى حد أن جعل الكلام الجارى على سنن الحقيقة عريانا [2]

وكان من الطبيعى اذاً أن يتوسع الزمخشرى فى تطبيقاته على الاستعـــارة مصورا لضروبها المختلفة من تصريحية ومكنية وأصلية وتبعية متناولا ما يتعلق بهــا من قوانين وأحوال .

---

(١) راجع فى ذلك البلاغة القرآنية ص ١٨٨ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٢٠٦

(٢) الكشاف جـ٢ ص ٢٧٧ ط الاستقامة .

ومن ابرز ما اهتم به الزمخشري في الاستعارة ما عرف بالمكنية (وإذا كان اصطلاح الاستعارة بالكناية لم يعرف إلا في كتاب نهاية الإيجاز وهو كتاب كتب بعد الكشاف بما يقرب من قرن فليس لنا أن نقول إن الزمخشري يريد الاستعارة بالكناية إلا على معنى أنه يريد مسمى الاستعارة بالكناية . وحقيقتها لان تسميتها الاصطلاحيه كما قلت لم تكن معروفة في زمانه وقد قلت هذا لان كثيرا من المعلقين على عبارات الزمخشري يفسرونها في ضوء التقسيمات التي تحددت حقائقها واصولها في عصره وتحددت مصطلحات لذلك وجب التنبيه أولا الى هذا اصلا في فهم هذه التعليقات .[1]

ولكن قبل أن نقف على اتجاه الزمخشري قبل تلك الصور بشيء من التفصيل نشير إلى أنه كثيرا ما أشاد بهذا النوع الذي هو من أسرار البلاغة ولطائفها كما يقول وهو يدرك ما في هذه الاستعارة من القدرة على التشخيص والتصوير ويظهر ذلك في شرحه لأساليبها تطبيقا (وعلينا أن نذكر أن التطبيقات في الدرس البلاغي ليست أمرا هينا لأنها هي حياته ونماؤه وتتركز فيها قدرة البليغ ومهارته)[2]

وقد وقع من صاحب الكشاف في أثناء تطبيقاته إشارات وآراء تصلح في مجموعها مضافا إليها ما أثاره من تعليقات وشروح لأن تكون مذهبا معينا لكن في غير التزام دقيق بالمصطلحات مما جعله يدرس بعض أساليب المكنية تحت مصطلحات عديده مازجا بين اكثر من مصطلح أحيانا كما جاءت عبارته محتملة الاجراء على المكنية أو غيرها أحيانا أخرى .

تصوير لمذهب الزمخشري في المكنية :

وربما كانت أبرز تعليقاته تصويرا لمذهبه واستحواذا على مناقشات العلماء بعده ما ذكره بيانا للاستعارة في قوله تعالى " الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ " فان قلت من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد ؟ قلت من حيث تسميتهم العهد

---

(١) البلاغة القرآنية ص ٤١٦
(٢) المصدر السابق ص ٥

فى أن اعتبار قرينة المكنية مرادا بها معنى مجازيا لا ينهض قرينة على المحذوف (فإذا كان النقض مرادا به إبطال العهد فليس هناك ما يدعو إلى اعتبار العهد مشبها بالحبل لأن الكلام حينئذ يكون كلاما مستقيما • إذ التقدير يبطلون عهد الله •

ولذلك فقد حاول بعض العلماء فض هذا الإشكال فالعلامة السيد الشريف يرى (أن هذه الاستعارات من حيث إنها متفرعة على الاستعارات الأخرى صارت كنايات عنها وأن النقض إنما شاع استعماله فى إبطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل فلما نزل العهد منزلة الحبل وسمى باسمه نزل إبطاله منزلة نقضه فلولا استعارة الحبل للعهد لم يحسن بل لم يصح استعارة النقض للابطال • وقس على ذلك استعارة الافتراس والاغتراف فانها تابعة لاستعارة الاسد للشجاع والبحر للعالم فلما كانت هذه الاستعارات تابعة لتلك الاستعارات الاخرى ولم تكن مقصودة فى أنفسها بل قصد بها الدلالة على تلك الاستعارات الأخرى كانت كناية عنها وذلك لا ينافى كونها فى أنفسها استعارات على قياس ما عرفت من أن الكناية لا تنافى ارادة الحقيقة فالافتراس مع كونه استعارة مصرحا بها كناية عن استعارة الاسد للشجاع (١)

ويقول السيد موضحا رأى الزمخشرى فى أن الرادف المذكور لا يشترط فيه إرادة المعنى الحقيقى يقول (فان قلت : لو كان النقض مثلا مستعملا فى إبطال العهد لم يكن شئ من روادف المستعار المسكوت عنه أعنى الحبل مذكورا فلا يصح قوله ثم يرمزون إليه بذكر شئ من روادفه فوجب أن يكون النقض ونظائره من قرائن الاستعارة بالكناية مستعملة فى معانيها الحقيقية التى هى من روادف المستعار المسكوت عنه وحينئذ يكون إثباتها للمستعار له على سبيل التخييل فيصح أن الاستعارة المكنية تستلزم التخييلية ؟ قلت لما صرح باستعمال النقض فى إبطال العهد علم أنه أراد بذكر الروادف ما هو أعم من أن يراد به معناه الأصلى الذى هو الرادف الحقيقى او يراد به ما هو مشبه بذلك المعنى مُنَزل منزلته فإن النقض من روادف الحبل

---

(١) حاشية السيد الشريف ص ٢٠٣

أما إذا أريد به معناه الحقيقي فظاهر وأما إذا أريد به معناه المجازى فلأنه إذا نزل منزلة المعنى الحقيقي وعبر عنه باسمه صار رادفا للحبل أيضا فالرادف على الأول مذكور لفظا ومعنى حقيقة، ومعنى ادعاء وكلاهما يصلحان قرينة الاستعارة بالكناية (١)

وعلى ذلك فقرينة المكنية يجوز أن تكون استعارة تخييلية كما يجوز أن تكون تحقيقية فصاحب الكشاف وإن كان يرى أن قرينة المكنية إثبات لازم المشبه به إلا أنه يقسم اللازم قسمين باعتبار ما اثبت له فالمشبه . إما ان يكون له رديف يمكن ان يستعار له رديف المشبه به أولا ، والثانى مثل يد الشمال فاثبات اليد للشمال قرينة المكنية واستعارة تخييلية والأول مثل ينقضون عهد الله فللعهد رديف هو الابطال يمكن أن يستعار له النقض الذى هو رديف الحبل استعارة تحقيقية والى هذا المعنى اشار السيد الشريف نقلا عن صاحب الكشف: الطيبى حيث قال: وعلى هذا تقول إن الرادف الذى يأتى به قد يكون مالا يستعمل والغرض منه التنبيه فقط كما فى مخالب المنية وقد يكون ما يستعمل ٠ وإن تفرع عن الأول كالنقض والاعتراف ٠٠ فهذا ما يدل عليه كلام جار الله من غير تكلف (٢)

ولكن هل يحمل كلام الزمخشرى فى إجراء قرينة المكنية تحقيقية متى أمكن على الوجوب أو الجواز؟ يشير أحد اساتذتنا إلى الاحتمال الثانى (٣) على حين يصرح الإمبابى بأن صنيع الزمخشرى يشعر بأنه متى أمكن اجراء التصريحية فى الرادف لا يلتفت إلى غيره فيكون كالواجب كما نقل عن العصام قوله (كما يحصل التخييل بجعل النقض استعارة تحقيقية لابطال العهد يحصل بإثباته باقيا على معناه ٠ (٤) ،

ومن صور التعسف فى الفهم ما آثاره بعضهم حول اشتراط الشيوع فى استعمال رادف المشبه به رادفا للمشبه أو عدم اشتراط ذلك وإن كانت المسألة فى ذاتها جديرة بالبحث إلا أن موضع المؤاخذة فى بناء المناقشة على أصل غير صحيح ذلك أنهم

---

(١) حاشية السيد الشريف ٢٠٣
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٤
(٣) محاضرات فى البيان د ٠ يوسف البيومى ص ١٨٥
(٤) حاشية الامبابى على الرسالة البيانية ص ٢٩٥

أداروا مناقشتهم على أن عبارة الزمخشرى (من أين تتاغ إلى آخره) مع أن النص فى الكشاف (ساغ) وعلى كل فإن الامبابى نفى أن يكون الشيوع شرطا فى اعتبار التحقيقية حتى على افتراض وقوع الشيوع فى عبارة الكشاف ويحمل القصد على خصوص الشاهد (١) (ومهما يكن من شىء فان اعتبار الاستعارة فى الرادف يضعف التخييل وتصوير المشبه فى صورة المشبه به وتمثلـه فى الخيـال مصورا بصورته وهذا هـو سر بلاغة المكنية ٠ إذ إنها تكون فى أكثر أحوالها مظهـرا لتصوير الحياة فى الجماد أو تصوير المعانى وتجسيدها ٠ أو تشخيصها كشهيق جهنم وكأظفار المنية ويد الشمال وكفّ اليأس وهذا اللون من التصوير له سحره وتأثيره والذى يعين على ذلك كما قلت هو كون هذه الروادف مستعملة فى معانيها الحقيقية فالافتراس فى قولنا : شجاع يفترس أقرانه يكون أعون على تصويرنا للشجاع فى صورة الأسد وهيئته ما دمنـا غير منصرفين عن معناه الحقيقى الذى هو فعل الاسد أما إذا انصرفت نفوسنا إلى معنى مجازى للافتراس أى شدة القتل مثلا فـان التصور حينئذ يكون قد أضعف فى نفوسنا من الأول وهذا لا يبقـى مايقـرره فقهاء هذا الفن من ان اللفظ المستعمل فى غير معناه لعلاقة المشابهة لايتجـرد من معناه الاصـلى ٠ فلفظ الاسد يصور فى النفس صورة الحيـوان المفترس وان كان منقولا الى الرجل الشجاع) (٢)

وهناك مثال آخر يصور اتجاه الزمخشرى واجراء المكنية ففى آية مريم (واشتعل الرأس شيبا) يوضحها على هذا النحو : (شبه الشيب بشواظ النار فى بياضـه وانارته وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار ٠ ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس وأخـرج الشيب تمييزا فصحت هذه الجملة وشُهِدَ لها بالبلاغـة (٣)

اعتبار الاستعارة فى الفعل تبعيـة :

سيأتى أن السكاكى يخالف البلاغيين فى رده التبعية إلى المكنية واعتباره المكنية فى قرينة التبعية أما الزمخشرى فقد يجرى الاستعارة فى الفعل تصريحية تبعية

---

(١) حاشية الامبابى على الرسالة البيانية ص ٢٩٦ وينظر حاشية الشهاب جـ٦ ص ٢٠٥
(٢) البلاغة القرآنية ص ٤١٧ ، ٤١٨
(٣) الكشاف جـ٢ ص ٢٢٠

فإنه يصرح على هدى عبد القاهر بأن الاستعارة فى الفعل لا تجرى فيه وإنما تجرى فى المصدر يقول تعليقا على آية الكهف : (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) : (استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك) (١) وواضح انه يجعل الاستعارة فى المصادر .

الحمل على المكنية فيما كانت قرينتها اسما :

وإذا كان صاحب الكشاف قد أجرى الاستعارة المكنية مع مجيء قرينتها فعلا كما فى الأمثلة السابقة فقد يصورها أيضا والقرينة اسما كما فى قوله تعالى " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " فقد أورد فى تأويل الآية احتمالين أولهما : ان يكون المراد بالجناح الجانب وأما الثانى فان يُجْعَل للذلة لهما جناحا خفيضا كما جعل لبيد للشمال يدا وللقرة زماما مبالغة فى التذلل والتواضع لهما) (٢)

وقد شعر بشيء من التقصير فى تحليله لمعنى تلك الاستعارة والتى هى من أبدع ما يصور مواقع كلمة الجناح فى صور الاستعارة (فقد جعل للذل جناحا وخيل بذلك أنه ذل محلق فهو ذل فيه شموخ وآباء ويرفع صاحبه ولا يضعه ويعلو به ولا يهبط ويحمله على جناحه خفاقا به حول عرش الرحمن حيث يلتقى بالبررة من خلق الله الذين وصلوا أرحامهم ووطئوا للآباء أكنافهم وخضعوا لهم جناحهم) (٣) إلى شيء من ذلك لم يشر الزمخشرى بل ربما أوحى تقديمه للاحتمال الأول تقديم اعتباره ولو صح لضاعف من أمر اتهامه هنا .

إدراك الزمخشرى لما فى المكنية من قدرة على التصوير والتشخيص

سبقت الإشارة إلى أن الزمخشرى يولى صور المكنية دون غيرها مزيد عناية واهتمام كاشفا عما انطوت عليه تلك الاستعارة من إيحاء وإثارة ومبينا قدرتها على التصوير والتشخيص ويظهر ذلك فى شرحه لعديد من أساليبها يقول فى قوله تعالى

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٧٥
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٤٤
(٣) من اسرار التعبير القرآنى د . محمد ابو موسى ص ١٨

(وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا .) جعل كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ منه ، وهى من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة " (١)

ويمكن ان يقال بيانا للاستعارة على مقتضى كلام صاحب الكشاف انه قد شبه الملح والعذب بباغيين وقد وجد بينهما ما يمنع مجاوزة أحدهما حد صاحبه ثم حذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو البرزخ هنا

ويقول فى قوله تعالى (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ "
(أخذت الارض زخرفها وازينت : كلام فصيح جعلت الارض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا اخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها) (٢)

الاستعارة فى الحرف بين المكنية والتبعية والتمثيليـة :

تحدث صاحب الكشاف عن التجوز فى الحرف (وكان من أوائل من أبرزوا فى دراساتهم هذا البحث) (٣) مع إفادته من بعض اشارات السابقين على نحو ما لاحظنا عند أمثال سيبويه وابن جنى والمبرد . ومعلوم أن الاستعارة فى الحرف كانت محل جدل بين المتأخرين فهل يعد التجوز فى الحرف ذاته او فى متعلقه او فى مدخوله ؟

وعلى كل حال فقد كان للمكنية نصيب فى الاعتبار كما هو صريح بعض المذاهب أو ما تئول إليه مذاهب أخرى على ما سيأتى الحديث عنه مفصلا فى موضعه .

وأما ما يعنينا الآن فهو الحديث عن موقف الزمخشرى وكيفية توجيهه لهذا التجوز وكيف أول العلماء بعده كلامه ونكتفى هنا بمثالين :

الاول : ما ذكره فى قوله تعالى " فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا "
قال (اللام فى ليكون هى لام كى التى معناها التعليل : كقولك جئتك لتكرمنى

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٢٢٦
(٢) المصدر السابق ص ٤١٩
(٣) البلاغة القرآنية ص ٤١٩

سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيهما وارد على طريق المجاز دون الحقيقة لأنهم لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكن للمحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك ضربته ليتأدب .

وتحريره أن هذه اللام حكمها حكم الاسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما يستعار الاسد لما يشبه الاسد) (١)

واجراء التشبيه في العداوة والحزن والمحبة والتبني يظهر أن الاستعارة وما بنيت عليه من تشبيه يجريان في مدخول الحرف على حين .
قوله بعد ذلك : وتحريره ان هذه اللام حكمها حكم الاسد، يقطع بان التجوز في الحرف ذاته على أن له إشارات تفسد اجراء التجوز في مدخول الحرف فقط ومن هنا يصعب الأخذ بالتعميم وأن يقال مثلا إن الزمخشري يمد أطناب الاستعارة التبعية إلى الحرف

فالأمر كما قلت غير قاطع وموضع اختلاف في تأويل عبارته على نحو يتضح أكثر في المثال الثاني وهو قوله تعالى :
أولئك على هدى من ربهم) يقول (ومعنى الاستعلاء في قوله : على هدى مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه ونحوه هو على طريق الحق وعلى الباطل وقد صرحوا بذلك في قولهم جعل الغواية مركبا وامتطى الجهل واقتعد غارب الهوى) (٢)

وقد كانت تلك الآية وتوجيه كلام الزمخشري مجال مناظرة مريرة بين السعد والسيد اذ اخذ السعد محملا على ظاهر قول الكشاف امكان اجتماع التبعية والتمثيلية

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٣٠٩
(٢) الكشاف جـ ١ صـ ١٤٢

ويرد السيد مناقشا ومبطلا ما رآه السعد حاملا ما في الآية على احد ثلاثة اوجه :-

الاول : ان يشبه الهُدى بالمركوب الموصل إلى المقصد ويثبت له من لوازمه من الاعتلاء على طريق المكنية

وأما الوجه الثاني فالحمل على التبعية والثالث الأخذ على التمثيليةعلى تفصيل .(١)

وإن كان أكثر المحققين على مذهب السعد (٢) وقد رجح عبد الحكيم احتمال التبعية في كلام السيد إذ المقصود مدح المتقين بأنهم مستقرون على الهدى ووصفهم بالمبالغة فيه ولا يناسب حمل الآية على المكنية إذ ليس المقصود المبالغة في الهدى لكونه فردا من المركوب (٣)

المكنية مراد الزمخشري بالمجاز :

قسم صاحب الكشاف المجاز إلى قسمين استعارة وتمثيل ويعرض لبعض الآيات الكريمة المحتملة لكلا النوعين موجها الاستعارة بما يجرى على طريقة المكنية عند المتأخرين يقول جار الله في قوله تعالى " ختم الله على قلوبهم " فان قلت ما معنى الختم على القلوب والاسماع وتغشية الابصار ؟ قلت : لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة وإنما هو من باب المجاز ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه . وهما الاستعارة والتمثيل أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحس لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل اعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده وأسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الاصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم وأبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطى عليها وحيل بينها وبين الادراك . (٤)

---

(١) حاشية السيد ص ٢١١
(٢) حاشية الخضري على السمرقندي ص ٨٤
(٣) المصدر السابق ص ٨٥
(٤) الكشاف جـ ١ ص ١٥٥

وواضح أن مراده بالاستعارة هنا ما عرفت عند المتأخرين بالمكنية ، حيث ذكر شبه القلوب والأسماع بأشياء يستوثق منها بالختم فصارت كأنها مستوثق منها كما يقول . (١) وهذا ما جعله السيد أحد الوجوه الثلاثة المحتملة فى شرحه على المفتاح ونقله عنه الخضرى " (٢) وإن كان السعد لا يرضى بهذا الفهم ويقول إنه يريد تشبيه عدم نفوذ الحق إلى القلوب وتحقق نبو الأسماع عن قبوله بالختم عليها أى بكونها مختوما عليها على ما ينبئ عنه قوله (كأنها مستوثق منها بالختم ويشبه عدم اجتلاء الأبصار للآيات والأدلة بالتغشية عليها ثم يضيف: وقد يتوهم من ظاهر عبارة الكشاف أن المشبه هو القلوب والأسماع ومن هنا ذهب بعضهم فى القول الأول إلى أن القلوب استعارة بالكناية والختم تخييل ولا يخفى على من له قدم فى علم البيان أن الاولى ما ذكرنا . (٣)

وأن قوله تجعل القلوب إلى آخره بمنزلة قولك يجعل الحال لكونها دالة على كذا كأنها ناطقة به وأن عبارته ظاهرة فى أن الختم والتغشية مجاز (٤)

وقول الزمخشرى تجعل القلوب لا يصح تنزيله منزلة قولك تجعل الحال لكونها دالة كأنها ناطقة وذلك لأن هذا يكون فى الحال بعد بيان الاستعارة فى نطقت وحينئذ يكون جعلها كأنها ناطقة تبعا لهذه الاستعارة أما أن نقول ابتداء فى نطقت الحال جعل الحال كأنها ناطقة فإنه لا يفهم منه إلا طريق الاستعارة المكنية فإذا كان كلام الزمخشرى خاليا مما يدل على أن التشبيه فى لفظ الختم فليس ما يدعو إلى جعل كلامه عن القلوب والأسماع بمنزلة القول فى نطقت لأنه يأتى هناك تبعا وقد نقل الشهاب الخفاجى كلام سعد الدين وعلق عليه بقوله :" وهو كلام حسن ثم ذكر أصلا يفرق به بين المكنية والتبعية وهو أصل دقيق نعرض اليه فى موضعه إن شاء الله .

وإذا كان كلام صاحب الكشاف يفيد الحمل على طريق المكنية فإن هذا لا يمنع القول بأن الاولى أن تكون الآية من قبيل التبعية إلا أن هذا شىء

---

(١) البلاغة القرآنية ص ٤١٣
(٢) حاشية الخضرى ص ٩٨
(٣) حاشية السعد ورقة ٣٧
(٤) حاشية سعد الدين ورقة ص ٣٦

بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة : يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالا ونحن قاطعوها فنخشى ان الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك ،وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا اليه بذكر الشيء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ،ونحو قولك شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر) (١) وقد علق السيد الشريف على هذا بقوله : يريد بيان الاستعارة بالكناية (٢) على المعنى الذى سبق التنبيه عليه على أن ما في قول ابن التيهان إنما هو استشهاد لاستعارة الحبل للعهد صريحا ثم القطع للنقض (٣) .

ويفهم من نص الزمخشرى أن المستعار هو لفظ المشبه به المحذوف المرموز إليه بشيء من لوازمه كما قال السعد (٤)

وهنا يبدو وجه من وجوه المخالفة بين الزمخشرى وعبد القاهر والذى ينسب الاستعارة أصلا على ما اعتبره صاحب الكشاف دليلا لها على أن المكنية على اعتبار الزمخشرى تحقيقية لأننا نستعير اسم المشبه به لشيء محقق هو المشبه كاستعارة الحبل للعهد والعهد له تحقق ووجود في العقل وانما سميت مكنية لحذف المشبه به وعدم التصريح به وثمة مسألة أخرى اثارت جدلا واسعا بين الشراح فقد فهم من كلام الزمخشرى انه يمكن أن تكون قرينة المكنية تحقيقية (والتحقيقية عند صاحب الكشاف ما وقع التجوز فيها بنفس اللفظ وهى التصريحية وهى أعم من تحقيقية السكاكى لصدقها على تخييلية التى هى اللفظ المستعار لأمر متخيل غير محقق لاحسا ولا عقلا) (٥) فقد شبه إبطال العهد بالنقض ثم حذف المشبه واستعير اسم المشبه به له ثم اشتق :ينقض بمعنى يبطل على سبيل التصريحية وحينئذ لا تكون قرينة المكنية تخييلية على ما قد يظن البعض إذ أن التصريحية لا تكون تخييلية الا عند صاحب المفتاح (٦) كما سنفصله عند الحديث عن مذهبه . ويبقى الاشكال

(١) الكشاف جـ ١ ص ٩٠
(٢) البلاغة القرآنية ص ٤١٩
(٣) حاشية الشهاب جـ ٢ ص ١٠٤
(٤) مختصر المعانى للسعد على التلخيص ص ٢٩٠
(٥) حاشية الانبابى على رسالة الصبان ص ٢٩٦
(٦) حاشية الخضرى على شرح الملوى على السمرقندى ص ٢٨ ط الازهرية سنة ١٣٤٩ هـ

والقول بان الزمخشرى يفيده شىء آخر، وأما مراده بالتمثيل فى الآية فقد بينه سعد الدين وهو مصيب . حيث يقول أما وجه التمثيل فهو أن يشبه حال القلوب والأسماع والأبصار بحال اشياء مخلوقة للانتفاع بها مع المنع عن ذلك بطريق الختم والتغطية، ثم استعمل فى المشبه اللفظ الدال على المشبه به أى التمثيل هنا استعارة تمثيلية . (١)

وقد تأتى عبارة الكشاف محتملة للمكنية والتمثيلية وان كانت المكنية تحقق أمر التخييل المراد . يقول فى قوله تعالى " وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ " هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا وألق الالواح وجر برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك وقطع الاغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة ولما سكن عن موسى الغضب لا تجد النفس عندها شيئا من تلك الهزة وطرفا من تلك الروعة . (٢)

وقد حمل بعض العلماء كلام الكشاف على أنه يريد الاستعارة التمثيلية وهو تكلف ظاهر . (٣) لأن ما فى الآية هو الغضب وليس هو على تصوير الاستعارة مشبها به فحمل الآية على المكنية هو المعتبر، (٤) وهو يحقق التخييل الذى استحسنه الزمخشرى .

المكنية والتمثيل والتخييل :

قد يطلق الزمخشرى التمثيل أو التخييل على بعض الأمثلة المحتملة فى ذاتها للمكنية مازجا بين الاصطلاحين من غير تفرقة بينهما أحيانا أو بناء الأمر على احتمال أيهما مع التفرقة حينا آخر .

---

(١) حاشية السعد على المفتاح ص٣٦
(٢) الكشاف ج ١ ص ٣٥١
(٣) الافصاح للاستاذ احمد الحجار ص١٩٦
(٤) البلاغة القرآنية ص ٤١٨

ولكن وجدناه أحيانا يفرق ويجعل الكلام إما تمثيلا وإما تخييلا يقول جار الله الزمخشرى فى قوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ " يقول فى الآية " وهو من المجاز الذى يسمى التمثيل ويجوز أن يكون تخييلا ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما فقالتا أتينا على الطوع لا على الكره والغرض تصوير أثر قدرته فى المقدورات لا غير من غير أن يحقق شئ من الخطاب والجواب ونحوه قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقنى قال الوتد اسأل من يدقنى فلم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى " (١)

وكلام الزمخشرى واضح فى أن هناك فرقا بين تحليل الأسلوب على طريق التمثيل وبين تحليله على طريق التخييل .

فطريقة التمثيل هى طريقة الاستعارة التمثيلية فى مفهوم المتأخرين أما طريقة التخييل فهى أقرب إلى فرض الأشياء وتخييلها كالمحاورة بين الجدار والوتد ونداء الأرض وإجابتها وربما دخل فى هذا القصص على السنة الحيوان فهو باب الخيال الحر الذى يتجاوز الخيال المحدود فى صور الاستعارة وقد لاحظ ذلك الشهاب ونفى أن يكون المقصود بالتخييل فى كلام صاحب الكشاف تخييل الاستعارة بالكناية وقد يرى غير الزمخشرى توجيه امثال تلك الآية الكريمة على مقتضى المكنية يقول الدكتور احمد بدوى وقد يجسم القرآن المعنى ويهب للجماد العقل والحياة زيادة فى تصوير المعنى وتمثيله للنفس وذلك بعض ما يعبر عنه البلاغيون بالاستعارة المكنية ومن تعقيل الجماد قوله سبحانه (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ـ الاية) وفى هذا التعبير ما يدل على خضوعهما واستسلامهما " (٢)

ويقول الدكتور عبد القادر حسين وهو بصدد تناول شواهد المكنية بالتحليل (وفى الحوار الذى يدور بين الخالق وبين السماء والأرض فيلقى عليهما السؤال ويتلقى منهما الإجابة والسماء والارض من الجمادات التى لا تسمع ولا تعى ولا تجيب فوهب لهما فكر الآدميين وعواطفهم الإنسانية فهما يحسان ما حولهما ويرهفان السمع ويأنسان بكلام الله فيسرعان إلى تلبية الأمر والانقياد للقدرة الالهية . ترى ذلك فى

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦
(٢) من بلاغة القرآن د . احمد بدوى ص ٢٢١

فى قوله تعالى " ثم استوى الى السماء وهى دخان .فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين " (١)

ولا ريب أن حمل تلك الأساليب ونظائرها على باب التمثيل أولى وأدق وأكثر تأثيرا فى النفس لأن هذا الضرب يقوم على أخذ الزبدة من الكلام غير ملتفت إلى ما عليه حال الكلام مفردا من كونه حقيقة أو مجاز بل يُصرف الفكر كله إلى ما وراء هذا التصوير من غرض وقد جعل الزمخشرى فهم التصوير على هذا النحو أدق وألطف ابواب علم البيان .

الكناية مراد الزمخشرى بالمثل :

وقد يذكر صاحب الكشاف المثل ويوجه بما يتفق وطريقة الكناية يقول فى قوله تعالى (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (ونبذوه وراء ظهورهم مثل لتركهم وإعراضهم عنه مثل بما يُرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه) (٢)

وواضح أن شرح الزمخشرى للمثل فى الآية الكريمة يجرى على طريق الكناية فعلى مقتضى كلامه يكون كتاب الله وهو التوراة أو القرآن الكريم قد شبه بشىء يقذف به وراء الظهر والعلاقة عدم الاعتداد وحذف ودل عليه برديفه وهو النبذ .

---

(١) القرآن والصورة البيانية د . عبد القادر حسين ص ١٥٨
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٠٠

وهكذا يمكن القول : إن صاحب الكشاف قد خطى بالمكنية خطوة مهمة على طريق الضبط والتحديد بحيث يقال إنه له مذهبا خاصا فيها. فهي عنده عبارة عن لفظ المشبه به المسكوت عنه المرموز له بذكر رديفه . وقد أتضح من كلام الزمخشري . ومناقشات العلماء حوله ان قرينه المكنية قد تأتي استعارة تحقيقة وهذا يعني أن المكنية لا تستلزم التخيلية كما هو الحال عند الخطيب والمذهب المنسوب الى الجمهور على ما سيأتي . كما ظهر أيضا أن كلامه في الاستعارة بالحرف غير قاطع في الحمل على طريق بعينه . فقد اجرى التجوز حينا في متعلق الحرف كما اجراه في مدخوله احيانا أخرى بما يتفق وطريقه المكنية . وقد بدى مدى إدراك الزمخشري الواعي لقيمة هذا الضرب وأثره في التصوير وماله من قدرة على التشخيص . ولا عليه بعد ذلك أن رأيناه يدرس بعضا من صوره تحت مصطلحات عديدة حينما كانت مراده بالتمثيل أو المجاز أو المثل . اذ الأهم أنما هو ادراك الخصوصيات التي يمتاز بها كل فن بلاغي على صاحبه عن طريق التحليل الكاشف والمستشرف اسرار الكلام ومراميه . ولاريب ان لصاحب الكشاف القدح المعلى في كل ذلك .

وعلى كل حال فقد كانت لدراسات الزمخشري حول هذا الضرب آثار حقيقية على الدراسات البلاغية بعده بدى ذلك واضحا في تلك المناقشات التي دارت لمحاوله فهم كلامه وتأويل مرادة على ما رأينا عند السعد والسيد والشهاب الخفاجي . وكذلك الفخر الرازي حيث كان تأثره بصاحب الكشاف واضحا في جوانب عديدة من هذا المبحث الى حد يصل احيانا الى نقل نص كلامه . وسيزداد هذا الامر وضوحا في المبحث الثاني .

مع الفخر الرازى ت ٦٠٦ هـ [1]

ومهما كان الخلاف حول دراسة الرازى وأثرها على البحث البلاغى فإن الذى لا شك فيه أن ما قام به الفخر يعد ذا قيمة حقيقية يتجاوز وضع الحدود والمصطلحات التى ما زالت مستعملة حتى الآن إلى كثير من الإضافات المهمة فى مباحث بلاغية عديدة وسيظهر ذلك من خلال حديثنا عن الاستعارة المكنية والتخييلية عنده .

الرازى والاستعارة :

خص الرازى الاستعارة بقاعدة مستقلة كما فعل بالتشبيه وهو يراها من البديع كما كان يراها الشيخ عبد القاهر واسامة بن منقذ وابن ابى الأصبع ، وكما كان يراها ايضا ابن المعتز والآمدى من قبل .

حدود الاستعارة عند الرازى :-

يقول العلوى عن الرازى موضحا بعض خصائص منهجه (وكان مولعا بتكثير التقسيم وله شغف به) [2] وهذا حق حيث أورد الرازى كثيرا من التعريفات الخاصة بالاستعارة وناقش واعترض فقد نقل تعريف الرمانى غير محرر [3] وابطله بوجوه منها انه لا يشمل الاستعارة التخييلية [4] مع أن الرازى سبق أن عرف الاستعارة بأنها (عبارة عن نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه بينهما على حد المبالغة) [5] وظاهر أن هذا التعريف لا يشمل التخييلية أيضا لعدم بنائها على نقل أصلا كما هو مذهبه ومذهب استاذه الشيخ فيها لكن الرازى يعود بعد ذلك فيذكر للاستعارة تعريفين : الأول : أن (الاستعارة ذكر الشئ باسم غيره واثبات ما لغيره له لأجل المبالغة فى التشبيه فذكر الشئ باسم غيره يدخل فيه الاستعارة التصريحية وأما ما يكون باثبات ما لغيره له فيدخل فيه الاستعارة التخييلية ويقول عن التعريف الثانى : (ولك ايضا

---

(١) تاريخ علوم البلاغة ص ١٠٧
(٢) الطراز ليحى بن حمزة العلوى ج ١ ص ٧٧
(٣) ينظر النكت للرمانى ص ٨٥ ونهاية الايجاز ص ٨١
(٤) نهاية الايجاز ص ٨٢
(٥) السابق ص ٥٥

أن تقول : الاستعارة عبارة عن جعل الشئ الشئ أو جعل الشئ للشئ لأجل المبالغة فى التشبيه فجعل الشئ الشئ هو ما تتحقق به التصريحية كما ان جعل الشئ للشئ ما يتحقق به التخييلية كقوله إذا اصبحت بيد الشمال زمامها فانك اثبت اليد للشمال وغرضك أن تبالغ فى تشبيهه بالقادر فى المتصرفية) (١) ولو قال الرازى فى التعريف الأول أو إثبات إلى آخره وفى التعريف الثانى : أو جعل إلى آخره لكان أولى وأول على التمييز بين النوعين .

الرازى يضع مصطلح الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية :

من الثابت أنه لابد لاكتمال (كل دراسة من اصطلاحات وهذه ليست مسألة ألفاظ أو مسالة ثانوية ففى الاصطلاحات عادة تتركز مبادئ كل علم أو فن ولكم من مرة فى التاريخ البشرى نشأت علوم جديدة بفضل خلق اسم لها يدل على موضعها ومناهجها . (٢)

وإذا كان الأمر كذلك يصبح من الحق علينا الاعتراف للفخر الرازى بالفضل لأنه فيما نعلم أول من وضع اصطلاح الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية بالإضافة إلى كثير من المصطلحات الخاصة بالاستعارة على النحو الذى تعرف به حتى الآن . فلم يعرف اصطلاح الاستعارة بالكناية إلا فى كتاب نهاية الايجاز (٣) على خلاف ماقد يُظن من أن السكاكى صاحب الفضل فى تلك المسألة وربما كان الرازى أيضا هو الذى وضع مصطلح التجريد وكذلك مصطلح الترشيح على المعنى الذى عرف به عند المتأخرين كما تكلم عن أنواع الاستعارة باعتبار الحسية والعقلية من حيث الطرفين والجامع على نحو تابعه فيه المتأخرون كذلك .

تبقى مسألة أصالة تلك المصطلحات أو نقلها موضع نقاش واختلاف فعلى حين يؤكد أحد الباحثين ان مصطلحات البلاغة العربية لم تنقل عن اليونان (٤) يؤكد آخرون كالدكتور مندور على تأثر علمائنا العرب فى تلك المسألة أو نقلهم عن اليونان (٥) أو الفرس كما يرى الدكتور شوقى ضيف . (٦)

(١) السابق ص ٨٢ (٢) النقد المنهجى ص ٦١
(٣) البلاغة القرآنية د . ابو موسى ص ٤١٦ والفخر الرازى والبلاغة العربية د . جلال الذهبى القاهرص ٢٠٥
(٤) ينظر البلاغة عند السكاكى احمد مطلوب ص ٢٩٦
(٥) النقد المنهجى ص ٦١ (٦) البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٧٥

وان صح النقل والتأثر مع بعض المصطلحات البلاغية فإن الأمر بالنسبة للاستعارة بالكناية وكذا الاستعارة التخييلية يختلف بما يؤكد الأصالة فى كل منهما إذ المصطلح المقابل للاستعارة المكنية عند ارسطو إنما هو : وضع الشىء تحت العين أو نصب العين وهو كما قيل قد أخرج هذا اللون عن دائرة الاستعارة وتسميه البلاغة الغربية التشخيص (١) ثم إن الألفاظ التى ركبت منهما لهاتين الاستعارتين ذات دلالات مستمدة من أصول لغوية وإذا كان الرازى هو صاحب الفضل فى وضع مصطلح الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية فما مفهومه لكل منهما .

الرازى والاستعارة المكنية :

يفهم من كلام الرازى أنه يرى أن الاستعارة بالكناية هو المستعار منه الذى حذف وذكر بعض لوازمه تنبيها به عليه . يقول الرازى بيانا لهذه الاستعارة : (هذا إنما يكون إذا لم يصرح بذكر المستعار بل ذكر بعض لوازمه تنبيها له عليه . ويلاحظ أن ما قاله الرازى هنا يقترب من مفهوم الزمخشرى (٢) لها كما سبق.هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يكاد يتفق والمذهب المنسوب للجمهور ويؤكد ذلك تطبيق الرازى وإيضاحه أمر هذه الاستعارة على بيت أبى ذؤيب المشهور فى المكنية

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا .... البيت

حيث يقول فكأنه حاول استعارة السبع للمنية لكنه لم يصرح بها بل ذكر لوازمها تنبيها بها على المقصود . (٣)

وقد يكون من المفيد فى إيضاح رأيه هنا أن نسمع ما قاله فى تفسير قوله تعالى : "وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ " قال : " فان قيل : كيف أضاف الجناح إلى الذل والذل لا جناح له ؟ قلنا : فيه وجهان : الأول : أنه أضيف الجناح إلى الذل كما يقال حاتم الجود فكما أن المراد هناك حاتم الجواد فكذلك المراد هاهنا : واخفض لهما جناحك الذليل وعلى هذا الوجه يكون - الجناح - مستعارا للجانب .وقد ورد كذلك فى قوله تعالى : " وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ "

---

(١) السابق ص١٣ . والفن ومذاهبه فى الشعر العربى د . شوقى ضيف ص ٢٣٦

(٢) ينظر الكشاف جـ ١ ص ٤٨

(٣) نهاية الايجاز ص ٩٢

الثانى : أن مدار الاستعارة على الخيالات فيها هنا تخيل للذل جناحا ، وأثبت لذلك الجناح خفضا تكميلا لأمر هذه الاستعارة كما قال لبيد : إذ اصبحت بيد الشمال زمامها فاثبت للشمال يدا ووضع زمامها ـ القرة ـ فى يد الشمال فكذلك هاهنا) (١)

ويفهم من كلام الرازى فى الوجه الثانى أمور يعنينا منها هنا أن فى بيت لبيد وغداة ريح ... استعارة مكنية يد الشمال ـ واخرى فى ـ زمامها ـ وأن الثانية جاءت مرشحة للأولى من جهة ـ وضع الزمام بيد الشمال .

الرازى والاستعارة التخييلية :

عقد الرازى فصلا خاصا بالاستعارة التخييلية وهو وإن لم يذكر فيه تعريفا خاصا بها لكن يؤخذ من كلامه فى اكثر من موضع انه يرى أن الاستعارة التخييلية هى إثبات لازم المشبه به المحذوف للمشبه بدليل قوله السابق فخيل للذل جناحا : وقوله أيضا إثبات الجناح للذل استعارة تخييلية

وعلى ذلك فهذه الاستعارة تعنى عند الرازى ما كانت تعنيه عند عبد القاهر من إثبات الشىء لما ليس له حقيقة على ما مر فى موضعه .

وقد ذكر الرازى أن اكثر الآيات التى يتمسك بها أهل التشبيه من هذا الجنس (التخييلية) ومنها أيضا قوله تعالى "وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ فاثبات الذل استعارة تخييلية (٣) وحمل بعض آيات المتشابه على التخييلية قال به عبد القاهر (٤)

كما أن صاحب الطراز ذهب إلى دخول آيات المتشابه فى هذه الاستعارة لكن على مفهوم آخر يأتى قريبا فى موضعه ان شاء الله .

---

(١) الفخر الرازى والبلاغة العربية د . محمد جلال الذهبى ص ٢٠١ ، ٢٠٢

(٢) نهاية الايجاز ص ٩٥

(٣) السابق ص ١٠٢

(٤) الاسرار جـ ١ ص ١٤٣

ويقول استاذنا الدكتور جلال الذهبي (إن الرازي أول من وضع للاستعارة بالكناية اسمها وكذلك أول من أطلق على التخييلية هذا الاسم وأول من أشار إلى التلازم بين المكنية والتخييلية والحق أنه تحدث عن الاستعارة التخييلية حديث الفاهم فبين تبعيتها للمكنية لأنها - التخييلية - تقوم على إثبات ما به يكمل الوصف - الشبه - للمشبه مبالغة في إثبات الوصف له) (١) فقد قال في تعليقه على قول لبيد السابق وغداة ريح .. قال . فالشمال في تعريف الغداة على حكم طبيعتها كالحيوان المتصرف إلا أن تصرف الحيوان إنما يكون باليد في أكثر الأمر فتكون - اليد - كالآلة التي بها تكمل القوة على التصرف ، ولما كان الغرض إثبات وصف المتصرفية وذلك مالا يكمل إلا عند ثبوت اليد لاجرم اثبت اليد للريح تحقيقا للغرض ( ) (١)

ومن هنا نفهم انه يرى عدم الانفكاك بين الاستعارات المكنية والتخييلية لأن الغرض الوصول إلى الكمال في الوصف وهذا لا يكمل إلا عند إثبات لازم المشبه به للمشبه وهذا الإثبات هو التخييلية وهذا يشير من جانب آخر إلى أن الاستعارة التخييلية ليست مجرد قرينة للمكنية ، شأنها في ذلك شأن لفظ - عدى - في قولنا : عدى أسد بل إن لها مهمة أخرى بجانب كونها تشير إلى المحذوف وهي أن إثباتها تحقق الغرض من المكنية وهو المبالغة في تصوير المشبه بصورة المشبه به (٢)

بين النقل والعقل :

والراجح عند الرازي اعتبار الاستعارة من قبيل التجوز اللغوي موردا ما اعتبره تصاريحا عند عبد القاهر آخذا بما قال به في الأسرار ومعللا لما اختاره (٣) دون ان يغفل الاشكال الوارد على التخييلية والتي أصر عبد القاهر على عدم إمكان النقل فيها وتابعه في ذلك فكان الواجب أن يميز بين التخييلية وغيرها من هذه الناحية ما دام قد أخذ على عاتقه عبء التحديد والتمييز .

---

(١) الرازي والبلاغة العربية ص ٢٥٢
(٢) الرازي والبلاغة العربية ص ٢٠٢ ، ٢٠٣
(٣) نهاية الايجاز ص ٨٢

والمهم أن الرازي يصرح بأنه لا مجال في التخييلية للبحث عن شيء نقل إليه اللفظ واستعمل فيه فليس للشمال شيء ينتقل اليه اسم اليد . (١)

(وكأنه يشير بذلك إلى أن اللفظ ـ في الاستعارة التخييلية ـ الملائم للمشبه به مستعمل في موضعه وليس منقولا عنه وإذا كان لا نقل في اللفظ فانه لا مجاز فيه ومن ثم فإن الاستعارة هنا في الإثبات وليست في اللفظ) (٢)

بين الرازي وعبد القاهر والزمخشري :

ولا ريب أن الرازي يرجع إليه الفضل في إحكام بناء هذا اللون من الاستعارة ولا يمنع ذلك أن يكون الشيخ عبد القاهر قد تكلم عنها من حيث قيمتها الجمالية ومن حيث التمييز بينها وبين الضرب الاخر ـ التصريحية " وكما تحدث عنها الإمام عبد القاهر تحدث عنها صاحب الكشاف في أكثر من موضع على ما سبق تفصيله إلا أن الزمخشري لم يضع تسمية لهذا الفن مميزة له كما أنه لم يبين على وجه القطع مدى الصلة بين الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية ثم إنه لم يتعرض لهذه الأخيرة تعرضا يكشف عن حقيقتها ، فظل الفضل في ذلك كله في الحقيقة يرجع إلى الرازي) (٣)

التمييز بين ضربي الاستعارة :

ولم يقتصر جهد الرازي فقط على وضع المصطلحات وإنما حاول التمييز بين ضروب الاستعارة وخاصة فيما تفرق به المكنية والتخييلية عن التصريحية فبالاضافة الى التمايز الذي أوقفنا عليه على ضوء تعريفاته يذكر فرقا آخر في الباب الذي عقده لأقسام الاستعارة والذي بدأه بقوله (اعلم أن الاستعارة تارة تعتمد نفس التشبيه وتارة لوازمه (فالأولى ما إذا اشترك شيئان في وصف وأحد هما أنقص من الآخر فيعطى الناقص اسم الزائد مبالغة في تحقيق ذلك الوصف كقولك .. عنّت لنا ظبية ، وأنت تريد امرأة (وأما الثاني) فعندما تكون جهة الاشتراك وصفا إنما يثبت كما له في المستعار منه بواسطة شيء آخر فيثبت ذلك الشيء للمستعار له مبالغة في إثبات ذلك المشترك كقوله :

---

(١) السابق ص ٩٥
(٢) الرازي والبلاغة العربية ص ٢٠٣
(٣) السابق ص ٢٠٣ ، ٢٠٤



وغداة ريح قد كشفت وقرة   اذ اصبحت يد الشمال زمامها

فالشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالحيوان المتصرف إلا أن تصرف الحيوان إنما يكون باليد في اكثر الأمر فتكون اليد كالالة التي بها تكمل القوة على التصرف — ولما كان الغرض إثبات وصف المتصرفية وذلك مما لا يكمل إلا عند ثبوت اليد لا جرم أثبت اليد للريح تحقيقا للغرض ... والدليل على ما قلناه إنه ليس للشمال شيء ينتقل إليه اسم اليد — ومن هذا الباب قولهم .. فلان مرخي العنان ملقى الزمام فانه ليس هناك شيء يجري اسم العنان عليه بل المقصود انتزاع النتبة في حال مايرخي عنانه فتأمل ما ذكرناه في الفرق فإنهم طولوا فيهما أدركوا كنهه واعلم أن اكثر الآيات التي يتعلق بها أهل التشبيه من هذا الجنس مثل قوله "ولتصنع على عيني" وقوله "واصنع الفلك بأعيننا — وفي معرفة هذا الاصل خلاص من تلك الإشكالات.(١)

ويظهر من هذا العرض والتحليل والتوجيه أن الرازي قد أفاد كثيرا مما ذكره عبد القاهر في تلك الاستعارة — التخييلية — كما أفاد كثيرا أيضا مما ذكره صاحب الكشاف ليخرج رأي الرازي في تلك الاستعارة على نحو لا يكاد يختلف عما نسب إلى الجمهور من مذهب في المكنية وسيزداد هذا الامر وضوحا عند الحديث عن هذا المذهب تفصيلا في موضعه ان شاء الله.

المكنية في تطبيقات الرازي على اقسام الاستعارة :

عقد الرازي بابا لتطبيق الأصول التي تختص بالاستعارة باعتبار الحسية والعقلية على آي القرآن ومن خلال تحليله لكثير من الاستعارات وتصويره لها يتضح أن تلك الاقسام الستة التي ذكرها ما تجري على المكنية . وتحت دواعي البعد عن الاطالة نكتفي بايراد مثال واحد بقصد التدليل . فقد جعل قوله تعالى "واشتعل الرأس شيبا" من قبيل استعارة المحسوس للمحسوس بوجه محسوس مبينا الاستعارة بقوله : (فالمستعار منه النار والمستعار له الشيب والجامع هو الانبساط ولكنه في النار أقوى)(٢) فالاستعارة عنده ليست في الفعل : (اشتعل) كما هو الوجه الآخر

(١) نهاية الايجاز ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦

(٢) نهاية الايجاز ص ٩٩

وانما هى فى الشيب المشبه بالنار المحذوفة مدلولا عليها بالاشتعال ثم يلخص الرازى ما سبق أن قرره عبد القاهر فى جعل الحسن فى تلك الاستعارة مرجعه إلى النظم وإن كانت عبارة الرازى أكثر دلالة فى جعله للاستعارة مدخلا فى أمر التحسين وإن كان أكمل وأتم فى الاسناد على مقتضيات النظم • (١)

ويلاحظ أن تحليل الرازى لتلك الاستعارة يقترب وما سبق أن ذكره صاحب الكشاف مع إختلاف يسير فى العبارة على ما سبق بيانه عند الحديث عن الزمخشرى

معايير حسن الاستعارة :ـ

عرض الرازى لهذه القضية لكن يلاحظ أنه كان متابعا فى كثير من جوانبها لذلك تتناول اهم ما ذكره الرازى متصلا بالكتية فى إيجاز •• فيذكر الرازى فى التفريق بين التشبيه والاستعارة من حيث القرب والبعد فى الشبه وبالجملة فكلما كان موضع الشبه أخفى كان التصريح بالمشبه أحسن ويخرج منه أن الاستعارة لا تحسن إلا حيث كان التشبيه متقررا بين الناس ظاهرا فأما أن يكون خفيا يستخرجه الشاعر أو غيره بذهنه فلابد فيه من التصريح بالتشبيه وإلا كان تكليفا بعلم الغيب •

وإذا كان هذا هو الوضع الذى ينبغى أن تأتى فيه الاستعارة فإنه ليس معنى ذلك تساوى درجات الاستعارة إذا كان الشبه ظاهراً بيناً بل هناك بعد ذلك معيار لحسن الاستعارة عنده وهو وفاؤها بالغرض الذى سيقت له أى المبالغة فى التشبيه والإيجاز والبيان •

وعلى هدى من هذا المقياس حكم الرازى على الاستعارة فى قول أبى تمام (لا تسقنى ماء الملام •••• البيت) الاستعارة فيه لا تسقنى ماء الملام ـ قبيحة لأنها ليس فيها فضل بيان ولا إيجاز لأن حقيقتها وهى " لا تلومنى أوجز فيها وأبين (٢)

---

(١) السابق نفس المرجع والموضع
(٢) نهاية الايجاز ص ٩٤

وإذا كان معيار حسن الاستعارة فى وفائها بتلك الأمور الثلاثة السابقة فانها تزداد حسنا بأمور أخرى منها إخفاء التشبيه وذلك بتأليف الكلام تأليفا يتعذر معه الافصاح بالتشبيه) (١)

وقد فهم أحد المعاصرين كلام الرازى على أنه يعنى (ان الاستعارة التصريحية التى صرح فيها بالمشبه به أقل بلاغة وحسنا من الاستعارة بالكناية التى حذف منها المشبه به ورمز إليه بشىء من خصائصه لأن التشبيه فى الاخيرة أكثر خفاء من الأولى فيكون بناء الاستعارة البليغة على تناسى التشبيه .(٢)

وعندى أن ما قال به الرازى لا يخص المكنية وحدها بل التصريحية أيضا ما دامت على شرطه بدليل أن ما استشهد به ينصرف إلى التصريحية على إيضاحه إذ قال تعليقا على بيت الشاعر :

أَثْمَرَتْ أَغْصَانُ رَاحَتِهِ لِجُنَاةِ الْحُسْنِ عُنَّابَا

فلو أردت أن تظهر التشبيه احتجت إلى أن تقول أثمرت أصابع يده التى هى كالاغصان لطالبى الحسن شبيه العناب من أطرافها المخصوصة) (٣) .

٢ - ضم استعارة إلى أخرى ليتم الحاق الشكل بالشكل كما فعل امرؤ القيس حين قال :-

فقلتُ لهُ لمَّا تمطَّى بصلبه .... البيت

جعل لليل صلبا قد تمطى به ثم ثنى ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به فاستوفى جملة أركان الشخص) (٤) والرازى فى ذلك متابع لما سبق أن قال به عبد القاهر فى تلك المسألة وهو رأى أكثر النقاد والبلاغيين وإن خالف ابن سنان على تفصيل سبق فى مواضعه .

٣ - ترشيح الاستعارة (يعد الرازى صاحب الفضل فى إضافة هذا المبحث بهذه التسمية إلى فن البلاغة ولا يغض من هذا أن يكون لفظ الترشيح قد ورد على لسان الزمخشرى) (٥)

---

(١) السابق ص ٩١ (٢) الصور البيانية د حفنى شرف ص ٢٨٤
(٣) نهاية الايجاز ص ٩١ (٤) السابق نفس الصفحة .
(٥) الرازى والبلاغة العربية د . جلال الذهبى ص ٢٠٧

ولكن كلام الرازى اكثر دقة وشمولا والمهم أن الرازى يرى جريان الترشيح فى الاستعارة بالكناية بدليل قوله : واثبت لذلك الجناح خفضا تكميلا لأمر هذه الاستعارة (وإذا جرى فيها الترشيح جرى كذلك الاطلاق والتجريد فيها) (١)

كما مثل الرازى لترشيح الاستعارة بقول النابغة :(وَصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... البيت يضاف (فالمستعار هو : الإراحة ، ورشح بلفظ - عازب - لانه يلائم الاراحة (٢)

ومن كل ما مر يمكن ان نقرر فى اطمئنان أن دراسة الرازى للاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية وما يتصل بهما من أصول وأحكام تعد ذات أهمية خاصة ويمكن ايجاز ما قام به الرازى فيما يأتى :-

أولا : أن الرازى هو صاحب مصطلح الاستعارة بالكناية .
ثانيا : أن الرازى هو صاحب مصطلح - الاستعارة التخييلية .
ثالثا : أن الرازى يرى أن الاستعارة التخييلية هى قرينة المكنية .
رابعا : أنه يرى أن الاستعارة التخييلية تكون بإثبات اللازم .
خامسا : أنه يرى كذلك التلازم بين التخييلية والمكنية فلا توجد إحداهما منفردة .
سادسا : أن الاستعارة التخييلية ليس فيها نقل إذ هى حاصلة فى الاثبات فقط .
سابعا : يرى الرازى أن هذا اللازم واثباته للمشبه يؤدى إلى كمال الوصف فيه .
ثامنا : أنه يرى جريان الترشيح فى الاستعارة المكنية وإذا جرى الترشيح فيها جرى الاطلاق والتجريد فيها كذلك .
تاسعا : أن رأى الرازى فى كل من الاستعارة المكنية والتخييلية - يكاد يتفق والمذهب المنسوب الى الجمهور فى المكنية على ما سيتضح اكثر عند الحديث المفصل عن هذا المذهب .

---

(١) الرازى والبلاغة العربية ص ٢٠٢
(٢) نهاية الايجاز ص ٩٢

الفصـــــل الثالـــث

الرجوع بصور الكناية الى روح الدرس الأدبـــــى

اولا : عنـــــد ابن الاثيـــــر

ثانيا : عنـــــد ابى الاصبـــــع

ثالثا : عنـــــد العلـــــوى

================

الرجوع بصور الكناية إلى روح الدرس الأدبي

أشرنا إلى أن منزع الرازي في معالجة الاستعارة بالكناية والتخييلية كان له تأثير عميق على ساحة البحث البلاغي بعده بحيث كاد أن يلغي المناهج الأخرى لولا أن بعضا من العلماء الأدباء النقاد مالوا إلى مراعاة طابع البحث الادبي بحيث أضحى لهم مواقف معينة تتصل بالكناية والتخييلية جديرة بالتناول.

مع ابن الاثير ت ٦٣٧ هـ (١)

يعد ابن الأثير من أكبر البلاغيين والنقاد المتأخرين تحررا وبعدا عن التقليد والمتابعة ومن أكثرهم رغبة في التجديد مع إعجاب شديد بالنفس الأمر الذي كان من ورائه ما نلحظه كثيرا عنده من إنكار لجهود السابقين أو تجاهل ما قالوه وربما جحود المقرر والمتعارف.

لكن الأمر الذي لا شك فيه (إن كتاب المثل السائر يعد من أعظم الكتب التي تناولت شئون البلاغة والنقد بعد عصر الزمخشري وأنه أثار كثيرا من القضايا) (٢) وهو في طليعة كتب البلاغة التي تجمع التبويب إلى الفروق والتحليل) (٣) والشيء الذي يمكن تأكيده هنا أن ابن الاثير لم يفد في معالجته لصور الكناية من رجال المدرسة الخوارزمية البارزة الملامح بمقدار ما أفاد من غيرها (٤) لكن لا يصل بنا الأمر إلى القطع بكونه لم يطلع على ما كتب عبد القاهر أو أنه لم يلتق بدراسة السكاكي على ما يراه بعض أساتذتنا. (٥)

ففرق بين نفي الصلة والتأثر أصلا إيجابا أو سلبا وعدم الإفادة وهو ما نميل إليه لما يدل عليه الاتجاه العام لابن الاثير والنوازع التي حكمت دراسته والتي كانت تدعوه إلى المخالفة حتى يظهر وكأنه يأتي بكل جديد ويبدو ذلك تماما في بحثه لصور

---

(١) ينظر وفيات الاعيان لابن خلكان جـ٢ ص ٢٠٨
(٢) البلاغة القرآنية د. ابو موسى ص ٣٩ه
(٣) تاريخ النقد العربي د. زغلول سلام ص ٢٦٤
(٤) البلاغة القرآنية ص ٤٣٩
(٥) صور من تطور البيان العربي ص ٢٠٨

الكتية فهى مجاز عنده ولكن ليست باستعارة وإنما هى توسع .

وموضع الطرافة هنا أنه يعود بنا إلى عهود ماضية كما قد يُرى فى ذلك لأول النظر ما يرضى بعض المحدثين حين يرون فيه خروجا على كثير من المشكلات التى صاحبت دراسة الكتية لونا استعاريا ... وإن لم يكن الأمر فى حقيقته سوى استبدال نوع لمشكلات الكتية وهذا يستدعى شيئا من التفصيل نبدؤه بالإشارة الى موقفه من المجاز

فى الحق أن ابن الاثير قد امتاز موقفه بقبل المجاز بالاتزان فى مقابل اتجاهى التطرف، فقد أخذ بالوسطية كما قد تجلى اعتداله فى اعتباره إمكان التجديد فى المجازات على سبيل الاستعارة وعدم الوقوف بها عند حد المنقول وإن أصاب موقفه شئ من التخلف حين لم يبح التجوز فى مثل سؤال الجمادات وما لا يسأل إذا أمكن تقدير ما يسأل على الحقيقة) (١)

ابن الاثير والاستعارة :

وموقف ابن الاثير قاطع فى أن مراده بالاستعارة إنما ينصرف إلى التصريحية خاصة دون الكتية ويظهر ذلك واضحا فى تعريفه لها وكذا فى تمثيله وتحليله ومع ذلك فقد وقع كلام له فى أثناء تفريقه بين التشبيه والاستعارة ملبس مع التسليم بسلامته من التحريف، إذ لا ينصرف ، لغير الكتية، فقد عرف الاستعارة بقوله : (حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما مع طى ذكر المنقول إليه) (٢)

وظاهر من هذا التعريف أنه لا يشمل الكتية كما لا يتناول التخييلية لعدم تصور النقل فيها أصلا على المشهور لكن سبق أن فرق بين التشبيه والاستعارة بقوله : (والذى انكشف لى بالنظر الصحيح أن المجاز منقسم قسمين : توسع فى الكلام وتشبيه . والتشبيه ضربان تشبيه تام وتشبيه محذوف. فالتشبيه التام : أن يذكر المشبه والمشبه به. والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه دون المشبه به ويسمى استعارة. وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام) . (٣)

---

(١) المثل السائر لابن الاثير ص ٣٨ طبعة بولاق .
(٢) السابق ص ٢٢٠
(٣) السابق ص ٢١٧

ومن الغريب يعقب الاستاذ الدكتور طبانة على كلام ابن الاثير هذا بأنه ينصرف إلى المكنية دون التصريحية . (١) وهذا يؤدى إلى تضارب واضح لا نعتقد أن يقع ابن الاثير فى مثله . والأقرب أن كلام ابن الأثير قد وقع فيه تصحيف وأصله : أن يذكر المشبه به دون المشبه ويسمى استعارة ويؤكد ذلك مفهوم ابن الاثير للاستعارة الذى ألح عليه كثيرا بما يفيد أن مقصوده الاستعارة التصريحية . (٢)

ابن الاثير والمكنية :

والحق أن ابن الاثير وإن تجاهل المكنية كمصطلح ، وهو وإن أخرجها عن حد الاستعارة إلا أنه لم يتجاهل دراستها كفن أدبى على ما تشهد به دراسته . وحقيقة الأمر أنه يشترط فى الاستعارة الملائمة بين المنقول عنه والمنقول إليه وعدم التباعد بينهما لأن الاستعارة يطوى فيها المنقول إليه فإذا كان هناك تباعد لم يبن المراد . (٢)

ومن هنا فما لم يجئ على شرطه أو يتصوره هو على غير شرطه لم يعتد به فى الاستعارة وإنما هو من التوسع .

صور المكنية لونا من ألوان التوسع :-

ومعنى التوسع عنده ما يذكر للتصرف فى اللغة لا لفائدة أخرى مع أنه قسيم التشبيه فى المجاز . وكذا الاستعارة مع جعلها قسما مستقلا منه .

وبمراجعة ما حمله على التوسع من أمثلة نلحظ أن أغلبها يعود إلى المكنية فقد رأى فى صورها تباعدا وهو ما نقره عليه بالمقارنة إلى التصريحية وإن كنا ننازعه فى تعميم هذا الحكم على ما استشهد به ثم فى تورطه فى أن التوسع لا يكون لفائدة فكيف يكون التوسع مجازا ولا مشاركة أصلا ؟ . ثم كيف يكون التجوز لغير فائدة ؟

(١) علم البيان د . بدوى طبانة هامش ص ١٠٢
(٢) المثل السائر ص ٢١٨
(٣) السابق ص ٢١٤

مع أن ذلك من شروط المجاز المقررة (١) وإن حاول التراجع قليلا حين وجد أن القرآن والحديث يشتملان على أشياء مما اعتبره توسعا . إذ فقد قسمه إلى قبيح وإلى حسن فالأول ما ورد على وجه الإضافة ويستشهد له بأمثلة سبق أن عدها البيانيون والنقاد من الاستعارات البعيدة من نحو قول أبى نواس : بحّ صَوتُ المالِ .... البيت ويعقب بأن (قوله بح صوت المال من الكلام النازل بالمرة ومراده من ذلك أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتفريق فالمعنى حسن والتعبير قبيح) وكذلك يعيب قول أبى نواس :

ما لِرِجْلِ المالِ أمسَتْ تشتكى منكَ الكلالا .

فإضافة الرجل إلى المال أقبح من إضافة الصوت .. ومن هذا الضرب أيضا قول أبى تمام :ـ

وكم أحرزتْ منكم على قبح قدِّها صُرُوفُ النوَى من مُرْهفٍ حسنِ القدِّ

فإضافة القد إلى النوى من التشبيه البعيد البعيد وإنما أوقعه فى المماثلة بين القد والقد وهذا دأب الرجل فى تتبع المماثلة تارة والتجنيس أخرى حتى إنه يخرج إلى بناء يعاب به أقبح عيب وأفحشه)

ولكن ابن الأثير يستحسن بل يتعجب من حسن قول مسلم

تظلمَ المالُ والاعداءُ من يدهِ لا زالَ للمالِ والاعداءِ ظَلَّامَا

من غير أن يعقب بما يبين وجه الحسن فيه .

وقد أرجع ابن الاثير عيب ذلك الضرب إلى (بعد ما بين المضاف والمضاف إليه ذلك لأنه ملحق بالتشبيه المضمر الأداة وإذ ورد التشبيه ولامناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحا ولا يستعمل هذا الضرب من التوسع إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة أو ساه غافل يذهب به خاطره إلى استعمال مالا يجوز ولا يحسن (٢)

---

(١) الطراز جـ ١ ص ٤٤ ـ ٨٣
(٢) المثل السائر ص ٢١٨ ، ٢١٩

ومع التسليم لابن الاثير ببعد الشبه أو فقدانه أصلا فى صور ذلك الضرب إلا أننا لا نقره فى اشتراط التناسب بين المضاف والمضاف إليه هنا إذ لو وجد تشابه بينهما لكان من باب التشبيه الذى أضيف فيه المشبه به إلى المشبه وخرج بذلك عن باب التوسع على ما يقول به أو الاستعارة كما هو الحال عند غيره .

و نحن لا ننكر ما فى هذه الشواهد من بعد وما فى بعضها من انعدام الملاءمة ولكن ما نتوقف عنده ما نحس به من اضطراب حينما يعد أحد ضربى التوسع الذى هو عنده ـ ليس بتشبيه ولا باستعارة كما سبق ملحقا بالتشبيه ويفترض وجود التناسب وإلا حكم بقبحه وقد صرح قبل بأن العدول من الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه لا يكون إلا لقصد التوسع وأضاف (وهو سبب صالح إذ التوسع فى الكلام مطلوب (١)

ثم إن جماعة النقاد . والآمدى . من بينهم وهو ممن يعترف لهم ابن الاثير بالفضل قد درس تلك الشواهد فى باب الاستعارات . (٢)

وأما الضرب الثانى من ضربى التوسع والموصوف عنده بالحسن فقد نقل فيه بعضا من آى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وكذا بعضا لنماذج الأدبية بما يعود إلى الكناية أو على الأقل تحتملها .

فمما مثل به قوله تعالى : " ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ " ثم ذكر (فنسبة القول إلى السماء والارض من باب التوسع لأنهما جماد والنطق إنما هو يكون للانسان لا للجماد ولا مشاكلة هنا بين المنقول والمنقول إليه) .

وقد يرى البعض الميل بتلك الآية إلى الكناية .(٣) وإن كان المشهور حملها

(١) السابق ص ٢١٨
(٢) ينظر ما كتب عن الكناية عند الآمدى فى الفصل الخاص بالكناية فى دراسات النقد .
(٣) القرآن والصورة البيانية د . عبد القادر حسين ص ١٥٧

على التمثيل أو التخييل .(١) ولنا أن نتساءل هنا هل المناسبة مفقودة فى الآية والأهم هل ابن الاثير ما زال مصرا على رأيه فى أن التوسع لا يكون لفائدة ؟.

وقد مر أن الشريف الرضى يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : (هذا جبـل يحبنا ونحبه) على المجاز (٢) ، واما ابن الأثير فيعده من التوسع إذ لا مشاركـة بينه وبين الجبل الذى هو جماد وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول ومساءلة الأحجـار كقول أبى تمـام :ـ

أميدانَ لهوىَ مَن أتاحَ لك البِلَى ... فأُصْبحتَ ميدانَ الصَّبا والخبائب

فأبو تمام يسائل ربوعا عفا فيه و أحجارا دارسة ولا وجه لها هـنا إلا مساءلة الأهل كالذى فى قوله تعالى "وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ" . أى أهل القرية وكل هذا توسع فى العبـارة إذ لا مشاركة بين رسوم الديار وبين فهم السؤال والجواب (٣) (وموضع الغرابـة فى رأى ابن الاثير هذا أن كلمة التوسع بالنسبة للمجاز كلمة جاءت فى طفولة البلاغة الأولى على لسان سيبويه فى الكتاب) إذ حمل بعض صور المجاز على اتساع الكـلام واختفت بعد ذلك إلى أن جاء ابن الاثير وجعل التوسع نوعا من المجاز ومثل لـه بمثل لها شهرة فى الاستعارة منذ القرن الثالث) (٤)

ومعلوم أن فى كل تجوز باستعارة أو بغيرها توسعا إذ التوسع (اسم يقـع على جميع الأنواع المجازية كلها) (٥)

وابن الأثير نفسه يقر بذلك مع محاولته التفريق بجعل ما فى الاستعارة والتشبيه من توسع ضمنا وتبعا .(٦) ثم إن ما مثل به أو على الأقل كثيرا منه لا يفتقد شرط الملاءمة وإن دقت كما لا يفتقد شرط الفائدة وإن خفيت. وموقف ابن الاثير هذا وأمثاله جعـل بعض المحدثين يقول عنه إنه : (ظل يضطرب اضطرابا شديدا فى تصوير المسائـل البيانية الخالصة ونقصد التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية) (٧)

---

(١) الكشاف جـ٢ ص ٣٢٦ (٢) المجازات النبوية ص ١٠
(٣) المثل السائر ص ٢١٨ ، ٢١٩ (٤) صور من تطور البيان العربى ص ٢٠٩
(٥) الطراز جـ ١ ص ١٩٧
(٦) المثل السائر ص ٢١٠
(٧) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٣٤

بين ابن الاثيـــر وابن جنـــى :

سبق أن أشرنا عند الحديث عن الكناية عند ابن جنى إلى أن ابن الأثيـــــر قد تعقب أقواله . ووعدنا بالتفصيل هنا .

وقد نقل ابن الاثير بعض كلام ابن جنى فى المجاز متعقبا له ومفندا أوجه الخطأ فى كل معنى من المعانى الثلاثة التى رأى ابن جنى أنها لازمة لكل مجاز . وهـــى الاتساع والتشبيه والتأكيد . (١)

وأما ابن الاثير فيحصل المجاز عنده بأحد تلك الوجوه دون اشتراط اجتماعهـــا هذا من ناحية كما أن التشبيه والتأكيد عنده شىء واحد وهذا وجه آخـــر . وأما الاعتراض الثالث الذى لاحظه ابن الاثير فيتعلق بقول ابن جنى . اما الاتساع فهو أنه زاد فـــى اسماء الجهات والمحال ...... وهذا القول مضطرب شديد الاضطراب لأنه ينبغى على قياسه أن يكون جناح الذل فى قوله تعالى: "واخفض لهما جناح الذل" زيادة فـــى اسماء الطيور وذلك أنه زاد فى اسماء الطيور اسما هو الذل . وهكذا يجرى الحكم فـــى الاقوال الشعرية كقول أبى تـــمام :

لبست سواد أقواما فكانـــوا كما أغنى التيمم بالصعيـــد

فزاد فى اسماء اللباس أسماً هو الآدمى . وهذا مما يضحك منه نعوذ بالله من الخطل والاتساع فى المجاز لا يقال فيه كذا وإنما يقال هو أن تجرى صفة من الصفات علـــى موصوف ليس أهلا لأن تجرى عليه لبعد ما بينه وبينها كقول أبى الطيب المتنبى :

أَثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَــلُ نَبْكِى وَتَرْزِمُ تَحْتَنَا الْإِبِـــلُ

فإنه أجرى الكلام على ذلك وإنما يستعمل طلبا للاتساع فى أساليب الكلام لا لمناسبـــة بين الصفة والموصوف إذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعا وإنما كان ضربا من القيـــاس فى حمل الشىء على ما يناسبه ويشاكله وحينئذ يكون ذلك تشبيها أو استعارة على ما أشرت إليه من قبـــل) (٢)

---

(١) ينظر الخصـــائص جـ ٢ ص ٤٤٢
(٢) المثـل السائر ص ٢٢٢

ونحن نسلم لابن الاثير اعتراضه الأول والثاني على شيء من التحفظ . أما الاعتراض الثالث وهو ما يعنينا بالذات فنرى فيه لونا من التعسف الذى يطغى أحيانا على نظرة ابن الاثير لأن ابن جنى لم يقصد بالتوسع زيادة الاسماء اسما فى جميع الحالات بل أحيانا يرمى إلى هذه الزيادة وأحيانا لا يراها ابن جنى نفسه فلا يقول بها كما رأيناه يوضح معنى السعة فى قولهم بنو فلان يطؤهم الطريق . فيقول : فيه من السعة اخبارك عما لا يصح وطؤه بما يصح وطؤه (١) فالاتساع عند ابن جنى ليس مقصورا ابدا على زيادة الاسماء اسما بل يرى أيضا فى استعمال الشيء على ما لا يصح أن يستعمل معه وبهذا يصح قوله ويسلم من الاعتراض ففى قوله تعالى (جناح الذل) الذى اعترض به ابن الاثير على ابن جنى نراه استعمل لفظ الجناح على ما لا يصح أن يستعمل معه وهو الذل فيكون هذا متمشيا وموافقا لرأى ابن جنى فى المجاز) (٢)

بين ابن الاثير وابن سنان :

يوافق ابن الاثير غيره من النقاد والبلاغيين فى رد ما ذهب إليه ابن سنان من عدم استحسان الاستعارة المبنية على استعارة أخرى وإن كان ابن الاثير يخالف الجميع حيث يرى أن ما فى مثل قول امرىء القيس :

فَقُلْتُ لَهُ لما تَمَطَّى .... البيت

من قبيل التشبيه المضمر ـ الأداة وليس من قبيل الاستعارة ولا يخفى أن هذا وأمثاله يجرى على المكنية كما جرى على ذلك البلاغيون والباحثون . (٣)

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن سنان يعيب الاستعارة المبنية على غيرها ، ثم يحكم على قول امرىء القيس بأنه من الاستعارات المتوسطة .. وقد لاحظ ابن الاثير هذا التعارض مضيفا إلى ذلك أن تلك الاستعارة على اعتبارها استعارة من قبيل المرضى لوجود التناسب ولا اعتبار لأفراد الاستعارة أو بنائها فى الحكم بالحسن أو بغيره ما دام هناك التلاؤم . (٤)

---

(١) الخصائص جـ ٢ ص ٤٤٧
(٢) اثر النحاة فى البحث البلاغى ص ٣١٧
(٣) الافصاح الاستاذ ـ احمد الحجار ص ١٧٥ ، التصوير البيانى د . ابو موسى ص ١٨٨
(٤) ينظر المثل السائر ص ٢٢٠ وما بعدها .

وقد ظهر من كل ما سبق أن ما ذكره ابن الاثير في تعريف الاستعارة وكذا تمثيله وتحليله المستفيض ينصرف إلى التصريحية خاصة وهو وإن أخرج صور المكنية من الاستعارة إلا أنه تناولها في الاتساع بضربيه دون أن يكون في اتجاهه الخفاء لمشكلات المكنية مع الاستعارة إذ أن التوسع عنده مع كونه مجازا لكنه عراه عن كل فائدة بخلاف التشبيه والاستعارة ومحاولته وصف بعض أمثلته بالحسن لا يفيد ما دام قد جرد التوسع من كل غرض أصلا ولو أن ابن الاثير قدر له الإفادة من جهود المدرسة الخمسوارزمية إلى جانب ما تمتع به من دقة في الاحساس ورهافة في الذوق لأخرج لنا بحثا متكاملا .

مع ابن ابي الاصبع ت : ٦٥٤ هـ [1]

ولئن مضت أساليب المكنية على ما أوضحناه لدى ابن الاثير فان الأمر معها قد يختلف عند ابن ابي الاصبع مع اتفاقهما في بعض الملامح وخاصة فيما يتصل بمراعاة جانب الدراسة الأدبية . وإن أفاد ابن أبي الاصبع من مدرسة عبد القاهر والرازي بالذات على نحو واضح دون أن يلتزم في معالجة صور المكنية بحدود الرازي ومصطلحاته فكيف كانت إذن معالجة ابن أبي الأصبع للمكنية والتخييلية ؟ وهل عنده من جديد ؟

حد الاستعـــارة :

بعد أن أورد تعريف الرماني للاستعارة وذكر اعتراضات الرازي والتي منها عدم اشتماله على التخييلية نقل تعريفي الرازي اللذين سبق إيرادهما [2] وكأنه لم يرض بما قاله الرازي تمام الرضا فعرفها بقوله : (الاستعارة تسمية المرجوح الخفي باسم الراجح الجلي) [3]

---

(١) ينظر مقدمة كتاب بديع القرآن ص ٥٧ وما بعدها .
(٢) نهاية الايجاز ص ٨٢
(٣) بديع القرآن لابن ابي الاصبع تحقيق د . حفني شرف ص ١٩ ط . نهضة مصر .

وصرح بان هذا المعنى وإن كان غير قول فخر الدين – فالعبارة الثانية أرشق •
وهى أيضا أوجز مع أن تعريف الرازى أدق وأعم لتناوله التخييلية صراحة حتى إننـــه
ليعتقد أن تعريف ابن أبى الأصبع لا يدل إلا على التصريحية ويؤكد هذا المعنى
ما أعقب به تعريفه من أنه وإن أدى معنى جعل الشئ للشئ للمبالغة فى التشبيه
إلى آخره .. وجعل الشئ الشئ هو مقتضى التصريحية (١) •

صور المكنية بين أقسام الاستعارة ومصطلحاتهـا :

قسم ابن أبى الاصبع الاستعارة إلى أضرب عديدة وباعتبارات مختلفة أدار بعضا منها على شواهد المكنية كما تدل عليه عبارته وإن لم يرد لهذا المصطلح عنده ذكر مع أنـه اطلع عليه عند الرازى •

وعلى كل حال فقد قسمها أولا إلى مرشحة ومجردة وإن لوحظ اقتصاره فى التمثيل هنا على التصريحية دون ذكر لهذا المصطلح أيضا لكن عبارته تفيد معناها بما يشمـل الأصلية والتى سماها الكثيفة والتبعية والتى عرفت لديه باللطيفة (٢) ثم قسـم كلا من المجردة والمرشحة إلى مالا تفيد سوى الظهور فقط وإلى ما تفيده مع المبالغة والإيجاز وهى مطلوبات الاستعارة عنده ويمثل للنوع الثانى بقوله تعالى " وَاشْتَعَـلَ الرَّأْسُ شَيْبًا " من غير أن يوضح كيفية إجراء الاستعارة منصرفا إلى إثبات اشتمال الآيـة على المعانى السابقة بمالا يخرج عن روح ما نسبه إليه عبد القاهر من أن جمال وحسن تلك الاستعارة لمجيئها وفق مقتضيات النظم • (٣)

وقد رأينا ابن أبى الأصبع يبين وجه الاستعارة فى قوله تعالى " بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) (٤) فيقول : (فالقذف والدمغ مستعاران وهما محسوسان والحق والباطل مستعار لهما وهما معقولان (٥) وكذلك فى قوله تعالى

---

(١) بديع القرآن نفس الموضع السابق
(٢) ينظر تحرير التحبير لابن أبى الاصبع تحقيق د •حفنى شرف ص ١٠٠ ط • نهضة مصر
(٣) يقارن بين الدلائل ص ١٣٢ والبديع ص ٢٠
(٤) سورة الانبياء آية ١٨
(٥) بديع القرآن ص ٢١ ، ٢٢

" أَنَا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ " (١) يقول : (المستعار الطغى وهو الاستعلاء والمستعار منه كل مستعل متكبر متجبر مصر ه والمستعار له الماء ..) (٢)

وأيضا فى قوله تعالى : " وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ " (٣) يقول : (فالمستعار السكوت والمستعار له الغضب والمستعار منه الساكت ' (٤)

وواضح من بيان ابن أبي الاصبع لوجه الاستعارة فى الآيات الكريمة أنها ليست من التصريحية إذ المستعار له على بيانه مذكور وهو الحق والباطل فى الآية الأولى والماء فى الآية الثانية والغضب فى الثالثة . وعلى ذلك تكون هذه الآيات الكريمة على إجرائه من التخييلية حيث استعير القذف للحق والدمغ للباطل والطغى للماء والسكوت للغضب ويؤكد ذلك قول ابن أبى الأصبع فى تعقيبه فى الآية الثالثة (ولما زال الكلام الدال على الغضب حسنت استعارة السكوت للغضب) (٥)

ومع هذا وجدنا محقق الكتاب يعلق على إيضاح ابن أبى الاصبع للاستعارة فى الآية الثالثة فيجريها على التصريحية التبعية ولعل ذلك يمثل وجهة نظره هو على الاحتمال الآخر الجائز فى أمثال تلك الاستعارات .

الاستعارة التخييليـــة :

ذكر ابن أبى الاصبع أن هناك نوعا من الاستعارات يسمى بالتخييلية ولكن لم يورد لها تعريفا خاصا وتبدو إفادته الواضحة هنا ما أشار إليه عبد القاهر وتناوله من بعده الرازى فى حمل بعض المتشابه على تلك الاستعارة وإن امتاز بالإكثار من الأمثلة والتطبيق على آى القرآن بما يفيد أن مراده من التخييلية ما عرف بقرينة المكنية عند غير السكاكى . وقد أجرى التخييلية على بعض الشواهد التى اشتهر اعتبارها من قبيل ألوان بلاغية أخرى من مثل قوله تعالى (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) يقول :

---

(١) سورة الحاقة اية ١١
(٢) بديع القرآن ص ٢٣
(٣) سورة الاعراف اية ١٥٠
(٤) بديع القرآن ص ٢٣
(٥) السابق نفس الصفحة .

(فالمستعار البسط والمستعار منه يد الخلق والمستعار له يد الحق سبحانه وتعالى اللتان يراد بهما ههنا : التصرف فى تلك الارزاق . وذلك تخييل للسامع عند سماع ذلك أن ثم يدين مبسوطتين بالإنفاق ولا يدان فى الحقيقة . ولا بسط على ما يدل عليه الظاهر ... ومن هذا النوع من الاستعارة قوله تعالى " وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ " فإن إثبات الجناح للذل تخييل للسامع أن ثم جناحا يخفض والمراد (والله اعلم) ألِنْ لهما جانبك و تواضع لهما تواضعا يلصقك بالتراب والجامع بين هذه الاستعارة والحقيقة أن الجناح الحقيقى فى أحد جانبى الطائر وأن الطائر إذا خفض جناحه انحط إلى الارض ولصق بالتراب . (١)

وإذا كانت الآية الثانية قد اشتهر اعتبارها فى المكنية فإن الأولى قد اعتد بها فى الكناية على ما يفهم من كلام صاحب الكشاف (٢) وربما اعتد بمثلها فى باب التورية على ما يفهم من كلام السكاكى (٣)

وهكذا يتضح كيف استطاع ابن ابى الأصبع أن يزاوج بين المنهج العلمى والمنهج الأدبى فقد أكثر من التقسيمات على عكس ما يرى البعض (٤) لكنه لم يركن إليهما بل استند إلى الاستشهاد مع التحليل والكشف عن مواطن الجمال . وقد بدا استقلاله حين لم يأخذ بالمصطلحات الخاصة بالاستعارة والتى عرفت عند الرازى وركن إليها السكاكى معاصره . فقد استعمل بعض مصطلحات لم تمهد عند غيره وهو وإن أهمل المكنية كمصطلح لكنه أجرى بعضا من أساليب الاستعارة على مقتضياتها كما أفاض فى بيان الاستعارة التخييلية على ألوان من آى الذكر الحكيم مؤسسا على فكرة عبد القاهر والرازى ولكنه توسع فى التطبيق مع أمثلة اشتهر الحمل فيها على غير التخييلية .

عند العلوى ت ٧٤٩ هـ (٥)

ومع أن العلوى قد جاء بعد السكاكى وفى العهد الذى شغل البلاغيون بما أثاره السكاكى متابعين له فى منهجه وفكره غير أنه يعد من بين البلاغيين القلائل الذين

---

(١) بديع القرآن ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٠٩
(٣) ينظر المفتاح ص ٢٢٦
(٤) الصور البيانية د . حفنى شرف ص ٣٠٤
(٥) تاريخ علوم البلاغة ص ١٣٨

استطاعوا المزج بين الاسلوب العلمي بمقتضياته وأصوله والطريقة الأدبية بخصائصها فجاء الطراز ماثلا لابن الاثير في المثل السائر عرضا وتحليلا وللسكاكي في مفتاحه وللأصوليين تقعيدا وتقسيما ٠

وإذا كان القصد هو البحث عن الكيفية التي عالج بها العلوي أسلوب الكناية فعلينا أن نذكر أن كتاب الطراز إنما أراد به صاحبه أن يكون مقدمة ومدخلا لفهم بلاغة الكشاف والوقوف على أسراره وأغواره (١)

فهل استطاع العلوي أن ينهض بعبء الكشف والبيان لما تضمنه الكشاف من أصول تتصل بالكناية ؟

والحق أن العلوي قد شغل نفسه كثيرا بالتحديد والتقسيم والتفريع وأنفق جهدا غير قليل في مناقشة البلاغيين والاعتراض عليهم في تعاريف الاستعارة عندهم لأنها كما يرى لم يتوافر فيها أصول التعريفات وقيوده ولا غرابة فهو عالم أصولي تثبت قبل أن يكون بلاغيا وإن كنا نشعر أن مراعاته لهذا الجانب لم تحنه على تبصر ما في الكشاف من تحليلات أدبية عالية ولمحات بلاغية بل ربما أدى به ذلك الحرص الشديد على التقسيم والتقعيد والتفريع إلى ما نلاحظه كثيرا من تكرار يصل أحيانا إلى حد التضارب في مواقفه بحيث يصعب على الباحث الوصول على جهة اليقين إلى حقيقة مراده. فقد تناول أسلوب الكناية في كلا القسمين اللذين يشتمل عليهما كتابه وهما القسم المتضمن لأسرار البلاغة والآخر المتضمن لأسرار الإعجاز ، كما تناوله أيضا في مواضع عديدة ، في كل منهما تحت تقسيمات عدة وألوان مختلفة كذلك وقد قرر العلوي وقوع المجاز في القرآن والحديث وفصيح الكلام رادا على المنكرين ومستشهدا بما يرجع بعضه إلى الكناية (٢) ودون أن يذكر هذا المصطلح أصلا مع أن السكاكي قد استخدمه أخذا عن أستاذه الرازي وهو من غير شك قد اطلع على نهاية الإيجاز ونقل عنه

---

(١) ينظر الطراز للعلوي جـ٢ ص ٥ ، والبلاغة القرآنية ص ٥٩٤

(٢) ينظر الطراز جـ١ ص ٤٤ ، ص ٨٣

ولكن العلوى يستخدم مصطلح الاستعارة التخييلية أو الخيالية أو التخييل .

تعريف الاستعارة التخييلية :ـ

والاستعارة عند العلوى من أشرف ما يعتد فى القواعد المجازية وأرسخهـا عرقا فيه [١] وقد أورد لها خمس تعريفات بدأها بتعريف الرمانى مبطلا له بما سبق أن أبطله به الرازى غير أنه لم يشر إلى ما سبق به الرازى من عدم شموله للتخييلية [٢] ثم نقل تعريفين لابن الأثير نقضهما أيضا لانه ذكر فى أحدهما ضرورة طى المنقول إليه وهذا عنده فاسد لأن بعض أنواع الاستعارات لا يقدر فيها مطوى ولا يتوهم عليه وإن ذكر المطوى خرج بإظهاره الكلام عن رتبة البلاغة مستشهدا لكلامه بقوله تعالى (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) " (فأنت لو أبرزت ههنا ذكر المستعار له وقلت : واخفض لهما جانبك الذى يشبه الجناح لاخرجت الكلام عن ديباجة الفصاحة فظهر بما ذكرناه أن اعتبار المطوى يخرج بعض الاستعارة عن كونها استعارة) ثم نقل تعريف الرازى معترضا عليه بأمور تعود إلى افتقاده بعض أحكام التعريفات [٣]

وبعد ذلك يذكر تعريفا يرى أنه الصواب (والمختار أن يقال : تصيير الشىء الشىء وليس به وجعلك الشىء للشىء وليس له بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه لا لفظا ولا تقديرا) .

وهذا التعريف لا يفترق عن تعريف الرازى سوى القيد الاخير وإن افتقد شرط المبالغة فى التشبيه .

وقد فسر العلوى تعريفه مبينا أنه يشمل نوعى الاستعارة التصريحية والتخييلية كما يشهد لذلك تمثيله وإن لم يرد للتصريحية ذكر وقد استشهد للنوع الثانى بقوله : انشبت اظافرى بفلان [٤]

(١) ينظر السابق جـ٢ ص ٣٣٤
(٢) ينظر نهاية الايجاز ص ٨٢ والطراز جـ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩
(٣) ينظر الطراز جـ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠١
(٤) ينظر السابق ص ٢٠٢ وما بعد .

تقسيم الاستعارة إلى محققة وخيالية :

قسم العلوي الاستعارة إلى حقيقية وخيالية وأراد بالأولى ما عرف بالتصريحية وبالثانية التخييلية على معنى يكاد يتفق مع ما أراده السكاكي بها [(١)] على ما سيأتي تفصيلا .

يقول العلوي : (وأما الاستعارة الخيالية الوهمية ، (فهي) أن تستعير لفظا دالا على حقيقة خيالية تقدرها في الوهم ثم ترد فيها بذكر المستعار له إيضاحا لها وتعريفا لحالها) كقول أبي ذؤيب المشهور لأنه لما شبه المنية بالسبع في عدوانها على الانسان جعل لها مخالب ليزداد أمر التخييل ويكثر .

ثم ذكر أن من الاستعارة التخييلية الآيات الدالة على التشبيه كقوله تعالى " بل يداه مبسوطتان " وقوله " ويبقى وجه ربك " وعقب بقوله ومن أجل ذلك زل كثير من الفرق في اعتقادها جواز الأعضاء على الله تعالى : وحلول المكان والجهة وغير ذلك من الظواهر النقلية التي تشعر ظواهرها بذلك فإنهم لما لم يفهموا هذه الاستعارة وجهلوا حالها ، وقعوا في أودية التهويس من إعتقاد التشبيه ، وتَوَهُّم كل ضلالة في ذاته تعالى فمن ههنا كان السبب في ضلال المشبهة فأما المنزهة فلهم فيها تأويلات ركيكة بعيدة) [(٢)]

والحق أن هذه المسألة كانت مثار جدل ونقاش حيث إختلفت وجوه التأويل عند علماء البيان وكذا علماء الكلام .

فقد سبق أن ذكر عبد القاهر والرازي وابن أبي الاصبع دخول بعض آيات المتشابه في التخييلية على اختلاف بينهم في مفهومها [(٣)] وأما السكاكي فقد رأيناه يحمل أكثرها على التورية [(٤)]

---

(١) ينظر المفتاح ص ١٧٨
(٢) الطراز جـ ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣
(٣) ينظر دلائل الاعجاز ص ٥٧ ونهاية الايجاز ص ١٥٢ ، بديع القرآن ص ٢٣ ، ٢٤
(٤) المفتاح ص ٢٠٢

وأما السلف ومن يسلكون طريقتهم فقد رأوا ان هذه الألفاظ من نحو العين والوجه والاستواء إذا أضيفت إلى الله تعالى تكون حقيقية فى المعنى المراد وصف الله تعالى به لا مجازا وهذه الحقيقة لا يشاركه فيها تعالى غيره لأنها خاصة به كما أنها إذا أضيفت إلى الانسان تكون حقيقة فيه لا مجازا وخاصة به فالحقيقتان مختلفتان لاختلاف الذاتين الموصوفين بهما لأنه تعالى "ليس كمثله شىء" فعلى هذا التأويل لا مانع من أن يكون لله جل وعلا يد وعين واستواء لكن على معنى مناسب لكمال ذاته وتستحق هذه الصفات من الجلال والكمال ما وجب لذاته تعالى (١)

ومع كثرة تلك الآراء واختلاف وجوه التأويل إلا إنه لم يسلم وجه من نقاش ومعارضة الأمر الذى لا يعنينا الوقوف عنده تفصيلا وقد كتبت فيه بحوث ودراسات فليرجع إليها من أراد) (٢)

لكن الذى يهمنا ما قال به صاحب الطراز فإذا كان الظاهر والصريح من كلامه حمل جميع آيات المتشابه على التخييلية بمفهومها عنده فلنا أن نتساءل ؟ كيف يمكن إجراء الاستعارة وما بنيت عليه من تشبيه فى تلك الآيات الكريمة ونظائرها اللهم إلا على ضرب من التكلف لا يقره عليه كل ذى ذوق سليم وعقيدة صحيحة ولا ندرى كيف غفل العلوى عن هذا الأمر ؟

التخييل والتخييلية :

وقد ذكر العلوى التخييل فى دراسة البديع وقد أشار إلى أهمية هذا الفن وضرورته لأن كثيرا من آيات القرآن دائرة على طريقته وقد جهل بعض الناس هذه الطريقة فوقعوا فى التشبيه وهاموا فى أودية الضلال (٣)

وقد ذكر فيه تقريرين الأول فى بيان معناه والثانى فى بيان أمثلته ، وأورد تعريف صاحب التبيان ثم تعريف المطرزى ثم قال والتعريف الثالث أن يقال هو اللفظ الدال بظاهره على معناه والمراد غيره على جهة التصوير ثم شرح التعريف .

---

(١) ينظر ابن تيمية وموقفه من التأويل ص ٤٧٦
(٢) انظر ابن تيمية وموقفه من التأويل وابن تيمية ليس سلفيا للشيخ منصور عويس
(٣) الطراز جـ٢ ص ٥٤ ،

وبعد ذلك ذكر أمثلة التخييل ويلاحظ أن العلوى نقل هنا بعض الأمثلة القرآنية من باب المتشابه الذى سبق أن تناوله على أنه من قبيل الاستعارة التخييلية .

وباقى الأمثلة التى أتى بها هنا تعود إلى باب المتشابه أيضا وقد ذكر أن للعلماء فى مثل ذلك تأويلين الأول لعلماء الكلام من الزيدية والمعتزلة فانهم يؤولون هذه الظواهر تأويلات وإن تعددت . حذراً من مخالفة العقل ويعضدون تأويلاتهم بأمور لغوية . وأما البيانيون فانهم فهموها على معانيها اللغوية فى كونها دالة على هذه الجوارح لكنهم قالوا إن الجارحة خيالية غير محققة .

(وإذا كان البيانيون قد أطلقوا هذه الكلمات على معانيها اللغوية إلا أنهم قالوا إن الجارحة هنا خيالية غير متحققة فكيف يكون اللفظ هنا دالا بظاهره على معنى والمراد غيره على جهة التصوير كما ذكر فى التعريف؟ وهل يكون إطلاق لفظ الرجل على رجل متخيل غير حقيقى إطلاقا له على غير معناه ؟

ولو سلمنا له بهذا فهل يمكن أن يكون ذلك مراد البيانيين بالتخييل (١) والحق أن العلوى مع تنبيهه على أهمية التخييل ومع أن كلامه قريب من كلام الزمخشرى إذ هو متأثر به لكنه لم يفهم حقيقة مراده .

وعلماء البيان إنما يقع فهمهم أول شىء وآخره على الزبدة والخلاصة من هذه الأساليب دون أن يذهبوا بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز . فليس الذى ذكره العلوى فى تفسيره مراد علماء البيان بالتخييل هو ما نفهمه من كلام الزمخشرى على ما مر بشىء من التفصيل عند الحديث عن صاحب الكشاف .

وقد ذكر الخفاجى أن للتخييل عند علماء البلاغة ثلاثة معان . وليس شىء فيها منطبقا على ما ذكره العلوى : وإنما هو أشبه ما يكون برأى السكاكى فى قرينة المكنية (٢) وربما اتضح ذلك أكثر من تمييزه بين التحقيق والتخييل فى الاستعارة وجواز الجمع بينهما فى مثال واحد .

---

(١) البلاغة القرآنية د . ابو موسى ص ٦٢٤

(٢) البلاغة القرآنية ص ٦٢٥

وقد ذكر العلوى أنه ربما اجتمع التحقيق والتخييل بحيث يمكن إجراء المثال على أيهما . وذكر من شواهد ذلك قوله تعالى "وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ" فإذا جعلته من باب التخييل فتقريره هو أن الله تعالى أمر الولد أن يلين لهما جانبه . ويتواضع لهما فاستعار لفظ الجناح مشبها به على التخييل فى الاستعارة بطريق المبالغة فى طلب أن يكون الولد لأبويه كالطائر لفرخه فى فرط حنوه عليه وتعطفه على محبته فجعل الذل طائرا ثم أخذ الوهم فى تصوير ما للمستعار من الآلات والجوارح ثم أضاف اسم الجناح إلى الذل رعاية لمزيد البيان وإفراطا فى تحصيل البلاغة . وإذا جعلناه من باب التحقيق فتقريره : أنه لما أراد المبالغة فى لين الجانب للأبوين من جهة الولد استعار لفظ الجناح للتذلل والتواضع ونزله منزلة الجناح فى التصاقه بالتراب وإسباله فى التغطية للفرخ . مبالغة فى لين العريكة وحسن التذلل للوالدين) (١)

ولا ريب أن تحليل العلوى قائم على أساس ذوقى يدل على لمحة أدبية صادقة وإن كنا نلاحظ أن تحليله على التخييل يجرى على طريقة السكاكى فى التخييلية كما أشرنا من قبل .

ونشعر بشىء من التراجع من العلوى عما سبق أن أخذ به ابن الاثير حيث جعل من حق الاستعارة وأحكامها الخاصة أن يطوى ذكر المستعار له وعلى هذا فلا مدخل للمكنية فى الاستعارة عنده أصلا .

وهو وإن تابع ابن الاثير فى إخراج المكنية من الاستعارة - إن صح هذا الفهم - يكون غير معتد بما قال به السكاكى وجمهور المتأخرين فضلا عما سبق به الكشاف كما يبرز فقدان الدقة عنده أيضا حين نقل عن ابن الاثير بيانه للاستعارات فى قوله تعالى " فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ" حيث ذكر أن فى الآية أربع استعارات وبناء على إيضاحه لا يكون هناك استعارات أصلا إما لعدم وجود مشابهة أو لوجود الطرفين .

(١) الطراز جـ ١ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢١٠ ، ٢١١

الفرق بين المحققة والخيالية :-

يفرق العلوى بين الاستعارة الحقيقية والخيالية بأن المحققة مالا يفهم منها معنى التشبيه لا على قرب ولا على بعد ، وأما الخيالية فهى التى يفهم منها معنى التشبيه الذى لا يكاد يدرك فى الوجود ويكون مقصورا فى الخيال (١)

ويلاحظ أن العلوى كثيرا ما يجرى الشواهد على طريق التصريحية فى حين أن الظاهر فيها الإجراء على المكنية (٢) كما أنه ربما آل إجراؤه لبعض الصور إلى المكنية (٣) وحسن الاستعارة عنده تابع لخفاء التشبيه وقيمتها لتنافى ما بين طرفيها ويكاد أن ينقل ذلك بأمثلته عن ابن الاثير .

ويتضح مما مر أن العلوى لم يستعمل مصطلح المكنية كما لم يجر عليها فى وضوح ، وإن استخدم التخييلية على معنى يقترب ومفهوم السكاكى كما أنه حمل آيات المتشابه عليها مخالفا فى طريقته منهج المتأخرين حيث لم يكن متابعا طريقتهم فى البحث .

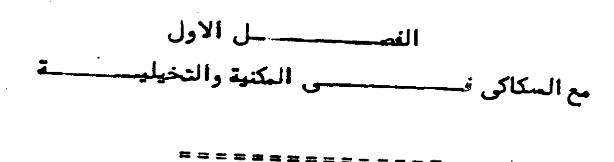
---

(١) ينظر الطراز جـ١ ص ٢٢٨ ، ٢٥٩
(٢) ينظر الطراز جـ١ ص ٢١٤ وما بعدها .
(٣) ينظر السابق جـ١ ص٢٢٧ ، جـ٣ ص٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧

الباب الثالث

مذاهب المكنية وصورها

الفصل الاول :
مع السكاكى فى المكنية والتخيلية .
الفصل الثانى :
مذاهب المكنية بعد السكاكى .
الفصل الثالث:
صور المكنية



الفصـــــل الاول

مع السكاكى فـــــى المكنية والتخييليـــة

===============

تمهيد :

نحن نعلم أن عبد القاهر قد أنبح إلى طريقة المكنية وهو يبسط القول في أسلوبها بيانا لما عرف بعده بالتخييلية .

كما أنه عرض للاستعارة التبعية وبحث المجاز العقلي على أنهما لونان متمايزان عن أسلوب المكنية .

ثم جاء الزمخشري متابعا لعبد القاهر في التبعية والمجاز العقلي مع اختلافه معه في المكنية على ما بينا ، حتى أتى الفخر الرازي فخص لكل فن فصلا أو فصولا وكان له الفضل في مصطلح الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية ، وغيرهما من مصطلحات الاستعارة .

فلما جاء السكاكي وقد اطلع على كل تلك الجهود ، وقرأها قراءة تدبر وإمعان لم يكتف بأن يتناولهما عرضا وتحليلا أمينا بل أراد أن يكون له فهمه الخاص والمتميز لكل من المكنية والتخييلية ثم رأيه في رد كل من التبعية والمجاز العقلي إلى المكنية .

"مع السكاكي في المكنية والتخييلية"

ومحاولة البحث عن حقيقة منزع السكاكي في المكنية تستدعي الرجوع إلى رأيه في الحقيقة والمجاز والاستعارة عموما تحديدا أو تقسيما حتى يكون ذلك عونا على فهم مراده إلى جانب اعتباره أصلا فيما دار من مناقشات :

الحقيقـــة :

عرف السكاكي الحقيقة بثلاث تعريفات ترد إلى أصل واحد ، فالحقيقة عنده : هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع ، أو هي الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة ولك أن تقول : الحقيقة هي الكلمة المستعملة في معناها بالتحقيق .

وذكر أنه أخرج بقيد عدم التأويل الاستعارة إذ هي على أصح القولين ، والمختار عنده مجاز لغوي وهي عنده وإن كانت مستعملة فيما وضعت له لكن بتأويل ادعاء دخول

المشبه فى جنس المشبه به بجعل أفراده قسمين ، متعارف وغير متعارف على تفصيل يأتى فيما بعد .

ومراده بقيد التعريف الأول تبين ما قصده فى تقييده التعريف الثانى بالدلالة الظاهرة ، وكذا قيده التعريف الثالث بالتحقيق على ما يفهم .

المجاز :

وأما المجاز عنده فهو الكلمة المستعملة فى غير ما هى موضوعة له بالتحقيق استعمالا فى الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إرادة معناها فى ذلك النوع .

ولك أن تقول : المجاز هو الكلمة المستعملة فى غير ما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة استعمالا فى الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إرادة ما تدل عليه بنفسها فى ذلك النوع .

ولك أن تقول : المجاز هو الكلمة المستعملة فى معنى معناها — وعقب بأن تقييده بالتحقيق احتراز حتى لا تخرج الاستعارة التى هى من باب المجاز نظرا الى دعوى استعمالها فيما هى موضوعة له (١) .

وهنا اعتراضات أوردها الخطيب (٢) وناقشها السعد (٣) .

تعريف الاستعارة :

أراد السكاكى على طريقته فى الضبط أن يأتى بتعريف للاستعارة مستوعب لأقسامها على مفهومه فيها ، فذكر أن الاستعارة " هى أن تذكر أحد طرفى التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه فى جنس المشبه به دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به " (٤) .

---

(١) ينظر المفتاح ص ١٦٩ .
(٢) ينظر الايضاح ص ١٧٨ والتلخيص ص ٢٩٢ وما بعدهما .
(٣) المطول ص ٣٨٦ .
(٤) المفتاح ص ١٧٤ .

وظاهر أن هذا التعريف على طوله يجمع أنواع الاستعارة عنده وهى التصريحية بأقسامها الثلاثة التحقيقية مع القطع ، والتخييلية مع القطع أيضا والمحتملة للتحقيق والتخييل إلى جانب القسم الثانى وهو المكنية .

ثم خص لكل من تلك الأنواع حديثا خاصا به ، فالتحقيقية مع القطع هى التى يكون المشبه المتروك شيئا متحققا إما حسا وإما عقلا وهى مراد غيره بالتصريحية وأما التخييلية فهى التى يكون المشبه المتروك أمرا وهميا محضا لا تحقق له إلا فى مجرد الوهم على ما سنفصله عند الحديث عن قرينة المكنية عنده .

وأما المحتملة لكل من التحقيق والتخييل فقد مثل لها بما سبق أن ذكره الإمام عبد القاهر وهو قول زهير بن أبى سلمى .

" وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُهُ "

متأثرا بعبد القاهر فى التحليل وإن اختلف معه فى التوجيه والاصطلاح (١)

" المكنية " :

عرف السكاكى الاستعارة بالكناية — بما لم تعهد عند سابقيه — يقوله : هى أن يذكر المشبه وتريد به المشبه به دالا على ذلك بنصب قرينة تنصبها (٢) وسبق للسكاكى أن أوضحها تمثيلا عقب تعريفه للاستعارة بقوله: (كما تقول فى المنية أنشبت أظفارها وأنت تريد بالمنية السبع بادعاء السبعية لها . وانكار أن تكون شيئا غير سبع ، فتثبت لها ما يخص المشبه به وهو الأظفار " (٣)

ايضاح لمذهب السكاكى :

ولايضاح ما ذهب إليه السكاكى على ضوء ما مثل به أقول : انه بعد تشبيه معنى المنية . أعنى الموت بالسبع يدعى على طريق المبالغة فى التشبيه أن الموت قد أصبح

---

(١) المفتاح ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٩ .
(٣) المصدر السابق ص ١٧٤ .

هو عين السبع ، وأنه قد صار فردا من أفراد جنسه غير خارج عن حقيقة ذلك الحيوان وعلى هذا الاعتبار يصبح وكأن للسبع فردين وهما الحيوان الحقيقي ثم المدعى الموت ثم يستعار لفظ المنية بمعناه الأصلي ، أي الموت الحقيقي الذي لم يدع أنه سبع يدعى فيه أنه اتحاد مع السبع ولم يدخل فيه تجوز يستعار ذلك للموت الادعائي بدليل نسبة ما للمشبه به الحقيقي وهو الأظفار إلى المشبه الحقيقي .

وبناء على هذا الايضاح يكون لفظ المنية مستعملا في الموت ادعاء فيكون مستعملا في غير ما وضع له بالادعاء .

وبعد هذا الايضاح نشعر وكأن مفهوم السكاكي للمكنية على شيء غير قليل من الغموض والتعقيد كثيرا ما يوقع في اللبس تبرز من ورائه إشكالات . ولذلك نزيد الأمر وضوحا بتقرير مذهبه على مثال آخر . ففي قوله تعالى " وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، يكون الذل عنده مرادا به الطائر بادعاء أنه عينه بقرينة إضافة الجناح الذي هو من خواص الطائر ولوازمه إليه .

فليس المراد من الذل عنده مجرد الخضوع حتى يكون مستعملا في معناه الحقيقي ، بل الذل المفروض أنه عين الطائر وهو غير الموضوع له ، والجناح استعارة تخييلية على معنى يأتي إيضاحه قريبا .

مناقشات حول مذهب السكاكي :

من الطبيعي أن يثير مذهب السكاكي حوله كثيرا من المناقشات والجدل والمعارضة لمخالفته الواضحة كلام الائمة كعبد القاهر والزمخشري والفخر الرازي . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لما في هذا المذهب من تعقيد وغموض . يضاف إلى ذلك أن اختلاف المتأخرين من أصحاب الشروح والحواشي والتقريرات في فهم كلام السكاكي وتأويل مراده قد أدى إلى ظهور هذا المذهب على نحو من التعسف والتكلف الشديد . ومن هنا قوبل هذا الرأي بالرفض من البلاغيين والباحثين (١) .

---

(١) ينظر الايضاح ص ١٨٠ وحاشية البيجوري على السمرقندية ص ٣٢ وعلوم البلاغة للمراغي ص ٢٤٦ والفخر الرازي ، البلاغة العربية ص ٢٢٨ والبيان بين عبد القاهر والسكاكي ص ٢١٠ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٣٠٦ ، والصور البيانية ص ٣٢٦ .

الاعتراضات التى تدفع بها مسلك السكاكي عديدة, لكن لما كان الكثير منها قد بنى على أصول جدلية لا تفيد كثيرا فى جانب البحث البلاغى الخالص عمدت الى ذكر أهم وأقوى تلك الاعتراضات وهو ما اعترض به الخطيب .

اعتراض الخطيب .

رد الخطيب مذهب السكاكي فى المكنية بوجه قوى وإن حاول بعض الشراح كالعلامة سعد الدين والعصام وغيرهما مناقشته والجواب عليه وخلاصة هذا الاعتراض : —

أن لفظ المشبه مستعمل فيما وضع له تحقيقا للقطع بأن المراد بالمنية هو الموت لا غير، غاية الأمر أنا ادعينا اتحاد الموت بالسبع . والاستعارة ليست كذلك لأن السكاكي فسرها بأن تذكر أحد طرفى التشبيه وتريد الطرف الآخر ..

وفى ذلك يقول الخطيب (وفيه نظر للقطع بأن المراد بالمنية فى البيت هو الموت . لا الحيوان المفترس فهو مستعمل فيما هو موضوع له على التحقيق وكذا كل ما هو نحوه ، ولا شيء من الاستعارة بمستعمل كذلك . وأما ما ذكره فى تفسير قوله من أنا ندعى ها هنا أن اسم المنية . اسم للسبع مرادف للفظ السبع بارتكاب تأويل وهو أن تدخل المنية فى جنس السبع للمبالغة فى التشبيه ثم تذهب على سبيل التخييل إلى أن الواضع كيف يصح منه أن يضع اسمين لحقيقة واحدة ولا يكونان مترادفين ، فيتهيأ لنا بهذا الطريق دعوى السبعية للمنية مع التصريح بلفظ المنية . فلا يفيد، لأن ذلك لا يقتضى كون اسم المنية غير مستعمل فيما هو موضوع له على التحقيق من غير تأويل، فيدخل فى تعريفه للحقيقة ويخرج عن تعريفه للمجاز)[1] .

وقد بلغ من اهتمام المتأخرين باعتراض الخطيب هذا أن جاء به بعضهم فى صورة قياس مركب من الشكل الثانى ونظمه هكذا : لفظ المشبه مستعمل فى معناه . ولا شيء من الاستعارة بمستعمل فى معناه ينتج لا شيء من لفظ المشبه باستعارة .[2]

---

(١) الايضاح ص ١٨٠ .
(٢) ينظر حاشية البيجورى على السمرقندية ص ٣٢ .

جـواب الســعد :ـ

يسلم السعد بكل ما قاله السكاكي في جوابه غير أنه يوافق الخطيب في عدم دفع الاعتراض به ويورد عددا مما يمكن أن يكون جوابا ويبطله ثم يذكر ما يراه الوجه في الجواب وإن اعترف بعدم سلامته من التكلف .

وخلاصة ما قاله أن قيد الحيثية ملاحظ في تعريف الحقيقة بالكلمة المستعملة فيما وضعت له من حيث إنه موضوع له بالتحقيق ، فلفظ المنية هنا مستعمل في الموت من حيث إنه عين السبع لا من حيث إنه موضوع له بالتحقيق كقولك : نشبت منية فلان (١) .

وظاهر أن في هذا الجواب تعقيدا وغموضا ثم إنه وإن خرج باعتباره لفظ المنية (المشبه) من الحقيقة إلا أن تحقيق كونه مجازا عن الطرف الآخر (المشبه به) غير ظاهر (٢) .

جـواب العصـام :ـ

وقد أجاب العصام على أصل الاعتراض السابق بأن المنقسم إلى الاستعارة بالكناية والاستعارة المصرحة ليس استعارة من قسم المجاز بل ما يطلق عليه الاستعارة فلتكن الاستعارة بالكناية حقيقة . وهذا التقسيم منه كتقسيمه المجاز إلى المجاز العقلي والمجاز اللغوى بعد تعريفه المجاز بالكلمة المستعملة في غير ما وضعت له بالتحقيق في اصطلاح التخاطب ـ ولا شبهة أن المنقسم ما يطلق عليه المجاز لا المجاز بالمعنى المشهور (٣) .

وأما وجه تسميتها استعارة على ذلك : فلأن الكلمة قد استعملت في المشبه به المدعى وأما وجه كونها مكنية . فلكونها حين استعملت فيما وضعت له وأضيف إليها اللازم . كان في ذلك نوع خفاء . والكناية خفاء (٤) .

---

(١) ينظر المطول ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .
(٢) ينظر حاشية الخضرى ص ١٠٠ .
(٣) الاطول ص... البيانية ص ٢٧٦ .
(٤) ينظر حاشية الامبابي على رسالة الصبان ص ٣٧٤ .

وما أجاب به العصام وإن ساغ قبوله من حيث هو ولو على وجه ما . الا أنني أرى فيه مخالفة لما عليه المكنية عند السكاكي إذ هي عنده من غير شك من قبيل التجوز اللغوى وذلك واضح من تقييده حدود كل من الحقيقة والمجاز ثم إن السكاكي صرح بعد تقرير مذهبه فى ردة المجاز العقلى إلى المكنية بقوله:(وإنى بناء على قولى هذا ههنا قولى ذلك فى فصل الاستعارة التبعية . وقولى فى المجاز الراجع عند الأصحاب إلى حكم الكلمة على ما سبق أجعل المجاز كله لغويا . وينقسم عندى هكذا إلى مفيد وغير مفيد . والمفيد إلى استعارة وغير استعارة والاستعارة إلى مصرح بها ومكنى عنها)(١) .

فكلام السكاكي هنا قاطع بأن المكنية من المجاز وأما القياس على المجاز العقلى فقياس مع الفارق . لأن تناوله لهذا الاسلوب على أنه من قبيل التجوز العقلى إنما كان على رأى الاصحاب كما هو صريح كلامه أيضا .

ويقول أستاذنا الدكتور جلال الذهبي معقبا على مذهب صاحب المفتاح فى المكنية (ورأيى أن هذا مذهب واهٍ لأن السكاكي ، بناء على هذا — استعار لفظ — المنية العام — للمنية المدعى أنها سبع ، والمستعار والمستعار له فى هذا لم يجر بينهما تشبيه ، فنحن لم نشبه المنية — المدعى أنها سبع بالمنية التى لم يدع فيها ذلك . هذا إلى إن المستعار وهو — المنية من معناها العام — مذكور فى الكلام ، وعليه فكيف تكون مكنية ؟)(٢) .

وأما استاذنا الدكتور على البدرى فيقول :(ومذهب السكاكي مردود لمخالفته للواقع ، لأن الشاعر حين قال (وإذا المنية أنشبت أظفارها) قد استعمل لفظ المنية فى معناها ولم يستعملها فى المشبه به . ونقل المنية من مطلق موت إلى موت بأنياب السبع . يكون مجازا مرسلا لا استعارة مكنية .

وحديثنا هنا فى الاستعارة لا فى المجاز المرسل .

---

(١) المفتاح ص ١٨٩ .

(٢) الفخر الرازى والبلاغة العربية د . جلال الذهبي ص ٢٢٨ .

ثم إنه يقول : لفظ المشبه المستعمل فى المشبه به ثم يصرح بالمشبه،هذا جديرٌ بجعل الاستعارة تصريحية) (١) .

لكن استاذنا الدكتور محمد أبو موسى يعبر عن وجهة نظره تجاه هذا الرأى يقوله : — (وليس هذا فى الحقيقة تكلفا يبعد عن روح الأساليب ومجازاتها . وما يجرى فى خيال الشعراء وأهل الفصيح ، لأن السكاكى نظر إلى ضرب من ضروب الخيال يجرى على ألسنة الناس حينما يقولون هذا ملاك فى صورة إنسان ، أو شيطان فى مسلاخ آدمى ، أو أسد فى إيهاب رجل — كما يقول المتنبى :

نَحْنُ قَوْمٌ مِنَ الْجِنِّ فِى زِىِّ نَاسٍ ... فَوْقَ طَيْرٍ لَهَا شُخُوصُ الْجِمَالِ

وكل هذا مبنى على أساس خيالى هو توزيع الجنس على نوعين . نوع معروف هو الشيطان أو الملاك — ونوع غير معروف هو الملاك الذى فى صورة إنسان ، أو الشيطان الذى فى مسلاخ آدمى ، أو الأسد الذى فى إيهاب إنسان . وكأن هؤلاء الأفراد الذين تراهم شياطين مثلا وسّعوا مدى الجنس الشيطانى ، وأفسحوا له أفقا جديدا ، فصارت مملكة الشياطين تضم نوعا جديدا هم الشياطين فى صورة الأفراد المذكورين) (٢) .

والحق أن مذهب السكاكى على كثرة ما قيل حوله لم يظهر على النحو الذى يبعد عنه الشبه إلى الحد الذى يمكن معه الاطمئنان إلى قبوله التطبيق على النص الأدبى فى غير عناء وذلك مرده فى الحقيقة إلى أن السكاكى لم يبسط مذهبه فى وضوح مما ساعد على وقوع اللبس فى فهم كلامه وتأويل مراده .

وإذا كان الظاهر والصريح اختلاف مذهب السكاكى فإن ذلك لم يمنع البعض من بذل الجهد ومحاولة إيجاد طريق يمكن به التوفيق بين مذهب السكاكى والمذهب المنسوب إلى الجمهور .

---

(١) البيان بين عبد القاهر والسكاكى . د . على البدرى ص ٢١٠ .
(٢) التصوير البيانى د . محمد ابو موسى ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

ولكن لما لم نكن بعد قد تناولنا مذهب الجمهور آثرنا إرجاء الحديث عن محاولة التوفيق الآن .

وحديثنا عن الكناية عند السكاكي يستتبع بالضرورة الحديث عن حال قرينتها عنده . فقد كان له فيها آراء واتجاهات خاصة ومتميزة خالف في معظم جوانبها ما عهدناه عند السابقين وخالفه فيها أيضا معظم اللاحقين .

قرينة المكنية عند السكاكي

المكنية نوع استعارة والاستعارة فرع مجاز . وكل مجاز لابد أن يصحبه قرينة دالة على المراد .

ومضى أن عبد القاهر قد بحث ما أسمى بالتخيلية التي جعلت قرينة المكنية مرادا بها إثبات ما ليس للشيء له كاثبات اليد للشمال . فهي من قبيل التجوز في الإسناد . وعلى هذا جرى الزمخشري والرازي وجمهور المتأخرين وإن خالف صاحب الكشاف في تجويزه مجيء قرينة المكنية تصريحية على التفصيل الماضي .

وأما السكاكي فقد خالف فيما تحصل به القرينة إلى جانب تفرده بتفسير له خاص في مفهوم التخيلية وطريقة التجوز فيها . وعلاقتها بالمكنية .

فعند صاحب المفتاح أن قرينة المكنية قد تكون استعارة تخييلية أو حقيقية أو تحقيقيه على نحو يستوجب التفصيل .

أولا قرينة المكنية استعارة تخييلية .

ذكر السكاكي عقب تحديده لمراده من الاستعارة بالكناية مبينا القرينة التي تنصب معها (وهي أن تنسب إليه وتضيف شيئا من لوازم المشبه به المساوية مثل أن تشبه المنية بالسبع ثم تفردها بالذكر مضيفا إليها على سبيل الاستعارة التخييلية من لوازم المشبه به مالا يكون إلا له ليكون قرينة دالة على المراد فتقول مخالب المنية نشبت بفلان طاويا لذكر المشبه به . وهو قولك: الشبيه بالسبع) (١) .

وما يعنينا من هذا النص الآن إنما هو مجيء قرينة المكنية تخييلية . وقد سبق للسكاكي أن أوضح أن الاستعارة التخييلية تعد قسما من المصرحة . وبين المراد بها عنده بقوله أن يكون المشبه المتروك شيئا وهميا محضا . لا تحقق له إلا في مجرد الوهم(٢).

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٧٩ .
(٢) السابق ص ١٧٦ .

ثم جعل الاستعارة التخييلية قسمين · سمى الأولى تخييلية مع القطع والثانية تخييلية مع الاحتمال · ثم خص كلا منهما بفصل مستقل أبان فيهما مراده من كل منهما ·

ولما كان حديث المفتاح عن التخييلية ومفهومها قد أثار جدلا يتصل اتصالا وثيقا بالمكنية احتاج الأمر إلى شيء من التفصيل نبدوءه بإيضاح صاحب المذهب نفسه ·

يقول السكاكي : (هي أن تسمى باسم صورة متحققة صورة عندك وهمية محضة تقدرها مشابهة لها مُفْرِدا في الذكر في ضمن قرينة مانعة عن حمل الاسم على ما يسبق منه إلى الفهم من كون مسماه شيئا متحققا · وذلك مثل أن تشبه المنية بالسبع في اغتيال النفوس وانتزاع أرواحها بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرار ولا رقة لمرحوم ومساس بقيا على ذي فضيلة تشبيها بليغا حتى كأنها سبع من السباع · فيأخذ الوهم في تصويرها في صورة السبع واختراع ما يلازم صورته ويتم بها شكله من ضروب هيئات وفنون جوارح وأعضاء · وعلى الخصوص ما يكون قوام اغتيال السبع للنفوس بها وتمام افتراسه للفرائس بها من الأنياب والمخالب · ثم تطلق على مخترعات الوهم عندك أسامي المتحققة على سبيل الأفراد بالذكر وأن تضيفها إلى المنية قائلا : مخالب المنية أو أنياب المنية الشبيهة بالسبع ليكون إضافتها إليها قرينة مانعة من إجرائها على ما يسبق إلى الفهم منها من تحقق مسمياتها) (١) ·

فالتخييلية مع القطع عند صاحب المفتاح ما كان المستعار فيها غير محقق لا حسا كاستعارة الأسد للشجاع · ولا عقلا كاستعارة النور للبيان · بل هي صورة وهمية خالصة لا يشوبها شيء من التحقق ففي استعارة (جناح الذل) يكون الجناح فيها عنده استعارة تخييلية بمعنى أن لفظ الجناح استعير لأمر تخييلي وهمي · لأنه لما استعمل الذل في الخضوع المتحد مع الطائر ادعاء أخذ الوهم يخترع له صورة مثل صورة الجناح واستعير لفظ الجناح لذلك استعارة تصريحية تخييلية ·

---

(١) السابق ص ١٧٨ ·

وجه المناسبة بين هذا المصطلح ومسماه عند السكاكي :

وواضح أن هناك تلاؤما بين كل من أجزاء هذا التركيب : (استعارة تصريحية تخييلية) ومراده منه ٠

فأما أنها استعارة فلأن اللفظ فيها لم يستخدم في معناه الأصلي شاملا استخدم الجناح مرادا به غير حقيقة معناه بل الصورة التخييلية ٠

وأما كونها تصريحية فللتصريح فيها بلفظ المشبه به وهو الجناح المحقق بدل المشبه ٠ وهو الصورة الوهمية بقرينه الإضافة إلى الذل[1] ٠

وأما أنها تخييلية فلأن المستعار له غير محقق لا حسا ولا عقلا ومن هنا يبرز وجه التسمية وان أورد السعد إشكالا مفاده أنه لو كان الأمر على ما ذكره السكاكي لوجب أن تسمى هذه الاستعارة توهمية لا تخييلية لكن السعد يسقط هذا الاعتراض لأنه يكتفي في التسمية بأدنى ملابسة مستشهدا على صحة الإطلاق كما ذكر صاحب الشفاء[2].

وعلى كل فإن هناك مناسبة بين كل من أجزاء هذا التركيب ومراده منه كما أنه لابد أن يكون له غاية أو غايات قصد إليها من وراء مذهبه ٠

الدوافع وراء تفسير السكاكي للتخييلية :ـ

وقبل أن أعرض لما أثاره موقف السكاكي من الاستعارة التخييلية يلوح تساؤل ينبغي الإجابة عليه وهو الدوافع التي حدت بالسكاكي حتى يتجه إلى ما ذهب إليه ؟

ويمكن أن يذكر في هذا الصدد أمران :ـ

أولهما : ما ذكره العصام ونقله عنه الخضري في حاشيته على السمرقندية وخلاصته : ـ أنه لا مجوز لمسلك السكاكي سوى أنه راعى المناسبة اللفظية بمعنى : أنه فسرها بما قال به حتى يتسنى إطلاق اسم الاستعارة على التخييلية ولا يخفى ما في هذا

(١) ينظر الملوي على السمرقندية بحاشية الخضري ص ١١٠ ٠
(٢) مختصر المعاني للسعد على تلخيص المفتاح ص ٢٩٨ ٠

الوجه من تهافت حتى إن العصام نفسه ضعفه لأنه يلزم السكاكي عليه أن يجعل المعنى تابعا للفظ . والطريق الجادة المستقيمة : جعل اللفظ تابعا للمعنى بأن يحفظ جانب المعنى ويطلب له لفظ على طبقه ولو كان فى مناسبته له تكلف كما صنع السلف (١) .

وثانى الأمرين ما ذكره الوسطانى ونقله عنه الأمبابى وخلاصته أنه يمكن التماس وجه آخر وهو الإشعار بكمال المشابهة حيث تجعل من المشبه صورة وهمية مشابهة لما هو من خواص المشبه به (٢) . وهذا الأخير ما أميل إليه وأرتضيه لعدم إمكان ايراد ما أعترض به العصام لكون هذا الوجه مرادا منه أمرا معنويا لا مجرد المناسبة اللفظية فضلا عن أن القول بما علل به العصام هو عين ما قصد إليه السكاكى مناقش فيه .

مناقشة هذا المذهب :ـ

و مخالفة السكاكى لما عهد عند السابقين فى التخييلية واضحة،الأمر الذى كان من آثاره انصراف من أتى بعده عن متابعته إلا فى القليل . واتهام طريقته بالتعقيد والتعسف مما أوجد مجالا رحبا للمناقشة والاعتراض بأمور تتصل فى كثير من جوانبها بالمكنية .

اعتراضات الخطيب :ـ

وكما كان الخطيب صاحب الاعتراضات المشهورة على مكنية السكاكى كان له اعتراضات على التخييلية ومنها :ـ

الاعتراض الأول :ـ

أن تفسير السكاكى للتخييلية بعيد لما فيه من التعسف
وقد أبان السعد وجه التعسف بأنه يلزم على مذهبه (٣) كثرة الاعتبارات

(١) ينظر احاشية الخضرى ص ١١٠ .
(٢) حاشية الأمبابى على البيانية ص ٣٠٠ .
(٣) الايضاح ص ١٧٩ والتلخيص ص ٢٩٨ .

التى لا يدل عليها دليل ٠ ولا تمس إليها حاجة[١] ٠ وذلك أن المستعير يحتاج إلى اعتبار وهى ٠ واعتبار علاقة بينه وبين الأمر الحقيقى ٠ واعتبار قرينة دالة على أن المراد من اللفظ الأمر الوهمى فهذه اعتبارات ثلاث ولقوة اعتراض الخطيب هذا تابعه فيه جمهور المتأخرين وكثير من المعاصرين[٢] لما فى مذهب السكاكى من غموض وتعقيد لا يجدى إنكاره وكأن البلاغيين يرون أن اقامة هذه الصورة المجازية فى الخيال إنما يكفى فيها وينهض به إثبات اللازم ٠ وإضافته إلى المشبه ٠ فحين يضيف المتنبى للجوزاء أذنا تقوم فى خيالنا هذه الصورة ٠ أعنى صورة الجوزاء وقد ملأت جلبة الجيش اذ منها ضجيجا ٠ وليس هناك ما يدعو إلى القول باختراع شىء يشبه الأذن ونقل الكلمة إليه على طريقة الاستعارة التصريحية لأن المهمة التخييلية تتم من غير اعتبار أن تكون هناك استعارة فى اللفظ وتكفى هذه الاستعارة فى التعلق ٠

الاعتراض الثانى :ـ

أن فهم السكاكى للتخييلية مغاير لما هى عليه عند غيره[٣] ٠ ولا ريب فى مخالفة صاحب المفتاح لعبد القاهر إذ أن الجرجانى لا يرى معها مستعارا له ومنقولا إليه بل هى تتحقق عنده بمجرد إثبات ما ليس للشىء له بل إن عبد القاهر قد أشار إلى ما ذهب إليه السكاكى بالرفض والاستحالة كما سبق ٠ (ولا يمنع رفض عبد القاهر له واعتباره مستحيلا أن يكون السكاكى قد تأثر به فى ذلك) لأن التأثير كما يكون بالاتباع يكون أيضا بالمخالفة أى أنه قد تأثر تأثرا عكسيا ٠

وقد ساير عبد القاهر الزمخشرى والرازى وجمهور المتأخرين وإن لم ير صاحب الكشف مانعا من الأخذ برأى السكاكى على ما نقله عنه السيد ٠

وعندى أن هذا الاعتراض يمكن دفعه أصلا بما اعتبره السعد إذ قال (إن صاحب المفتاح فى هذا الفن خصوصا فى مثل هذه الاعتبارات ليس بصدد التقليد لغيره

---

(١) المطول ص ٣٩٥ ٠
(٢) ينظر علوم البلاغة للمراغى ص ٢٤٦ والصور البيانية ص ٢٣٦ ٠
(٣) ينظر الايضاح ص ١٧٦ ٠

حتى يعترض عليه بأن ما ذكره هو مخالف لما ذكره غيره) (١) . على أن الخلاف بين السكاكي هنا وغيره من عموم البلاغيين ليس خلافا لفظيا على ما حققه السعد (٢) .

الاعتراض الثالث :

أن مقتضى كلام السكاكي أن يكون الترشيح تخييليه للزوم مثل ما ذكره فيه ولهذا الوجه إيضاح وعليه مناقشات وأجوبة يرجع إليها من أراد (٣)

الاعتراض الرابع :

أن تفسير السكاكي للتخييلية يفيد أن مراده منها أعم من أن تكون قرينة المكنية بل قد توجد غير تابعة وعلى استقلال .

يقول الخطيب (فتفسيره للتخييلية أعم من أن تكون تابعة للاستعارة بالكناية كما في بيت الهذلي، أو غير تابعة بأن يتخيل ابتداء صورة وهمية مشابهة لصورة محققة ثم يستعار لها اسم الصورة المحققة . والثانية بعيدة جدا) (٤) .

ولا شك أن ما فهمه الخطيب صحيح . وصريح كلام صاحب المفتاح ومنهجه يؤكده فقد عالج السكاكي الاستعارة التخييلية في الفصل الذي عقده لها على نحو يوحي باستقلالها وقد كانت الأمثلة التي أتى بها للتطبيق غير مصحوبة بالمكنية (٥) . هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية فقد ذكر في أثناء بيان شروط حسن التخييلية أن حسنها بحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت تابعة لها كما في قولك فلان بين أنياب المنية ومخالبها ثم يقول : (وقلما تحسن الحسن البليغ غير تابعة لها ولذلك استهجنت في قول الطائي :—

---

(١) المختصر ٢٩٨ . (٢) ينظر المطول ص ٣٩٦ .
(٣) ينظر المطول ص ٣٩٩ والمختصر ٢٩٨ ، ٢٩٩ وبغية الايضاح ج٣ ص٢٦٢ .
(٤) الايضاح ص ١٧٩ ، ١٨٠ .
(٥) ينظر المفتاح ص ١٧٨ .

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنَّنِي صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي

ويمكن تقرير تخييلية السكاكي على بيت أبي تمام بأن يقال توهم للملام شيئا شبيها بالماء وأطلق اسمه عليه فهو تخييلية بلا مكنية .

وأما الخطيب فيرى إمكان تخريج تلك الاستعارة على أحد احتمالين وذلك بأن تكون تابعة لمكنية أو على تقدير التشبيه المقلوب .

فأما الاحتمال الأول فيحصل بأن يشبه الملام بظرف شراب مكروه على طريق المكنية والماء تخييل وأما الاحتمال الثاني فأن يشبه الملام بالماء المكروه ثم يضاف المشبه به إلى المشبه على حد لجين الماء (١) .

ومع أن رأي السكاكي قد قوبل بالمخالفة فإن تخريجات الخطيب لم تقابل هي الأخرى بالرضا والقبول من قبل الشراح وذلك لأن المشبه به على أحد تفسيري الخطيب هو الشراب المكروه أو ظرفه ، ولا دلالة للفظ عليه (٢) .

بل إن الخطيب نفسه يحكم على كلا الوجهين بالقبح فيقول : (والاستهجان على الوجهين لأنه كان يجب أن يشبه بظرف شراب مكروه أو بشراب مكروه . ولهذا لم يستهجن نحو قولهم : أغلظت لفلان القول وجرعته منه كأسا مرة . وسقيته أمر من العلقم (٣) .

لكن القاضي الحلبي ينقل من القزويني تجويز الاستعارة أو التشبيه بناء على الوجه الذي يجمع بين الطرفين وهو :—

(لأن اللوم قد يسكن حرارة الغرام . كما أن الماء يسكن غليل الأوام) .
وينقل صاحب الكشكول ت (١٠٠٣ هـ) عن القاضي الحلبي اعتراضه على القزويني في تجويزه وجه الشبه السابق . فيقول : " المناسب للعاشق أن يدعي أن

---

(١) ينظر المفتاح ص ١٨٣ .
(٢) ينظر الايضاح ص ١٨٠ .
(٣) ينظر شرح الخضري ص ١١٠ .
(٤) بغية الايضاح جـ ٣ ص ١٦٣ .

حرارة غرامه لا تسكن لا بالملام ولا بشيء آخر ، فكيف يجعل ذلك وجه شبهه به ؟

وقد أجاب بعضهم عن نظر الفاضل في كلام صاحب الإيضاح بأن تشبيه الشاعر الملام بالماء في تسكين نار الغرام إنما هو على وفق معتقد اللوام بأن حرارة غرام العاشق تسكن بورود الملام ، وليس ذلك على وفق معتقده ، فلعل معتقده أن نار الغرام تزيد بالملام ، قال أبو الشيص :-

أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً حبًّا لذكرِك فليلُمْني اللُّوَّمُ

أو أن تلك النار لا يؤثر فيها الملام أصلا ، كما قال الآخر :

جاءوا يَرُومُونَ سُلْواني بلومِهِمُ عَنِ الحَبِيبِ فَرَاحُوا مثل ما جاءوا

فقول الحلبي : لأن المناسب للعاشق ... الخ غير جيد ، فإن صاحب الإيضاح لم يقل إن التشبيه معتقد العاشق .

ثم يعلق صاحب الكشكول على هذا بقوله :-

ويقول جامع الكتاب : إن ذكر صاحب الإيضاح الكراهة في الشراب صريح بأنه غير راض بهذا الجواب ويحمل البيت على محمل آخر ، فيقول :

وللبيت محمل آخر كنت أظن أني لم أسبق إليه حتى رأيته في التبيان ، وهو أن يكون ماء الملام من قبيل المشابهة لذكر ماء البكاء .

ولا تظن أن تأخر ذكر ماء البكاء يمنع المشاكلة ، فإنهم صرحوا في قوله تعالى : (فمنْهم مَنْ يمشي على بطْنه ، ومنهم مَنْ يمشي على رِجْلين) (١) أن تسمية الزحف على البطن مشيا إنما هي لمشاكلة ما بعده .

وهذا الحمل أولى مما ذكره صاحب الإيضاح ، فإن الوجهين اللذين ذكرهما في غاية البعد ، إذ لا دلالة في البيت على أن الماء مكروه ، كما قاله المحقق التفتازاني في المطول (٢) ، والتشبيه لا يتم بدونه .

---

(١) سورة النور الآية ٤٥ .
(٢) الكشكول ص ٣٩٤ .

وأما ما ذكره صاحب المثل السائر من أن وجه الشبه (أن الملام قول يصف به الملوم وهو مختص بالسمع ، فنقله أبو تمام إلى ما يختص بالحلق . كأنه قال : لاتذقني الملام ولما كان السمع يجرع الملام أولا كتجرع الحلق للماء صار كأنه شبيه به) فهو وجه في غاية البعد أيضا . والعجيب منه أنه جعله قريبا . وغاب عنه عدم الملاءمة بين الماء والملام) .

وعلى كل فإن بيت أبي تمام مستهجن وغير قريب . وقد حكى أن رجلا جاء إلى أبي تمام بقصعة وقال : اعطني قليلا من ماء الملام . فقال أبو تمام :ـ

لا اعطيكه حتى تأتيني بريشة من جناح الذل فأفحم الرجل .

والحق أنه ليس جعل الجناح للذل كجعل الماء للملام وذكر في وجه الفرق بين الاستعارتين أن الطائر إذا وهى أو تعب بسط جناحه وخفضه وألقى نفسه على الأرض . وللإنسان أيضا جناح فإن يديه جناحاه وإذا خضع واستكان طأطأ من رأسه وخفض من يديه فحسن عند ذلك جعل الجناح للذل وصارت تشبيها مناسبا[1] ، وبهذا حسن جعل الجناح للذل لما بينهما من المناسبة وهي من أجمل ما صورت به الكنية .

والذي أراه وجها في الفرق ما أشار إليه الراغب الاصبهاني في بيان وجه الاستعارة في الآية الكريمة حيث قال " وذلك أنه لما كان الذل ضربين . ضرب يضع الإنسان ، وضرب يرفعه وقصد في هذا المكان إلى ما يرفعه لا إلى ما يضعه استعار لفظ الجناح فكأنه قيل استعمل الذل الذي يرفعك عند الله تعالى من أجل اكتسابك الرحمة أو من أجل رحمتك لهما ،[2] ولم تجد محاولة بعض كبار النقاد العرب كالصولي والآمدي في تخريج معنى البيت على وجه يرض البلاغيين والنقاد المحدثين . كما سبق في موضعه .

وأيما كان الشأن فانه لا تلازم عند السكاكي بين التخييلية والمكنية ولو أنه أحسن التطبيق لكان لمذهبه شأن آخر .

---

(١) المثل السائر حـ ٢ ص ١٥٥ . بغية الإيضاح حـ ٣ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب ط . الحلبي ص ١٠٠ .

قرينـة المكنية حقيـقة :

وافـق السكاكي غيره من البيانيين فى تجويزه مجيء لفظ المكنية حقيقة ويكـــون التجوز فى الإثبات فقد ذكر عقب تقريره لمذهبه المختار فى المجاز العقلى على ما سنعرض له تفصيلا فيما بعد أن المكنى عنها تنقسم إلى (ما قرينتها أمر مقدر وهى كالأنيـــاب فى قولك أنياب المنيه • وكنطقت فى قولك نطقت الحال بكذا ، أو أمر محقق كالإنبات فـــى قولك : أنبت الربيع البقل وكالهزم فى قولك هزم الأمير الجند (١) •

وكون القرينة هنا حقيقة لأن الإنبات مثلا مستعمل فى معناه الحقيقى لأنـــه بعد تشبيه الربيع بالفاعل للإنبات حقيقة أعنى الفاعل القادر وادعاء أنه فرد من أفراده بناء على المبالغة فى التشبيه على سبيل المكنية والقرينة إثبات إليه وهو حقيقة لا تجـوز معه • وإذا كان من المسلم أن الاستعارة تقوم على التشبيه ابدا و فيه يتحقق وجـــه الشبه فى الطرفين إلا أنه فى المشبه به أتم وأكمل • فهل يتحقق هذا فى تشبيه الربيـع بالقادر المختار سبحانه وتعالى فى مثل أنبت الربيع البقل ونحوه ولكـن تابع السكاكـى فى تلك المسألة فقد جارى ما أشعر به كلام الكشاف فى جواز وقوع قرينـة المكنيـــه حـقيـقة •

---

(١) المفتاح ص ١٨٩ •

قرينة المكنية تحقيقية :—

وقد تقع قرينة المكنية عند السكاكي استعارة تحقيقية المقابلة للتخييلية في التصريحية عنده بناء على ما ذكره في قوله تعالى (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ) من أن البلع استعارة عن غور الماء في الأرض ، والماء استعارة بالكناية عن الغذاء (١) .

وايضاحا لتلك الاستعارة أقول إنه قد شبه الماء بالغذاء في أن كلا منهما صيانة للنفس والبعد بها عن الضرر . ثم بولغ في هذا التشبيه بحيث أدعى كون الماء من أفراد المشبه به وانكار ان يكون غيره ثم استعير الماء الحقيقي للادعائي على طريق المكنية عنده وكذا شبه غور الأرض بالماء بالبلع بجامع الاختفاء في كل ، ثم استعير البلع للغور واشتق منه بلع على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

ويذكر الإمبابي أن هذا التأويل ربما كان مبنيا على اعتبار البلع خاصا بالغذاء دون الماء وهو ما عليه جمهور اللغويين وإن ذكر الرازي وصاحب المصباح ما يفيد عموم معناه أي أن البلع غير مختص بالغذاء وعلى هذا لا يكون قرينة إذ لا مانع حينئذ من اختفاء الماء على حقيقته لكن السيد أفاد أن البلع بمعنى الشرب مجاز وعليه فلا اشكال .

وقد خالف صاحب الكشاف هذا الاعتبار وتبعه غيره على ما حكاه صاحب الكشف إذ جعله الزمخشري بمعنى النشف واستحسنه صاحب الكشف لما فيه من المبالغة الحاصلة من دلالته على جذب الأرض وكأن لها حالة خاصة تمكنها من أجتذاب الماء إليها فهو فعل لها لذا كان أولى من تقرير السكاكي .

واعتبار المكنية ظاهر على صريح مذهبه أو الظاهر منه وأما على تأويل السعد لكلامه ومحاولته التوفيق ومذهب القوم على ما سيأتي فلا يجيء هنا ولذلك قال السمرقندي في حواشي المطول عند الكلام على هذا التأويل يقال للسكاكي في قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك) استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيها للماء بالغذاء وهو صريح في أن المستعار هو لفظ المشبه بما لا يتصور معه

---

(١) ينظر مختصر السعد على التلخيص ص ٣٠٣ — المفتاح ص ١٩٧ .

اعتبار السعد إلا أن يحمل كلام السكاكي على باب القلب أي استعارة الغذاء للماء[١] .
ولا يخفى ما فيه من تكليف .

وعلى كل فقد ظهر مما سبق أنه لا تلازم عند السكاكي بين التخييلية والمكنية ، ولا بين المكنية والتخييلية فقد توجد كل منهما منفردة عن الأخرى على ذلك فقد تحصل قرينة المكنية بالتخييلية كما هو الشأن عند غيره على تفسير له خاص فيها ، كما تحصل بالتحقيقية على حد ما قال صاحب الكشاف وعلى ذلك يكون الزمخشري غير داخل في مراد السكاكي من الأصحاب الذين ذكر لهم التلازم بين المكنية والتخييلية[٢] .

ويبطل بهذا ما أورده الخطيب من انعقاد الاتفاق حول عدم انفكاك المكنية عن التخييلية[٣] .

ومن هنا فنحن نقابل بشيء من العجب والاستغراب ما صرح به أحد الباحثين ممن نقدر لهم جهودهم في ميدان البحث البلاغي فقد ذكر هذا الباحث أن السكاكي يريد بالتخييلية التي بحثها في الفصل الثاني من فصول الاستعارة قرينة المكنية ثم يقول (وكأنه يجعل في المنية استعارة مكنية . وفي قرينتها استعارة أخرى يسميها تصريحية تخييلية . وكأن كلا منهما تتحول قرينة للأخرى فهما لا تنفكان)[٤] والمحصلة لكل ما مر أن قرينة المكنية عند السكاكي تكون تخييلية كما تكون حقيقة وأيضا قد تقع تحقيقية . إذن فقد تأتي التخييلية غير تابعة لمكنية كما قد تأتي المكنية بغير تخييلية على مذهبه فيها فهما غير متلازمتان عنده .

ولعل من الأمور التي يمكن ملاحظتها في يسر أن ما ذهب السكاكي إليه أو في بعض جوانبه نوع تكلف لا داعي إليه وإن أمكن عقلا لندرة شواهده خاصة فيما يتعلق بتجويز انفراد التخييلية عن المكنية ، حيث اضطر إلى أن يفرض علينا فهما خاصا ليصحح ما ذهب إليه وأما باقي الأمثلة التي عرض لها فلا تزيد عن كونها مجرد أمثلة فرضية يراد بها فقط إنزال القواعد عليها دون مراعاة للاستعمالات والتي يعول عليها خاصة في جانب البلاغة .

---

(١) ينظر حاشية الانبابي على الرسالة البيانية ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٢) ينظر المفتاح ص ١٧٩ . (٣) تلخيص السعد على المختصر ٢ ص ٣٠٢ .
(٤) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٠٧ .

وبعد أن انتهينا من محاولة عرض مذهب السكاكي في المكنية وموقفه من قرينتها بقي أن نبحث عن حقيقة موقفه تجاه كل من الاستعارة التبعية والمجاز العقلي .

موقف السكاكي من التبعية والمجاز العقلي

وإذ قلنا فيما مضى إنه كان للسكاكي فهمه الخاص في شأن المكنية والتخييلية نقول الآن إن كان له موقفاً منفرداً قبل كل من الاستعارة التبعية والمجاز العقلي كذلك .

فقد خص صاحب المفتاح الفصل السادس من فصول الاستعارة لبحث الاستعارة التبعية . وقد تميز عرضه لها بالتفصيل والتطبيق على الصور التي تتحقق بها بما يشمل الافعال والصفات والحروف مع بيان سر اعتبار التبعية ثم ذكر أن (هذا ما أمكن من تلخيص كلام الأصحاب في هذا الفصل . ولو أنهم جعلوا قسم الاستعارة التبعية من قسم الاستعارة بالكناية بأن قلبوا فجعلوا في قولهم نطقت الحال بكذا : الحال التي ذكرها عندهم قرينة الاستعارة بالتصريح استعارة بالكناية عن المتكلم بواسطة المبالغة في التشبيه على مقتضى اللازم وجعلوا نسبة النطق إليه قرينة الاستعارة . كما تراهم في قوله : وإذا المنية أنشبت أظفارها) يجعلون المنية استعارة بالكناية عن السبع . ويجعلون إثبات الأظفار لها قرينة الاستعارة . وهكذا لو جعلوا البخل استعارة بالكناية عن حي أبطلت حياته بسيف أو غير سيف فالتحق بالعدم . وجعلوا نسبة القتل إليه قرينة [1] . ولو جعلوا أيضا للهذميات استعارة بالكناية عن المطعومات اللطيفة الشهية على سبيل التهكم . وجعلوا نسبة لفظ القرى إليها قرينة الاستعارة [2]. لكان أقرب إلى الضبط فتدبره [3] .

هذا كل ما ذكره السكاكي خاصا بتلك المسألة . وقبل أن نبحث تفصيلا عن الدافع وراء ما قال به وما أثاره من مناقشات نحاول أن نعالج أولا مسألتين مهمتين وهما .

---

(١) يقصد بهذا المثال قول ابن المعتز: قتل البخل وأحيا السماحا .
(٢) يقصد بذلك قول الشاعر : تقريهم لهذميات ... الى آخره .
(٣) المفتاح ص ١٨١ .

أولا مذهب السكاكي في الرد بين الترجيح والوجوب :-

لاخلاف في أنه ليس في كلام السكاكي هنا ما يفيد القطع بالرد إلى المكنية على الوجه الذي معه احتمال اعتبار التبعية أصلا ولكن قد سرى الخلاف بين بعض البلاغيين تبعا لتأويل عبارة صاحب التلخيص حين ذكر في اعتراضه الآتي : واختار السكاكي إلى آخره • فقد فهم العصام والحفيد من تعبير الخطيب بالاختيار أن هذا الرد راجح عند السكاكي لاواجب لأن اختيار الشيء ينبئ عن جواز خلافه على سبيل المرجوحية • فتكون التبعية جائزة غاية الأمر إيثار الحمل على المكنية • وإن كان قد نازع البعض في دلالة لفظ الخطيب على ما ذكر لأنه كثيرا ما تستعمل أمثال هذه العبارات في الوجوب ومن هنا قيل إن هذا الرد إلى المكنية واجب عند السكاكي ويؤيده أنه اسقط التبعية بالكلية من أقسام المجاز عند ضبطها على رأيه كما أسقط المجاز العقلي(١) وعلى القول بالوجوب فلا تنقسم الاستعارة التصريحية عند السكاكي إلى أصلية وتبعية فيكون هذا التقسيم غير متفق عليه •

والأقرب إلى الصواب عندي ما فهمه العصام وغيره من بناء الأمر على الترجيح فهو لاينكر التبعية أصلا بل يختار ردها إلى المكنية فهي عنده محتملة • اذ لو كان مراد السكاكي نفي التبعية أصلا لصرح بذلك ولأتى بالأدلة ولأورد الاعتراضات والشبه التي قد ترد على مذهبه على عرفهم •

ثانيا عموم مذهب السكاكي لصور التبعية :

والمفهوم من إطلاق السكاكي شمول مذهبه لصور التبعية كلها وإن قصر التطبيق على التبعية في الفعل فقط الأمر الذي ربما بنى عليه أحد أساتذتنا قوله بما يفيد اختصاص الرد بالفعل دون غيره(٢) • ولكن صريح عبارة السعد وغيره على عموم المذهب ليشمل المشتق والحرف أيضا فقد ذكر السعد تعقيبا على عبارة المفتاح (وعلى هذا القياس في سائر الأمثلة) ثم أجرى الاستعارة المكنية على بعض أمثلة الاستعارة التبعية في الحرف •

---

(١) ينظر حاشية الانبابي على البيانية ص ٤٠٠ •
(٢) صور من تطور البيان العربي ص ٢٢٢ •

يقول السعد (ففي قوله تعالى : " لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا " يجعل العداوة والحزن استعارة بالكناية عن العلة الغائية للالتقاط • ويجعل نسبة لام التعليل إليه قرينة) (١) •

الدافع وراء اختيار السكاكي :ـ

ويمكن ان يذكر في ذلك أمران .

أولهما : ما ورد في المفتاح من كون هذا الاتجاه أقرب إلى الضبط لما فيه من تقليل الأقسام على ما فسره السعد (٢) • واعترض الإمبابي بوجهين خلاصة الأول : أن التبعية قد تكون مقصودة للمتكلم قصدا ذاتيا على ما سيأتي تفصيله في المناقشات • وأما ثاني الوجهين فإن المناسب لعلم البيان هو تكثير الأقسام وتنويعها بما يحصل معه اختلاف طرق الدلالة على المعنى الواحد وهو المقصود الأصيل من هذا العلم • إذ مبناه على أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة (٣) •

ولعل مراده التنويع الحاصل من ورائه معنى يفوت بعدم اعتباره • وقد أورد الخضري شبهة اعتراض على هذا الدافع خلاصته : أنه إذا كان المقصود من الرد تقليل الأقسام فما المانع من أن يعتبر العكس بمعنى أنه ترد المكنية إلى التبعية • ويجيب بعدم الإمكان لفوات الاطراد لوجود بعض الأمثلة من قبيل الاستعارة المكنية مما لا يصلح لاعتبار التبعية فيها من مثل المنية أنشبت أظفارها (٤) •

وثاني الامرين : ما قيل من أن المكنية أرجح لعدم كونها تابعة لاستعارة أخرى (٥) • بخلاف التبعية فأنها تابعة لاستعارة المصدر أو المتعلق •

---

(١) المطول : ص ٤٠٢ •

(٢) السابق نفس الموضع •

(٣) ينظر حاشية الامبابي على الرسالة البيانية ص ٤٠١ •

(٤) حاشية الخضري على السمرقندية ص ٦٧ •

(٥) الرسالة البيانية الموضع السابق •

مناقشات حول مذهب السكاكي :ـ

وقد نوقش السكاكي واعترض عليه بأمور أبرزها ثلاثة :

أولا : اعتراض الخطيب :ـ

يرى الخطيب أن رد السكاكي التبعية إلى المكنية لا يغني عن اعتبار التبعية على مذهبه .

يقول صاحب الايضاح مشيرا إلى رأى السكاكي (وفيه نظر لأن التبعية التى جعلها قرينة لقرينتها التى جعلها استعارة بالكناية كنطقت فى قولنا : نطقت الحال بكذا لا يجوز أن يقدرها حقيقة حينئذ لأنه لو قدرها حقيقة لم تكن استعارة تخييلية لأن الاستعارة التخييلية عنده مجاز كما مر . ولو لم تكن تخييلية لم تكن الاستعارة مستلزمة للتخييلية . واللازم باطل بالاتفاق . فيتعين أن يقدرها مجازا . وإذا قدرها مجازا لزمه أن يقدرها من قبيل الاستعارة لكون العلاقة بين المعنيين هى المشابهة . فلا يكون ما ذهب إليه مغنيا عن قسمة الاستعارة إلى أصلية وتبعية . ولكن يستفاد مما ذكر رد التركيب فى التبعية إلى تركيب الاستعارة بالكناية على ما فسرناها وتصيير التبعية حقيقة واستعارة تخييلية . لما سبق أن التخييلية على ما فسرناها حقيقة لا مجاز[1]

يريد الخطيب من اعتراضه على تعقيد عباراته أنه لا مناص من وقوع التبعية على مذهب السكاكي لأنه لا يمكن اعتبار التبعية التى صارت قرينة للمكنية حقيقة لانعقاد الاتفاق على خلافه . وعليه يتعين اعتبار المجاز بالاستعارة لقصد المبالغة فى التشبيه . والاستعارة فى الفعل لا تكون إلا تبعية فلزمه ما حاول الفرار منه .

ثم يعقب أن السكاكي لو كان يرى فى المكنية والتخييلية ما يراه هو فيهما لأمكنه رد التبعية إليهما . ولا يرد حينئذ الاعتراض مثلا بجعل التشبيه المضمر فى النفس استعارة بالكناية فى نحو نطقت الحال . واثبات النطق للحال استعارة تخييلية ويكون نطقت حقيقة مستعملة فى المعنى الأصلى كما هو مذهبه فلا يلزمنا القول بالاستعارة التبعية . وكذا يمكن ذلك على مذهب السلف أيضا .

---

(١) الايضاح صـ ١٨١ .

لكون التخييلية عندهم حاصلة بإثبات لازم المشبه به المحذوف إلى المشبه على ما هى عليه عند الخطيب ٠

وقد ناقش السعد الخطيب وأجاب على اعتراضه العصام بما نوقش فيه ٠

مناقشة السعد للخطيب :—

ومع تسليم السعد بأصل اعتراض الخطيب لكنه ينازعه فيما ادعاه من الاتفاق حول استلزام المكنية للتخييلية سواء أكان المراد به اتفاق غير السكاكى أم اتفاقه مع غيره لأنه على افتراض إرادة الاحتمال الأول فلا إبطال لكلام صاحب المفتاح لأنه بسبيل الخلاف معهم ٠ ثم إن صاحب الكشاف لا يمنع مجيء المكنية غير تابعة للتخييلية وإن أراد الاحتمال الثانى فهو ظاهر البطلان لأن السكاكى قد صرح بأن عدم انفكاك المكنية عن التخييلية إنما هو ما عليه مساق كلام الاصحاب أما عنده فلا تلازم بينهما أصلا كما اتضح من خلال بحث قرينة المكنية وان كان السعد لا يرى فيما أورده على الخطيب ما يصحح كلام السكاكى إذ أنه صرح بأن نطقت فى (نطقت الحال) مستعار للأمر الوهمى كاستعارة الأظفار وفيه قول بالاستعارة التبعية (١) ٠

جواب العصام على اعتراض الخطيب ٠

وقد نقل البنانى عن العصام دفعه اعتراض الخطيب بوجهين :

أحدهما : أنه كما يؤخذ من عبارة المفتاح كلامه مع القوم يعترض عليهم بأنهم لو قلبوا الاعتبار من التبعية بأن جعلوها قرينة للمكنية وجعلوا قرينتها مكنية لاستغنوا عن اعتبارها لأنهم يجعلون قرينة المكنية مستعملة فى حقيقتها ٠ والتجوز إنما هو من إثباتها ٠ وهذا الإثبات هو المسمى تخييلية عندهم ٠ فليس اعتبار السكاكى الرد الى المكنية مبنيا على مذهبه فى التخييلية ٠

والوجه الثانى : أن السكاكى جعل التخييلية استعارة للصورة الوهمية لتكون حقيقة باسم الاستعارة استحقاقا لتمام المناسبة قبل رد التبعية ثم عدل عن القول به

---

(١) ينظر المطول ص ٣٠١ ٠

لمصلحة الرد المذكور، لأن النفع فيه اكثر (١) .

ولا يخفى ما فى الوجه الأول من تهافت بما لايمكن الاخذ به حيث ان الظاهر من كلام المفتاح البناء على مذهب السكاكى حيث أجرى الاستعارة بالكناية فى قولهم نطقت الحال فى لفظة المشبه وهو الحال المنزل منزلة المشبه به بواسطة المبالغة فى التشبيه على مقتضى مذهبه فيها . ثم إنه قد قال برد المجاز العقلى إلى المكنية على ما سيأتى . فكيف يقول بمذهب غيره فى التخييلية عند رده التبعية إلى المكنية كما اعترض على الوجه الثانى . وحاصله أن السكاكى راعى أولا مناسبة لفظية . ثم عدل عنها لغاية معنوية بأن فيه تلاعبا لايليق بمقام السكاكى وان حاول الوسطانى الجواب بما ينفى ذلك وخلاصته أن قرينة المكنية عند صاحب المفتاح قسمان تخييلية بمعناها عند القوم اذا لزم على اعتبار معناها عنده القول بالتبعية كأن تكون فى العقل . وتخييلية بمعناها عنده إذا لم يلزم ذلك كجناح الذل (٢) .

والحق أن فيما أجاب به العصام بعدا عن مراد صاحب المفتاح . بل وصريح كلامه أيضا . اذ جعل مثل الأظفار تخييلية على مفهومها عنده . ومثل نطقت تخييلية بمعناها عند غيره مخالف لما ذكره فى المجاز العقلى من أن نطقت مستعار للأمر الوهمى (٣)

ثم انه يبعد أن يريد بالتخييلية الاثبات لكونه مجازا عقليا وهو عنده مردود الى المكنية على تفصيل يجىء .

ومع كثرة ما قيل حول اعتراض الخطيب وإن لم ننقل سوى طرف منه إلا أن تلك المناقشات لم تفلح فى أن تخرج بوجه يمكن أن يخرَّج عليه اتجاه السكاكى على نحو مرض تماما ليبقى أصل الاعتراض الأول قائما وليقول السيد فى شرحه على المفتاح إن كلام السكاكى مردود ولا يسد (٤) .

وكما اعترض الخطيب اعترض كذلك السعد بما أجاب عنه العصام والصبان وغيرهما

---

(١) ينظر تجريد البنانى على المختصر جـ ٢ صـ ٢١٥ .
(٢) ينظر الخضرى على الملوى على السمرقندية صـ ١٠١ .
(٣) ينظر المفتاح صـ ١٨٩ .
(٤) ينظر حاشية الانبابى على رسالة الصبان صـ ٤٠٦ .

ثانيا : اعتراض السعد :-

وقد اعترض السعد فى شرحه على المفتاح بما خلاصته : أن ما قال به السكاكى فى الرد إلى المكنية غير مطرد لعدم جريانه فى بعض الاستعارات ، وهى التى قرينتها غير لفظية (١) .

جواب العصام :-

وقد أجاب العصام بأن اعتبار السكاكى مبنى على الغالب فى القرينة يقول العصام : (إنه لما كان مدار القرينة فى التبعية على الفاعل والمفعول والمجرور على ما صرح به السكاكى بين أن الرد يجعل قرينة التبعية مكنية . وأما فى نحو قتلت زيدا إذا ضربته ضربا شديدا فيجعل زيد مكنيا عنها باستعماله فى المقتول ادعاء . واثبات القتل تخييلية . ولا يجعل القرينة مكنية نعم يتم الرد على السكاكى لو وجد مثال لتبعية قرينتها حالية ولم يكن هناك ما يجعل مكنية . والتبعية قرينتها) (٢) .

ومحصلة كلام العصام أن السكاكى اعتبر الغالب من كون قرينة التبعيه لفظيه فاقتصر على جعل قرينتها مكنيا عنها فلا يرد عليه نحو قتلت زيدا اذا ضربته ضربا شديدا مما قرينتها فيه حالية وان كان المجعول مكنية فليس قرينة التبعية . وانما يرد عليه مثال تبعية قرينتها حالية وليس هناك ما يصلح لأن يجعل مكنية . ولكن السياق يأبى هذا التخريج لأن الحديث إنما دار حول ضرب شديد تشابه مع القتل .

ولكن لما كان تخريج العصام لنحو قتلت زيدا يتم عليه جعل التبعية قرينة للمكنية إلا أنه ليس فيه جعل قرينة التبعية مكنية على مقتضى كلام المفتاح أقول . لما كان الأمر كذلك حاول الصبان التماس جواب آخر .

جواب الصبان :-

وخلاصة ما أجاب به الصبان أن السكاكى جعل قرينة التبعية مكنية إذا كانت

---

(١) ينظر الرسالة البيانيه للصبان بحاشية الامبابى ص ٤٠١ .
(٢) ينظر حاشية الامبابى على البيانية ص ٤٠ .

لفظية فان لم تكن جعل غيرها وإنما اقتصر صاحب المفتاح على ما ذكره اتكالا على وضوح المراد (١) .

وقد يقال إن كلام السكاكي خاص بما إذا لم يكن هناك ضرورة تدعو إلى القول بالتبعية (٢) ومن هذا العرض الوجيز لتلك الشبهة التي أثارها السعد وما دار حولها من مناقشات نرى أنها أيسر في التماس وجوه الدفع والتخريج بما يمكن معه التماس وجه أو أكثر لتصحيح كلام السكاكي على خلاف الاعتراض السابق وإن كان هناك اعتراض آخر لا يقل عما سبق إن لم يكن هو الأهم .

ثالثا : اعتراض صاحب الكشف :—

وقد أورد السيد نقلا عن صاحب الكشف اعتراضه على إطلاق السكاكي الرد في التبعية إلى المكنية موثرا التفصيل .

يقول السيد (ورد عليه صاحب الكشف بأنه قد يكون تشبيه المصدر هو المقصود الأصلي والدافع الجلي . ويكون ذكر المتعلقات تابعا ومقصودا بالعرض . فالاستعارة حينئذ تكون تبعية كما في قوله :

تَقْرِي الرِّيَاحُ رِيَاضَ الْحَزْنِ مُزْهِـرَةً إِذَا سَرَى النَّوْمُ فِي الأَجْفَانِ إِيقَاظَا

فان التشبيه ههنا إنما يحسن أصالة بين هبوب الرياح عليها وبين القرى . ولا يحسن التشبيه ابتداء بين الرياح والضيف ولا بين الرياض والضيف . ولا بين الإيقاظ والطعام . نعم يلاحظ التشبيه بين هذه الأمور تبعا لذلك التشبيه . ولا يصح أن يعكس فيجعل التشبيه بين الهبوب والقرى تبعا لشيء من هذه التشبيهات . فلا يصح هنا رد التبعية إلى المكنية عند من له ذوق سليم .

وقد يكون التشبيه في المتعلق غرضا أصليا وأمرا جليا . ويكون ذكر الفعل واعتبار التشبيه فيه تبعا فحينئذ يحمل على الاستعارة بالكناية كقوله تعالى :(يَنْقُضُونَ

---

(١) ينظر حاشية الانبابي على رسالة الصبان ص ٤٠٢ .
(٢) ينظر السابق نفس الموضع .

عهد الله) فان تشبيه العهد بالحبل مستفيض مشهور .

وقد يكون بالتشبيه فى مصدر الفعل وفى متعلقه على السويه فحينئذ جاز أن يجعل استعارة تبعية وأن يجعل استعارة مكنية كما فى قولك : نطقت الحال ، فإن كلا من تشبيه الدلالة بالمنطق ، أو تشبيه الحال بالمتكلم ابتداء مستحسن . فظهر أن ما اختاره السكاكى من الرد مطلقا مردود (١) .

وما من شك فى أن هذا التفصيل فى ذاته إنما هو المرضى وينبغى أن يكون عليه المعول وقد استحسنه السعد فى حواشيه على الكشاف وكذا الشهاب الخفاجى فى العناية (٢) وإن ذكروجها فى التفرقه بين المكنية والتبعية قريبا مما سبق ويظن أن صاحبه الأول السيد الشريف (وخلاصته أنه يصار إلى المكنية إذا كان اللازم المذكور قد اشتهر أنه من لوازم المشبه به . وكان تشبيه المذكور بالمستعار منه المحذوف تشبيها شائعا . كما فى قوله تعالى :(ينقضون عهد الله) وقولنا عالم يغترف منه الناس . إذ كون النقض والاغتراف من لوازم الحبل والبحر أمرا مشهورا . وتشبيه العهد بالحبل والعالم بالبحر تشبيه كذلك مستفيض . وليس الأمر كذلك فى تشبيه القلوب بالأوانى فإنه إنما يفهم من إيقاع الختم عليه) أى فى قوله تعالى :(خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) وقيمة ما ذكره صاحب الكشف فى التفصيل ذاته إنما بعد ذلك أن نتفق معه أو نختلف فى التطبيق ما دام هناك مسوغ معنوى يتحقق بالحمل على اعتبار بعينه بحيث يفوت عند اعتبار غيره ومن هنا فلا يقدح فيما ذكر مناقشة بعضهم لتمثيل صاحب الكشف إذ يرى هذا البعض أن تمثيله للقسم الثانى بينقضون عهد الله . وللثالث بنطقت الحال غير مرضى بل الأولى عنده جعل الآية والمثال من التبعية لأن المقصود فى الآية تشبيه إبطال العهد بنقض الحبل . لا تشبيه العهد بالحبل لأن المطلوب اثبات أنه لا يبقى للعهد انعقاد ولا يترتب عليه آثاره المطلوبه سواء كان مثل الحبل أو غيره فى الاتصال . وكذلك المقصود تشبيه الدلالة بالنطق لا تشبيه الحال بالمتكلم مطلقا وقد أجاب عليه الصبان (٣) .

---

(١) حاشية السيد على المطول (طبعه منفصله) ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .
(٢) ينظر حاشية الانبابى على رسالة الصبان ص ١٠٧ .

(٤) ينظر رسالة الصبان ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

وأقول إن إيثار اعتبار بعينه لا يؤدى حتما إلى خطأ غيره ضرورة أن يلتزم على ذلك المصادرة على الأفهام والاذواق وهذا مالا ينسجم وطبيعة الفن البلاغى فليس المهم أن تكون الصورة مكنية أو تبعية بل ولا حتى أن تكون استعارة على الاطلاق وانما الاصل والأساس المعنى المحصل وفق ما يقتضيه الحال بغض النظر عن الاسم الاصطلاحى اذ لا اعتبار له فى ذاته •

ويمثل ما قوبل به مذهب السكاكى فى القديم لم يرتضه كثير من المحدثين الا فى القليل على سنبينه عند الحديث عن المجاز العقلى •

ومما سبق يظهر أن مذهب السكاكى من رد التبعية إلى المكنية ورد على إطلاق يستوعب أنواع التبعية وأن مبناه على الترجيح لغايات قد نوقش فيها كما أوجد مذهبه اعتراضات أقيم بعضها على أسس موضوعية غير أن الكثير منها لم يكن يقصد به سوى الجدل النظرى ليظل أهم ما يؤاخذ عليه السكاكى إطلاقه الرد لعدم إطراده لبناء الفن البلاغى على التنوع فى الصورة المعبر بها تبعا لاختلاف الاحوال وتفاوت المقاصد •

واذا كان ما سبق يمثل موقف السكاكى فى رده التبعية لى للمكنية وما ترتب عليه من مناقشات فإنه يبقى أن نبحث عن موقفه حول المجاز العقلى •

المكنية والمجاز العقلى :ـ

بحث صاحب المفتاح هذا الاسلوب أولا تحت فصل المجاز العقلى (١) محددا له ومقسما مع التمثيل والتخريج • وكذا موردا لبعض الشبه التى قد ترد على اعتباره ورده عليها مع امتياز تناوله بالدقة والتنظيم وربما الاضافة ايضا فى بعض الجوانب الا انه أختتم هذا الفصل بأن ما سبق إنما هو بحسب رأى الاصحاب ولعله يريد بهم هنا : عبد القاهر وصاحب الكشاف (وأما هو فيرى رده الى الاستعارة بالكناية •

---

(١) المفتاح ص ١٨٥ وما بعدها •

يقول السكاكي مبيناً أن ما سبق إنما يمثل رأى الأصحاب لا رأيه هو: «وإلا فالذى عندى هو نظم هذا النوع فى سلك الاستعارة بالكناية بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما عرفت وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة الاستعارة وبجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم وجعل نسبة الهزم إليه قرينة الاستعارة (١) .

وقبل البحث عن وجه لما ذهب إليه السكاكي وما دار حول مذهبه من مناقشات نبدى ثلاث ملاحظات :—

أولا : لم يرد فى كتاب المفتاح هنا نص صريح يفيد إنكار السكاكي للمجاز العقلى على معنى ينتفى معه عدم اعتباره له أصلا .

ثانيا : أن الظاهر فى مذهبه الاطلاق بما يشمل صور المجاز العقلى جميعها .

ثالثا : أنه صرح بأن قرينة المكنية فيما رده إليها من المجاز العقلى تكون فى الإثبات على مذهب غيره فيها وليست هى التخييلية على مفهومه لها بل تحصل هنا بمجرد إثبات نحو الأنبات للربيع كما سبق تفصيله فى البحث عن صور قرينة المكنية عنده فلا وجه إذاً للشبهه التى أوردها البناني وغيره على ذلك (٢) فما محل النزاع اذاً ؟ .

تحرير محل النزاع :—

يوافق السكاكي الجمهور فى أن هناك تجوزا فى إثبات المسند للمسند إليه كما يتفق أيضا فى أن المسند حقيقة وإنما الخلاف فى أن السكاكي يرى أن التجوز فى الإثبات تابع لتجوز آخر فى المسند اليه عن طريق تنزيل الربيع فى قولنا أنبت الربيع البقل مثلا منزلة الفاعل القادر المختار ادعاء على سبيل المكنية بقرينة اثبات الانبات للربيع .

---

(١) المفتاح ص ١٨٩ .

(٢) ينظر تجريد العلامة البناني على مختصر السعد ص ١٤٢ .

هل لما ذهب اليه السكاكي أصل في كلام السلف ؟

من المعلوم أن الزمخشري كان يفرق بين المجاز اللغوي والمجاز العقلي وكان حينما يرد صورة التركيب بين المجازين يقول في قوله تعالى (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) • ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين • أن يوصف بصفة أهله من الاشقياء كقولهم : نهارك صائم ••• وأن يشبهه في شدته وضرره بالاسد العبوس أو الشجاع الباسل (ولا يبعد أن تكون صحة الوجهين في هذه الصور ألهمت أبا يعقوب السكاكي اختيار التجوز اللغوي على التجوز في الاسناد وقد جعله من الاستعاره المكنية التي رأينا الزمخشري) يحلل المثال تحليلا يشير اليها • حيث يشبه اليوم بالأسد العبوس أو الشجاع الباسل • ثم نسرى المذكور وصف الاسد أو الشجاع[١] •

وعلى هذا يكون ما جعله الزمخشري وجها محتملا قد جعله السكاكي الوجه المختار عنده لغاية أو غرض •

الدافع وراء ما ذهب إليه السكاكي :—

لم يرد في المفتاح تعليل للرد إلى المكنية هنا • ويمكن أن يكون حجة السكاكي في هذا الرد أنه يريد تقليل الاقسام وعلى ذلك • فإننا لا نستطيع أن نوافقه في هذه القضية المبهمة ذلك لأن تقليل الأقسام لا يصح أن يكون على حساب المجاز العقلي بأن يلغى هذا البحث من بلاغة العرب[٢] • ومن جهة أخرى فان الرغبة في تقليل الأقسام هنا وجد عكسها تماما في بلاغة السكاكي[٣] •

وأما إن كان القصد من الرد حصول فائدة معنوية إذ في المكنية مزيد مبالغة فلا ينبغي أن نتجاهل الخصوصيات الواضحة التي تتميز بها الطرق المختلفة في أداء المعاني • والفيصل في إيثار صورة على أخرى الحال ومقتضياته •

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ١٩٦ •
(٢) ينظر بحوث المطابقة لمقتضى الحال د • علي البدري ص ٢٠٨ •
(٣) ينظر المفتاح ص ١٨٩ •

مناقشة السكاكي :—

ولم يقابل اتجاه السكاكي بالرضا والقبول التام بل نوقش فيه واعترض عليه من قبل القدماء والمحدثين إلا من القليل ولعل من أبرز ما اعترض به عليه ما كان من الخطيب .

اعتراضات الخطيب :

اعترض الخطيب بأمور تدور في مجملها على بطلان رأى السكاكي لعدم اطراده لفساد بعض الاساليب عند اعتباره . وان حاول السعد إبطال ما اعترض به .

وتلك الاعتراضات هي :—

أولا : انه لا يمكن جريان ما ذهب إليه في بعض التراكيب مثل قوله تعالى: "فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ" بناء على مذهبه في المكنية اذ بمقتضاه يكون المراد بعيشة صاحبها وهذا الاعتراض مبنى على أن المراد بعيشة وضمير راضية واحد (١) . اى ان الضمير في راضية يعود إلى عيشة فليزم أن يكونا بمعنى واحد . وهو باطل اذ لا معنى لقولنا فهو في صاحب عيشة راضية . لما فيه من ظرفية الشيء في نفسه .

ثانيا : أنه يلزم عليه أن لا تصح الإضافة في كل ما أضيف الفاعل المجازى إلى الحقيقى نحو : نهاره صائم . لبطلان إضافة الشيء إلى نفسه اللازمة من كلامه لأن المراد بالنهار حينئذ فلان نفسه ولا شك في صحة هذه الاضافة لوقوعها في الكتاب العزيز مثل قوله تعالى "فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ" . وان كان تمثيل الخطيب بنهاره صائم مما يناقش فيه بأن الاستعارة إنما هي في ضميره المستتر لا في نهاره (٢) .

ثالثا : أنه يلزم أن لا يكون الأمر بالايقاد على الطين في قوله تعالى: "فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا" . وبالبناء من قوله تعالى : "يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا" . لهامان بل يكون للعملة الذين شبه هامان بهم مع أن النداء له فيكون الامر له أيضا لئلا يلزم تعدد المخاطب في كلام واحد .

(١) ينظر الايضاح ص ٢١ .
(٢) ينظر مختصر السعد على التلخيص ص ٤٤٣، ٤٤٤ . (٣) ينظر المطول ص ٦٦ .

رابعا : انه يلزم توقف جواز التركيب من نحو قولهم " أنبت الربيع البقل وسرتني رؤيتك ـ على الإذن الشرعي ، لأن اسماء الله تعالى توقيفية .

خامسا : ثم يفرد الخطيب اعتراضا آخر ربما لأنه رأى فيه ما يكفي لابطال مذهب السكاكي لكونه منقوضا بنحو قولهم " فلان نهاره صائم فإن الاسناد فيه مجاز ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على التشبيه .

جواب السعد :ـ

وقد حاول الشراح الرد على اعتراضات الخطيب لكن يبقى جواب السعد اقربها إلى القبول .

وجواب السعد يقوم على أن ما اعترض به الخطيب مؤسس على أن مذهب السكاكي في الاستعارة بالكناية هو ذكر المشبه وإرادة المشبه به حقيقة وهذا وهم، لظهور أن ليس المراد بالمنية من قولنا مخالب المنية نشبت بفلان السبع حقيقة . بل المراد الموت لكن بادعاء السبعية له على التفصيل المار في مذهبه وإن كان السعد يعلق بأن الخطيب لم يطلع عليه (١) . ثم يبدأ السعد الجواب التفصيلي فيدفع الاعتراض الأول بأنه بناء على مراد السكاكي يكون المراد بعيشة: صاحبها بادعاء الصاحبية لها . وعلى الثاني: بأن المراد بالنهار الصائم بادعاء الصائمية له لا بالحقيقة حتى يفسد المعنى وتبطل الاضافة وعلى الثالث بأن المقصود كون الامر بالبناء لهامان كما أن النداء له لكن بادعاء أنه بان وجعله من جنس العملة لفرط المباشرة . وعلى الرابع: بأنه لا يكون الربيع مثلا مطلقا على الله تعالى حقيقة حتى يتوقف على السمع إذ المراد به حقيقة هو الربيع لكن بادعاء انه قادر مختار من أجل المبالغة في التشبيه . وأما جواب الاعتراض الخامس فيبينه السعد بقوله إنا لا نسلم أن ذكر الطرفين مطلقا ينافي الاستعارة بل إذا كان على وجه ينبئ عن التشبيه سواء كان على جهة الحمل نحو زيد أسد .

---

(١) ينظر مختصر السعد على التلخيص صـ ٤٤ .

أو لا نحو لجين الماء بدليل انه جعل نحو قوله " قد زر أوزوارة على القمر " من قبيل الاستعارة مع اشتماله على ذكر الطرفين ، على أن المشبه هنا هو شخص صائم مطلقا والضمير لفلان تفسد من غير اعتبار كونه صائما أو غير صائم .

ويذكر السعد أجوبة أخرى لغيره كما يفصل السيد الحديث في هذا الأسلوب والوجوه المتصورة اعتبارها معه (١) .

والحق أن السعد على جهده هنا يظهر وكأنه مناقش لاعتراضات الخطيب أكثر منه مؤيدا لاتجاه السكاكي .

موقف المحدثين حول مذهب السكاكي :ـ

يكاد يجمع المحدثون على رفض اتجاه السكاكي ووصفه بالتكلف مع الاختلاف بينهم في توجيه أسلوب المجاز العقلي في ذاته فقد ذهب كثير من الباحثين إلى أن محل التجوز في الاثبات متابعة لجمهور البلاغيين وعبد القاهر إمام هذا الفن لأنه لا تكلف فيه كما هو شأن مذهب السكاكي ولأن للمجاز العقلي طريقه غير طريق الاستعارة بالكناية لانها تقوم على علاقة المشابهة كغيرها من الاستعارات بخلافه فلا يصح حمله عليها (٢) .

وذهب أحد الباحثين إلى أن فيما ذهب إليه السكاكي تكلفا واضحا (وكان حقه إما أن يتابع الزمخشري وعبد القاهر في هذا المجاز أو يلغيه إلغاء ، لأنه في حقيقته يعود إلى ضرب من التسامح في التعبير وليس هناك من يفكر حين يقول : أنبت الربيع الزهر في مجاز ولا في استعارة) (٣) .

وإذا كان الاستاذ الباحث يؤثر الغاء المجاز العقلي أصلا على ما يفهم من كلامه فأن هناك باحثا آخر يصرح بعدم الحاجة إلى الاعتداد بهذا التركيب في باب المجاز لأن تلك الملابسات بين المسند إليه من القوة بدرجة لا تخفى . والكلام

---

(١) ينظر المطول ص ٦٥ وما بعدها .
(٢) ينظر بغية الايضاح جـ١ ص ٧٠ ، ٧١ .
(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٠ .

فى الحقيقة ليس إلا ضربا من الترابط بين الأثر والمؤثر وقد وضحت تلك العلائق للذهن وضوحا بارزا إلى حد يمكن معه أن يصير المعنى الحقيقى أولى بكلمة المجاز من هذا المجاز المشهور . بل إن الباحث يقرر أن ليس للمجاز العقلى شيء من الأثر فى صناعة الادب أو من النقد يمكن أن يعتذر به له وربما . (كان مثل هذا البحث بالذات مظهرا من مظاهر غلبة علم الكلام وتوغله فى الدراسات البيانية وإفساد جوهرها)(١) .

واذا كنا نرتاب كثيرا فى صلاحية المكتبة للوفاء بمقتضيات المجاز العقلى على وجه الاطراد، فأننا نقابل بارتياب أكبر أمثال تلك الآراء المنادية باطراح المجاز العقلى أو إخراجه من دائرة المجاز . لكون تراكيبه عارية عن مضامين يعتد بها فى ميدان الأدب وفنونه . نعم إن هناك قدرا غير قليل من أساليبه تصل بأمور دينية . وكان ذلك من أكبر العوامل وراء عناية كثير من البلاغيين بحيث صار (فى تفسير الكشاف من أهم البحوث التى عنى بها الزمخشرى)(٢) .

لكن ينبغى أن لا نغفل فى الوقت ذاته أن هناك عددا غير قليل من الشواهد الأدبية لهذا الباب لا تتصل بقضايا دينية اتصالا مباشرا أو غير مباشر .

فالمجاز العقلى وان استند فى جوانب عديدة من أصول بحثه إلى غايات عقدية إلا أنه من غير شك قد جاوز فى التطبيق تلك الحدود بحيث أضحى صالحا لتصوير كثير من خلجات النفوس وخفقات القلوب . وإلا فكيف نفهم إشادة عبد القاهر بهذا الضرب وأنه (على حدته كنز من كنوز البلاغة ومادة للشاعر المفلق . والكاتب البليغ فى الابداع والاحسان والاتساع فى طرق البيان ...)(٣) .

وفى الوسع المناقشة والتدليل على صحة هذا التجوز لولا أن ذلك خارج عن نطاق بحثنا .

---

(١) ينظر علم البيان د . بدوى طبانة ص ١١١ ، ١١٢ .
(٢) البلاغة القرآنية . د : ابو موسى ص ٤٤٦ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

دفاع عن مذهب السكاكي :

رأينا كيف أن أغلب المحدثين ينكرون على صاحب المفتاح مذهبه ولا يرون فيه ما يشجع على الأخذ به • وبعد ذلك فلم يعدم السكاكي أن يجد من يحاول الدفاع عن موقفه من التبعية والمجاز العقلي •

فقد رأى أحد الباحثين أن رد السكاكي التبعية والمجاز العقلي ليس فيه ضرر وليس هدما لكيان البلاغة (١) •

وواضح أن دفاع الباحث غير مشفوع بتعليل علمي يستند إلى أساس موضوعي ومن هنا كان إلى الاعجاب بالسكاكي والتحمس أقرب منه إلى المناقشة الموضوعية •

تعقيب :—

وبعد أن عرضنا اتجاه السكاكي في المجاز العقلي وبعض ما أثاره من مناقشات نرى أن أكثر ما يسوء مسلك السكاكي ما بني عليه من تعميم وإطلاق لأن التشبيه لأجل المبالغة في المسند إليه إنما يتصور في بعض ألوان المجاز العقلي دون الآخر فلا مناص من الاعتراف بالمجاز العقلي لونا بيانيا خاصا له أصوله وسماته وغاياته أيضا التي قد لا تتحقق عند الأخذ بتصوير آخر فمثلا يقول الزمخشري في قوله تعالى (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) • • [وإسناد الجرى إلى الأنهار من الإسناد المجازى • كقولهم : بنو فلان يطؤهم الطريق •وصيد عليه يومان] • ويشير إلى القيمة البلاغية في هذا النوع من الإسناد • وإلى أن موجع الحسن فيه هو تخييل أن المكان يقع منه الحدث وفيه من المبالغة وقوة التأثير ما ليس في غيره) (٢) •

ونخلص إلى أن لكل من المجاز العقلي والمكنية ما يسوغ لهما كل على حده والمدار في إيثار فن على صاحبه انما هو الحال ومقتضياته •

---

(١) البلاغة عند السكاكي د • احمد مطلوب ص ٣٣٣ •
(٢) الكشاف حـ ١ : ص ٢٥٨ •

ومن كل ما مر يظهر أنه كان للسكاكي جهد لا ينبغي إنكاره وبخاصة عن طريق التحديد والضبط والتقسيم كما كانت له آراؤه الخاصة والمتميزة حول مفهومه للمكنية وأنها في المشبه المنزل منزلة المشبه به ادعاء بدليل اثبات ما للمشبه به للمشبه وأيضا فالتخييلية عنده تعد من التجوز اللغوي من قبيل الاستعارة التصريحية لأنها لفظ المشبه به المستعار لأمر وهمي محض وأما قرينة المكنية فلم يقصرها على التخييلية حتى على مذهبه بل تحصل عنده بحقيقة أو بتحقيقية كما ظهر كذلك تفرده برد كل من التبعية والمجاز العقلي إلى المكنية .

وقد أوجدت آراؤه تلك صدى عميقا لدى البلاغيين بعده حيث خلفت كماً هائلا من المناقشات وقد وضح كيف أن الخطيب قد شارك بالنصيب الأوفى حيث فتح الطريق باعتراضاته المشهورة لكي يتناولها الشراح وأصحاب الحواشي مناقشة وجدلا على أسلوب تلك المرحلة في البحث البلاغي لتصبح المكنية بحق من أهم وأبرز الفنون البلاغية تناولا وجدلا الأمر الذي دفعهم الى معاودة النظر في كلام السلف يستخلصون منه ما يمكن الاعتداد به مذهبا في المكنية بعد أن أحاطت بمذهب السكاكي الشبهات ومن هنا ظهرت في المكنية مذاهب أخرى .

الفصـــل الثانى

مذاهب الكناية بعـــد السكاكى

المبحـــث الاول :

==============

مذهـــب الخطيـــب القزوينـــى

المبحـــث الثانى :

=========== ====

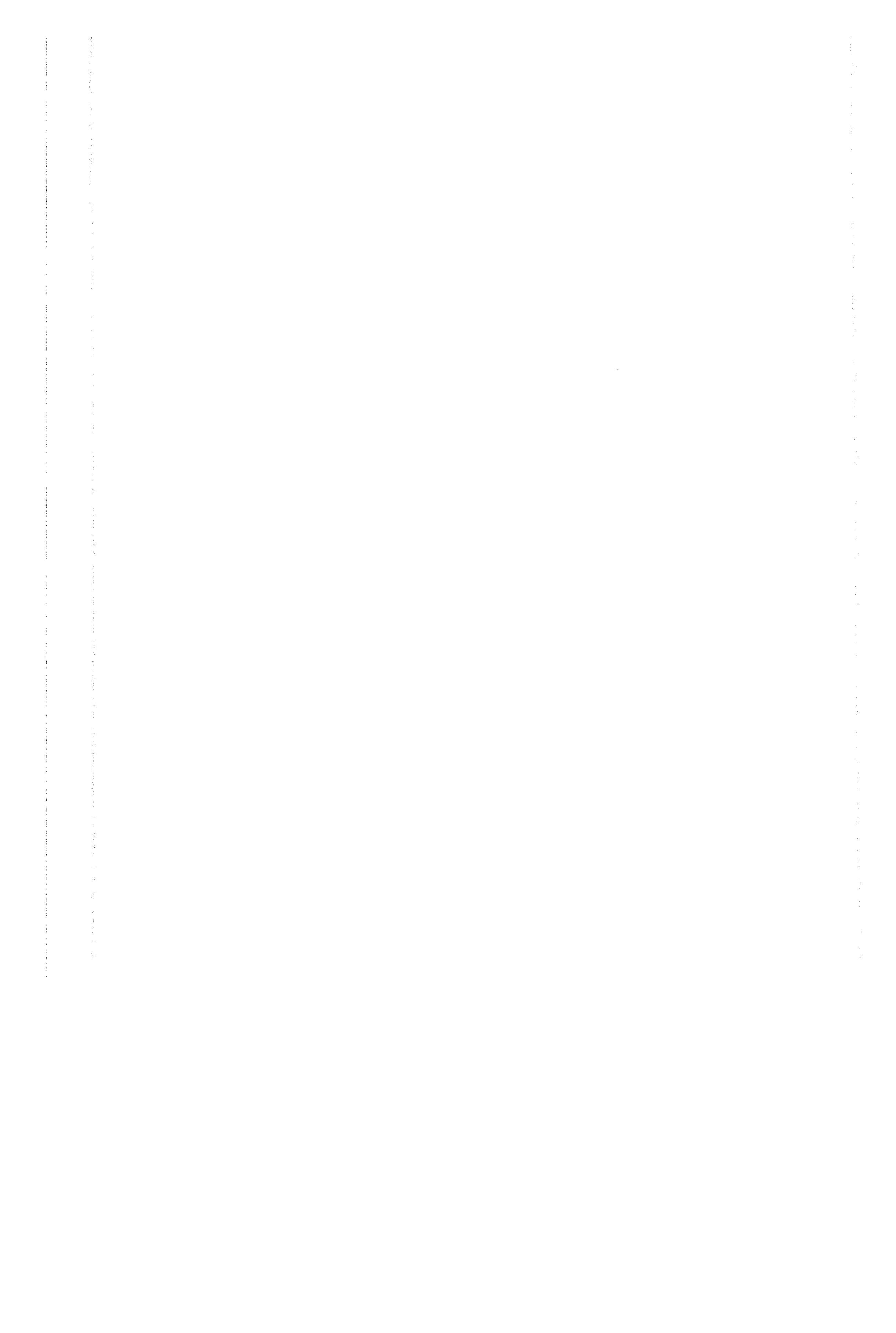
مذهـــب الجمهـــور

المبحـــث الثالث :

===============

المذهب المنسوب الى صاحب الكشف . ومذهـــب العصام

===============



مذاهب الكناية بعد السكاكي

المبحث الأول

مذهب الخطيب ت ٧٣٩هـ (١)

ذكرت فيما سبق عند الحديث عن الامام عبد القاهر ـ طيب الله ثراه ـ انه قد حرر الفرق بين ضربين من ضروب الاستعارة ، وذلك في أكثر من موضع من كتابيه الخالدين ، حيث رأى أن هناك فرقا واضحا بين ذلك الضرب الذي ينقل فيه الشيء عن مسماه الى أمر آخر ثابت معلوم ، وضرب آخر : لاترى فيه اللفظ ينتقل الى شيء يمكن أن ينص عليه فيقال : هذا هو المراد بالاسم وقد طبق ذلك على مافي قول لبيد المشهور (يد الشمال) على ما سبق ايضاحه وهناك .

فلما جاء الخطيب رأيناه يرد ذلك المورد العذب ويبني ، على كلام الشيخ فيستخلص رأيا آخر في المكنية والتخييلية بعد أن أبطل ماذهب اليه السكاكي واقام عليه اعتراضاته المشهورة على مامر .

وأول ما نلاحظه ان الخطيب لم يتناول المكنية والتخييلية ضمن الحديث الاستعارة ، بل أفردهما بفصل خاص ، لكونهما أمرين معنويين لامدخل لهما في التجوز اللغوي (٢) .

---

(١) تاريخ علوم البلاغة ص١٣٤

(٢) ينظر المطول ص٣٨١ ، والمختصر ص ٢٨٨

وقد بين الخطيب في هذا الفصل مراده من كل من المكنية والتخييلية مقسما أنواع اللازم وموضحا بعض الاستعارات المحتملة للتحقيق والتخييل كما سبق له ان فسر التبعية في الحرف بما يؤول الى المكنية ٠

المكنية والتخييليــــة :

والمكنية عند الخطيب هي التشبية المضمر في النفس المتروك أركانه عدا المشبه المدلول عليه باثبات لازم المشبه به للمشبه ٠ وقرينتها وهي اثبات لازم المشبه به للمشبه تسمى استعارة تخييليــة ٠

ففي قولنا لسان الحال ناطق بكذا استعارة بالكناية حيث شبهت الحال الدالة على المقصود بأنسان متكلم تشبيها مضمرا في النفس بجامع الدلالة وهذا التشبيه هــو المسمى الاستعارة بالكناية واثبات لازم المشبه به وهو اللسان ٠ استعارة تخيلية وهو قرينــة المكنيــة ٠

وعبارته في الايضاح (قد يضمر التشبية في النفس فلا يصرح بشئ من أركانــه سوى لفظ المشبه ٠ ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به من غير ان يكون هناك امر ثابت حسا او عقلا ٠ اجرى عليه اسم ذلك الامر فيسمى التشبية استعارة بالكناية او مكنيا عنها واثبات ذلك الامر للمشبه استعارة تخيلية) (١) ٠

وعلى كلامه يكون المشبه مستعملا في حقيقته الوضعية خلافا للسكاكي كما سبق ٠

ولازم المشبه به كذلك فليس في الجزئين تجوز لغوى وانما التجوز فقط فــى اثبات لازم المشبه به للمشبه قرينه للمكنية على طريق المجاز العقلي اخذاً من مفهـوم له في موضع آخر (٢) ٠

---

(١) الايضاح ص١٧٦
(٢) ينظر الايضاح ص١٧٩

وقد اعترض احد المحدثين بأن هذا أنما يصح عند الخطيب اذا كان لازم ٠٠ المشبه به فعلا او مما في معناه بخلاف نحو ٠ انشبت المنية اظفارها بناء على تعريفه للمجاز العقلي ، على انه قد سبق ان المجاز العقلي لا يقوم على اساس التشبيه والتخيلية عند الخطيب تقوم على اساسه لانها اثبات لازم المشبه به للمشبه٠ فلا توجد الا ومعها تشبيه قطعاً ٠ (١)

ولا شك ان لذلك وجها وان كنت أرى ان هذا الخلاف قليل الثمرة لان الامر فيه يرجع الى اختلاف في التوجيه تابع لاختلاف في الاعتبارات٠

التلازم بين المكنية والتخيلية :ـ

وكلام الخطيب صريح في اشتراط ان لايكون الامر المختص بالمشبه به مجرى على امر اخر خاص بالمشبه حسيا أو عقليا وهذا يعني ان قرينة المكنية عنده لاتكون الا تخيلية في الاثبات فقط٠ خلافا لما عند صاحب الكشاف والسكاكي على مامر٠ كما التخيلية عنده لاتوجد غير تابعة للمكنية لكونها قرينة لها ٠

وأما نحو (أظفار المنية الشبيهة بالسبع اهلكت فلانا فبعد تسليم صحة هذا الكلام يعد عند الخطيب ترشيحا للتشبيه كما يعني : أطولكن في قوله عليه السلام (٠٠٠ اسرعكن لحوقا بي أطولكن يدا)٠ ترشيحا للمجاز المرسل (٢)٠ فظهر ان المكنية والتخيلية عند الخطيب متلازمتان ٠ لان التخيلية يجب ان تكون قرينة للمكنية والمكنية يجب ان تكون قرينتها تخيلية ٠

مناقشة مذهب الخطيب٠

واذا كان الخطيب هو الذي فتح باب الجدل حول مذهب السكاكي فان السعد قد يكون أول من اثار الشبه حول رأى الخطيب باعتراضه الذي اورده عليه ٠

---

(١) ينظر بغية الايضاح ٠ عبد المتعال الصعيدي ج ٣ ص ١٥٤٠
(٢) ينظر المطول ص ٣٨٢ ٠

اعتراض السعد :ـ

يقوم اعتراض السعد على أصلين :

الاول : عدم بناء ما ذهب اليه الخطيب على مناسبة لغوية .
الثانى : مخالفته للمأخوذ من كلام المصنف [١] .

والحق ان حكم السعد هذا فيه من الاطلاق ما يستدعى شيئاً من التفصيل والمناقشة .ففيما يتصل بالطرف الاول من اعتراض السعد .نجد ان فهم الخطيب لمعنى الاستعارة بالكناية . وانه التشبيه المضمر في النفس يؤدى الى ان تكون تسميتها استعارة تسمية خالية من المناسبة .سواء قصد بها المعنى المصدرى او الاسمى لان ... التشبيه المذكور فعل من افعال النفس وليس لفظا ولا استعمالا بل انها للسبب عينه تخرج عن المجاز اللغوى جملة . وان حاول بعض من الشرح ايجاد بعض وجوه التناسب بأن يقال ان التشبيه المذكور شبيه بالاستعارة فى ادراج المشبه فى جنس المشبه به او يقال :هى من تسمية السبب بأسم المسبب لان التشبيه سبب للاستعارة والذى صرح به غير واحد انها من المشترك اللفظى عند الخطيب [٢] اى اشتراك المعانى المتعددة فى لفظ لوضعه لها بأوضاع متعددة ولكون هذا الاشتراك فى اللفظ دون المعنى نسب الى اللفظ . [٣]

وان لم يخل وجه مما ذكر من مناقشات .

واما تسميتها مكنية فله وجه. وهو ان معنى الكناية اللغوى . وهو الخفاء موجود فيها لعدم التصريح بالمشبه به والدلالة عليه بلازمة .

وأما الاستعارة التخيلية قرينة المكنية فتسميتها استعارة من باب التسامح .لان متعلقها وهو اللازم نفسه قد استعير اى نقل عما يناسبه ويلائمة واستعمل على طريق الاثبات مع ما شبه بما يناسبه فهى استعارة لغوية لا اصطلاحية اما تسميتها تخيلية فله وجه ايضا . لانه ليس للمشبه كالحال فى المثال الذى ذكرناه امر له وجود فى

---

(١) ينظر المطول ص ٣٦٨ ، والمختصر ص ٢٩٠
(٢) ينظر حاشية الخضرى على شرح الملوى على السمرقندية ص ١٠٢
(٣) ينظر حاشية الانبابى على رسالة الصبان ص ٢٧٢

الحس او العقل يصدق عليه النقل، وانما هو بالنسبة الى الحال امر يتخيل لا تحقق له (١)

واما عن الطرف الثانى لاعتراض السعد، فقد أخذه كثير من اصحاب الشروح والمطولات مأخذ التسليم دون تفصيل فى الغالب أو مناقشة قاصرين جهدهم فى البحث عما يمكن ان يلتمس وجها لمخالفة الخطيب ما عند السلف فذكروا فى ذلك امرين :

أحدهما : ان الخطيب قصد المغايرة بين المصرحة والمكنية من جميع الوجوه اى فى اللفظ والتقدير لان السلف لما جعلوا المكنية لفظ المشبه به المستعار … الى آخره . كان بينها وبين المصرحة اشتباه فى التقدير فعمد الى المغايرة حتى تتميز الاقسام أتم تمييز .

والثانى انه رأى ان اضمار التشبيه فى النفس أقوى مناسبة من اضمار لفظ المشبه به فيها لان التشبيه معنى والمعانى كثيراً ما تضمر فى النفس فالاضمار أنسب بها بخلاف الالفاظ وأما وجه التسمية بأمر يرجع الى اللفظ فلا ضير فى عدم مراعاته لان المقصود تمييز الاقسام الواقعة فى كلام البلغاء . (٢)

وظاهر أن ما ذكر فى المقارنه إنما يمثل رأى بعض السلف كصاحب الكشاف والرازى أما عبد القاهر فغير داخل عند التحقيق فى السلف على ما تفيده خطأ عبارة السعد، اذ أن ما ذهب اليه الخطيب لا يكاد يجاوز كثيراً ما سبق ان قرره عبد القاهر حيث ذكر عبد القاهر ما خلاصته ان فى مثل (يد الشمال) أستعارة بمعنى انه أثبت للشمال ما ليس لها وهى اليد بناء على تشبيهها (أى الشمال) بما له يد وهو الانسان كما ذكر أن معنى جعل الشئ للشئ ليس له يكون ثمرة تشبيهه بما جعل الشئ بما هو له فى الحقيقة - ثم إنه أوضح فى تصويره الفرق بين هذا الضرب والضرب الاخر أن التشبيه هنا لا يدرك الا بعد اعمال الفكر وكأنه تحجبه أستار (٣) فأوحى ذلك للخطيب

---

(١) يقظه الافصاح الاستاذ احمد الحجار ص٢٠٠ ، ص٢٠١
(٢) ينظر حاشية الامبابى على البيانية ص٢٧١ ، ص٢٧٢
(٣) ينظر الفصل الأول من الباب الثالث

أن يعد الاستعارة بالكناية تشبيهاً خفيا مضمرا في النفس يدل على هذا التشبيه باثبات لازم المشبه به للمشبه وسمى هذا التشبيه استعارة بالكناية كما سمى اثبات اللازم للمشبه استعارة تخيلية ولعله أخذ تلك المصطلحات عن الرازى لا السكاكى كما يرى بعض من المعاصرين (١) .

ومما يزيد الامر وضوحا وتأكيداً أن معظم تمثيل الخطيب وكذا تحليله يكاد يخرج عما عند عبد القاهر الى حد قد يصل الى نقل عباراته كتحليله لبيت لبيد وبيت زهير المشهورين في المكنية

ومن هنا نقول في ثقة وأطمئنان إن ما رآه عبد القاهر في الضرب الثاني من ضربي الاستعارة يقاربه كثيرا رأى الخطيب ولا فرق بينهما الا أن عبد القاهر نظر في الاستعارة الى الموجود في أساليب هذا الضرب . وهو كلمة (يد) مثلا . وجعل التشبيه المحذوف تبعاً بينما جعل الخطيب التشبيه أصلاً . وجعل قرينه المكنية تبعاً له ويؤثر البعض اتجاه الجرجاني .(٢)

ولكن ربما يكون الخطيب قد أنفرد بتقسيم الامر المختص بالمشبه به المثبت للمشبه الى مالا يكمل وجه الشبه في المشبه بعدونه كبيت الهزلى المشهور والى ما يكون قوام وجه الشبه في المشبه به كقول الشاعر :—

ولئن نطقت بشكر برك مفصحا ∴ فلسان حالى بالشكاية أنطق (٣)

ولعله قد استبان الان وجه خطأ السعد وكثير من المتأخرين ممن تابعوه وان كان البعض قد ألمح في غير تفصيل إلى وجه الصواب (٤)

واذا كان الخطيب قد تأثر الى حد كبير بعبد القاهر في المكنية والتخيلية فلقد تأثر كذلك بصاحب الكشاف حين أجرى التبعية في الحرف على احدى طريقتيه في تصويرها بما يؤول الى المكنية

---

(١) ينظر البلاغة التطبيقية د . احمد موسى ص٢٠٥
(٢) ينظر هامش الاسرار د . خفاجى جـ١ ص١٤٤ وبقية الايضاح جـ٣ ص١٥٧
(٣) ينظر الايضاح ص١٧٧
(٤) ينظر حاشية الانبابى على البيانية ص٢٧١

تصوير الخطيب للتبعية فى الحرف يؤول الى المكنية : —

والبيانيون يختلفون فى تصوير الاستعارة فى الحرف وتسميتها على مذاهب شتى تبعا لاختلافهم فى تعيين محل التجوز والمراد به.والمهم أن الخطيب يخالف مـــا أورده المفتاح فى الاستعارة التبعية فى الحرف [1] فقد فسر متعلق الحرف الـــذى يجرى فيه التشبيه بالمجرور مدخول الحرف فيجعل متعلق الحرف فى الاية الكريمـــة (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) .. العداوة والحزن والاستعارة فـــى الحرف تابعة لتشبيه مدخول الحرف ، وهو العداوة والحزن بالعلة الغائية التى تدخل عليها اللام حقيقة . وبعد تشبيه العداوة والحزن بالعلة الغائية يستعار اللازم من ترتب العلة الغائية لترتب العداوة والحزن على سبيل الاستعارة التبعية [2] وهـــذا التصوير للاستعارة التبعية فى الحرف يجعلها من اساليب المكنية التى يطوى فيهـــا المشبه به مدلولا عليه بلازمة ومن ثم عد رأى الخطيب الاصل فيما ذهب اليه أن يحقوب فى عدة الاستعارة فى الحرف استعارة مكنية [3] وقد سبق للسعد ان لاحظ أن رأى الخطيب مأخوذ عن الكشاف وناقشه مبينا أنه غير جار على مذهبه لان المشبه يجب ان يكون متروكا فى الاستعارة سواء اكانت اصلية أم تبعية.وأما ما ذكره فلا يصلح الا على الاستعـــارة المكنية [4] ولعلنا نستطيع الان القول إن مذهب الخطيب كان يمكن ان يصبح البديـــل المعقول لما ذهب اليه السكاكى ليسره وبعده عن التعقيد ولكونه اكثر ملاءمة لطبيعـــة الاساليب العربية وفوق كل ذلك لانه مستقى من امام هذا الفن لولا ان السعد قد .. خلف لدى المتأخرين شعورا قويا بأن هذا المذهب لا يمثل سوى أستنباط الخطـــيب فقط حتى يتأتى لهم البحث عن تصور اخر فى المكنية ينسبونه الى السلف.

ولعل من المناسب هنا ان نذكر ان هناك رأيا لأحد معاصرى الخطيب يتصف بالغرابة والمخالفة واعنى به رأى محمد بن على بن محمد الجرجانى ت ٧٢٩هـ . حيث نفى الاستعارة التخييلية أصلا ويخرج أمثلتها على مقتضى المحققه لان الاستعارة علـــى ما يرى كلهمـــا تحقيقية .

---

(١) ينظر المفتاح ص ١٨٠

(٢) ينظر الايضاح ص ١٧٠

(٣) ينظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ٤ ص ١٢٠ وما بعدها .

(٤) ينظر المطول ص ٣٧٥ ، ص ٣٧٦

يقول محمد بن علي الجرجاني : " والتخييلية هو أن يخيل أمر من غير ان يكون له وجود ، ثم يستعار له أمر وجدوى كأستعارة اليد للشمال ، والزمام للغداة أو القرة ، فانه ليس للشمال شيء يستعار له اسم اليد ويجرى عليه اجراء الاسد على زيد مثلا — اللهم الا في الخيال ، وكأستعارة الاظفار لأمر مخيل للمنية في قول ابى ذويب ، وكاستعارة اللسان لامر مخيل للحال ".(١)

وواضح انه يقصد بالتخييلية مفهوم السكاكي لها كما سبق ، ويعقب بقولـه :

(ولي في هذا الكلام نظر ، لان الاصل أن تكون الاستعارة تحقيقية ، فلا يعدل عنها الا للتعذر ، ولم يتعزز ، لاحتمال ان تكون اليد مستعارة في قول لبيد عن طبيعة الشمال الفاعلة للبرد ، فان نسبتها اليها كنسبة اليد الى الانسان ، والزمام مستعار فيه عن القوة القابلة لبرد الغداة أي : الهواء الحاصل في الغداة ، بسبب بعد الشمس عن هوائها ، فتكون تحقيقية وان يكون المراد بالمنية في قول أبي ذويب : ملك الموت ، واطلق المسبب على السبب ، وأنث الضمير ، نظرا الى اللفظ واظفارها تكون مستعارة لقدرة ملك الموت ، كما تستعار لها اليد ، فلا تكون تخييلية .

وان يكون اللسان في قول الاخر مستعار لنفس الحال لا لأمر مخيل منسوب اليه فأن لكل احد لسانين : مقالة وحالة ، فأضافة الى الحال للتخصيص فتكون الاستعارة تحقيقية .

وهكـذا نقـول في كل ما جـاء من هـذا النـوع (٢)

وواضح ان الجرجاني وان قصد بالتخييلية التي نفاها ما جرى عليه السكاكي الا أن مؤدى تخريجاته نفي المكنية ايضا على كل مذهب فيها وهذا يعني اغفال خصوصية مهمة من خصوصيات الفن البلاغي لها مذاقها ومساقها ، وواضح ايضا ما في هذا الرأي من مخالفة ما عليه أئمة هذا الفن يضاف الى ذلك التكلف الشديد في تلك التخريجات والتي لا يقره عليها كل صاحب ذوق وطبع .

---

(١) الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة لمحمد بن علي بن محمد الجرجاني تحقيق د . عبد القادر حسن .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

المبحث الثانـــى

مذهب الجمهـــور

واذا كان الخطيب قد استطاع ان يجعل معظم علماء البلاغة متابعين له فى نقض مذهب السكاكى فان مذهبه المأخوذ عن عبد القاهر لم يكتب له أن يعود بعد أن شكك السعد فى نسبته الى السلف .

وقد اشرنا فيما سبق الى أنه قد أسى فهم مراد السعد من السلف وسنرى كيف أنه قد أسى فهم مراده من السلف مرة اخرى حين أورد ما يشعر به كلامهم فى المكنيه مخالفاً ما قال به الخطيب وكانت النتيجة أختلاط الامر على الكثيرين حتى لدى بعض المعاصرين فيما ذكره السعد منسوباً الى السلف ذكره من بعده منسوبا الى الجمهور تاره والى السلف تارة أو اليهما معاً تارة أخرى دون تحديد دقيق .

والحق أن عبارة الجمهور أو السلف فيها من الاتساع والتعميم بما قد يقع معه البعد عن وجه الصواب .

فاذا سألنا عن المراد من السلف أو الجمهور أصحاب هذا المذهب الذى .. نحن بصدده وجدنا بعض المصادر تذكر أن المراد بالسلف القدماء وان قيدهم العصام بمن تقدم السكاكى والخطيب . (1)

كما فسر بعض اصحاب الحواشى السلف بصاحب الكشاف ومن قبله ومن بعده (2) ولعل هذا الخلط يفتقر الى شى من التحقيق على ان محاولة التأصيل لتلك المسألة يقتضى العودة بها الى أصلها الأول لنرى ماذا قال السعد؟ وما حقيقة مراده؟ وما وجه الصواب ثم ماذا اضاف المتأخرون الى اصول هذا المذهب؟

---

(1) ينظر الملوى على السمرقندية بحاشية الخضرى ص ٩٥

(2) ينظر شروح التلخيص جـ ٤ حاشية الدسوقى ص ١٥٩

لعل من الأمور التى لا يكاد يخالطها شك أن المطول لسعد الدين يعد من اكثر المصادر البلاغية حتى عهده تأثراً بكشاف الزمخشرى وتأثيراً فيه كذلك فقد وجه السعد عنايته لتفسير كلام الزمخشرى وتحليل مثله واستنباط الاصول والقواعد البلاغية منها فى ضوء الدراسة العلمية المقررة لقواعد الفن فى عصره ولذلك يرجع اليه الفضل الاول فى ابراز جهود صاحب الكشاف فى البلاغة بصورتها العلمية التى استقرت بعد المفتاح •

وقد يكون من اكثر مواقف السعد دلالة على ذلك توضيحه لوجهة الزمخشرى فى الاستعارة التى أسميت من الرازى بالاستعارة بالكناية ليرد بها على طريقة الخطيب وليؤكد أن للسلف فهماً آخر مغايراً •

يقول السعد (فان قلت ما ذكره المصنف من تفسير الاستعارة بالكناية شىء لا مستند له فى كلام السلف ولا ينبنى على مناسبة لغوية • وكأنه استنباط منه • فما تفسيرها الصحيح ؟ قلنا معناها الصحيح المذكور فى كلام السلف هو ألا يصرح بذكر المستعار بل يذكر رديفه ولازمه الدال عليه • فالمقصود بقولنا أظفار المنيه •• استعارة السبع للمنية كاستعارة الاسد للرجل الشجاع فى قولنا : رأيت أسداً لكنا لم نصرح بذكر المستعار • أعنى السبع • بل اقتصر على ذكر لازمه لينتقل منه الى المقصود كما هو شأن الكناية فالمستعار هو لفظ السبع المصرح به والمستعار منه هو الحيوان المفترس والمستعار له هو المنيه • وبهذا يشعر كلام صاحب الكشاف فى قوله تعالى : (ينقضون عهد الله) حيث قال : شاع استعمال النقض فى ابطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من اثبات الوصلة بين المتعاقدين • وهذا من اسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشىء المستعار • ثم يرمزوا اليه بذكر شىء من روادفه فينبهوا بذلك الرمز على مكانه • نحو شجاع يفترس أقرانه • ففيه تنبيه على أن الشجاع أسد هذا كلامه • وهو صريح فى أن المستعار هو اسم المشبه به المتروك والمرموز اليه بذكر لازمه لاكنا قد استفدنا منه ان قرينة الاستعارة بالكناية لا يجب ان تكون استعارة تخييلية بل قد تكون تحقيقيه كاستعارة النقض لابطال العهد • (١)

---

(١) المطول ص ٣٨٢ ، ٣٨٣

وهذا استنباط دقيق وفهم واضح يبين فيه رأى الكشاف فى مسألتين الاولى فى معنى الاستعارة المكنية وانها هى المستعار المحذوف المرموز له بذكر لازمه والامر الاخر : ان اللازم قرينة المكنية قد يقع استعارة تحقيقية .

والاهم ان استشهاد بكلام صاحب الكشاف أو استناده اليه يعين مراده من السلف وحتى على افتراض دخول غير الزمخشرى معه كالرازى مثلا وان لم يورد له ذكر فان عبد القاهر غير معنى هنا بحال ومما يزيد الامر وضوحا وتأكيداً أن السعد نفسه قد صرح بعد ذلك بأن (الشيخ عبد القاهر لم يشعر كلامه بذكر الاستعارة بالكناية . وانما دل على أن فى قولنا أظفار المنية بمعنى انه أثبت للمنيه ما ليس لها بناء على تشبيهها بما له الاظفار . وهو السبع وهذا قريب مما ذكره المصنف فى التخييلية) نعم يمكن ان نختلف مع السعد فيما أدعاه بأن كلام عبد القاهر لم يشعر بذكر المكنية على ما مر من تفصيل .(١)

ولعله قد ظهر الان أن ما ذكره السعد فى المكنية مأخوذاً عن السلف انما يمثل رأى صاحب الكشاف كما لا يخرج عما قرره الرازى (٢)

ومن هنا ندرك مدى الخطأ والخلط الذى وقع فيه عموم المتأخرين حيث اعتبروا عبد القاهر من السلف والجمهور . (٣)

قرينة المكنية :-

رأينا السعد يستدرك على الزمخشرى تجويزه مجىء قرينة المكنية تحقيقية ومع محاولة صاحب الكشف التوجيه يبدو أن ذلك لم يقابل بأستجابه من السعد وجملة المتأخرين فقد تابع فيها السعد الخطيب فى عدم جواز مجيئها غير تخيلية على مساها

---

(١) ينظر المطول ص٣٨٣ ، ٣٨٤
(٢) ينظر نهاية الايجاز ص٩٢ ، ص١٠٢
(٣) ينظر البلاغة التطبيقية د . احمد موسى ص٢٠٨

عند عبد القاهر أي إثبات نحو اليد للشمال وكون لفظ اليد حقيقة لغوية وانما التجـوز في الاثبات على سبيل المعقلي . [1] على ما اوضحناه فيما مر بما نعنى عن التكرار . وعلى ذلك فان هناك تلازما بين المكنية والتخييلية والحـق ان الرازى هو أول من أشار الى هـذا التـلازم [2]

ومما سبق نستطيع القول أن هذا المذهب المنسوب الى الجمهور أو السلف انما هو استخلاص السعد ومن في عهده فقد أخذوا تفسير المكنية عن صاحب الكشاف على حين أخذوا تفسير التخييلية قرينتها عن عبد القاهر ومن بعده الخطيب وربما كان تصوير الرازى لكل من المكنية والتخييلية يعد أكثر طرق السلف اقترابا من مذهب الجمهور مع أن معظم المراجع تهمل الاشارة اليه فضلا عن ابراز تلك الناحية .

مايرجح به هـذا المذهب :—

وقد ذكروا لنا في ذلك أمور .

أولا : ان وجه تسميتها استعارة بالكناية أو مكنيا عنها أو مكنية ظاهرة . أما الكناية فلانه لـم يصرح بالمستعار بـل دل عليه بذكر خواصه ولوازمه والكناية فـي اللغـة الخفـاء .
وأما الاستعارة فلأن لفـظ المشبه به قد استعمل في المشبه الذى هو غـير ماوضـع له لعلاقة المشابهـة . [3]

ثانيـا : أنه أقرب الى الضبط لان الاستعارة بأقسامها عليه هى لفظ المشبهة بـه المستعمـل في المشبه والضبط أمر مستحسن ولا ترد التخييلية على تفسيرهم لانهـا ليست مقصودة لذاتها اذ هـى قرينة المكنية وهم معترفون بـأن تسميتها استعاره فيه تسامح . [4]

ثالثـا : سلامته من الشبه الواردة على غيره من المذاهـب .

رابعـا : ما عبر عنه الحموى بقوله : وكفى شاهدا لقوته ذهـاب صاحب الكشاف اليه [5]

خامسـا : ماذكر من ان أكثر كلام السكاكي يميل الى هذا المذهب على ما قال به السعد ومن ثم حاول صرف كلامه المخالف ولكن الحق أن للسكاكى رأيا خاصا سبـق ايضاحـه .

---

(١) ينظر المطول ص ٣٨١

(٢) ينظر الايضاح ص ١٧٩ ، والمطول ص ٣٨٢

(٣) ينظر الملوى على السمرقندية ص ٩٦ ، ٩٧

(٤) ينظر حاشية الانبابى على رسالة الصبان ص ٢٧١

(٥) ينظر ضور العبارات وغرر الاشارات للحموى ص ١١٣

ولكن النظر والتعمق فى هذا المذهب يكشف أن رأيهم فى كون الاستعارة بالكناية هى لفظ المشبه به المستعار فى النفس للمشبه . ان لفظ المشبه به فى الواقع لم يستعمل فى المشبه . بل انه ليس موجودا فى العبارة وتقدير استعارته نفسها أمر خارج عن الحقيقة والمجاز . فكلاهما لفظ مستعمل غير أن الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له والمجاز لفظ مستعمل فى غير ما وضع له الامر الذى دفع بعض المتأخرين وبعض الباحثين المعاصرين الى رمى هذا المذهب بالتكلف لان القول باستعارة اللفظ الدال على المشبه به ثم حذفه فيه تعسف ومخالف للواقع .

من اضافات المتأخرين :—

ورد فى كتب المتأخرين من أصحاب الشروح والحواشى والتقريرات كثير من البحوث المتصلة بالمكنية وان كنا نلاحظ أن بعضا مما ذكروا لا يمثل قيمة حقيقية فى جانب الفن البلاغى الخالص لانه لم يستنبط من النماذج العالية ولذلك فهى أقرب ما تكون الى المسائل النظرية أو الافتراضية ومن ثم جاءت الامثلة مصنوعة متكلفة . على أن ذلك كله لا يمنع أن نتناول بعض تلك البحوث لأنها تمثل أحدى المراحل التى مر بها البحث البلاغى .

الاستعارة المكنية التمثيلية (المكنية المركبة)

يذكر الحموى نقلا عن السعد فى حاشيته عن الكشاف وجود هذا النوع على نحو ما فى قوله تعالى " أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار " ويوضح السعد هذه الاستعارة فى الاية الكريمة على هذا النحو :—

المشبه المركب : هو هيئة أو حالة استحقاقهم العذاب . وهم فى الدنيا وهو ما دل عليه قوله تعالى "أفمن حق عليه كلمة العذاب "

والمشبه به المركب المحذوف هو هيئة دخولهم النار فى الآخرة على طريق الاستعارة بالكناية . واما رمز المشبه به المشبت — القرينة — فهو هيئة انقاذهم من النار الذى هو من ملائمات دخولهم النار .

وقرينة الاستعارة بالكناية ههنا استعارة تحقيقية كما فى نقض العهد على ما هو مذهب الزمخشرى فى الكشاف . (١)

---

(١) درر العبارات وغرر الاشارات فى تحقيق معانى الاستعارات لاحمد بن محمد الحموى تحقيق عبد الحليم ابراهيم شادى ص ١٥٩ .
وحاشية الانبابى على رسالة الصبان ص ٤٤٨ ، ٤٤٩

وعلى ذلك فلا وجه لما ذهب اليه ابن كمال باشا حيث قال : ان القوم قد غفلوا عن هذا النوع من التمثيل ومثل هو له بقوله تعالى : " نساؤكم حرث لكم " .

فالمشبه هو هيئة القاء النطفة فى الارحام للنسل ، والمشبه به هو هيئة القاء البذور فى الارض للزرع وواضح ان رمزه الدال عليه هو كلمة " حرث " ويقول ابن كمال باشا : ولما كان التشبيه المذكور بناء على هذا التمثيل المتروك ترتب اللازم على الملزوم ولم يهتدوا ان يسمى تمثيلا على سبيل الكناية . (١)

المكنيـــة التبعيـــة :ـ

ينقل الحموى عن الفنارى انه يمكن تحقق التبعية المكنية كما فى أعجبنى اراقة الضارب زيد ، ويدل على تأييده للفنارى أنه استخرج مثالا آخر لهذه الاستعارة وطبقها عليه من الكشاف وحاشية القطب عليه وذلك فى قوله تعالى أعداكم (؟) أمركم بالسوء .... الآية ويلاحظ ان الحموى قد ترك المثال الأول دون تعليق لكنه ينقل تفسير الزمخشرى للآية السابقة وهو (فان قلت كيف كان الشيطان آمرا مع قوله : ليس لك عليهم سلطان) قلت: شبه تزيينه وحثه على الشر بأمر الآمر ـ كما تقول أمرتنى نفسى بكذا وتحته رمز الى انكم منه بمنزلة المأمورية لطاعتكم له ـ) ثم ينقل الحموى تعليق القطب " وتحته رمز ونصه : أى استعارة تبعية ، واذ أمر الشيطان فى اطاعة الانسان فهو بمنزلة المأمور المنقاد . ففى الاستعارة كناية رمزية على مأموريته وانقياده له .

وقد اجرى الانبابى الاستعارة فى المثال الأول حيث قال : شبه فى النفس الضرب الشديد بالقتل فى شدة الايذاء واستعير فى النفس له ورمز له باراقة الدم . وأشتق منه قاتل بمعنى ضارب ضربا شديدا على طريق المكنية التبعية . واراقة الدم تخييل .

ويلاحظ ان الصبان رغم انه نقل هذه الاستعارة عن الحموى الا أنه اهمل التمثيل بالآية الكريمة . كما يلاحظ ان الفنارى صاحب الفكرة أصلا قال ولعلهم لم يتعرضوا لهـا لعدم وجدانهم اياها فى كلام البلغاء . ويؤكد الانبابى هذا بقوله فلا يقال انها متحققة فى ابلغ كلام ومن ثم جاء مثالها مصنوعا .

واذا كانت المكنية التبعية كما يقول هؤلاء العلماء ومنهم صاحب الفكرة أصلا فلا ينبغى للحموى أن يأخذ بها ويستخرج لها مثالا من القرآن الكريم وهو فى المرتبة العليا من البلاغة وأما كلام صاحب الكشاف والقطب فلم يقصد به التبعية المكنية . مصرح قول الزمخشرى

(١) درر العبارات ص ٢٠٩

يجرى على الاستعارة الاصلية المكنية •

وأما تعليق القطب على قول الزمخشرى : وتحته رمز بقوله: أى استعارة تبعية . يقصد أنه قرينة الاصلية المكنية استعارة تبعية ، " تحقيقية " على ماهو مذهب الزمخشرى المختلف فيه على ما مر •

وعلى ذلك فاجراء الاستعارة الاصلية المكنية فى الآية الكريمة بأن يقال : شبه من زين لهم الشيطان الشر بأناس مأمورين بالاستجابة والطاعة وحذف المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو الامر على طريق الاستعارة الاصلية المكنية والذى أمول اليه اعتبار الاستعارة تبعية فى الفعل (يأمر) لأنه هو مثار سؤال الزمخشرى كيف كان الشيطان آمراً مع قوله ليس لك عليهم سلطان وايضاح تلك الاستعارة انه شبه تزيين الشيطان الشر بالانسان بأمر الامر فى الاستجابة والطاعة ثم اشتق منه يأمر بمعنى يزين الشر •

عدم وجوب ذكر لفظ المشبه بلفظه الموضوع له حقيقـــة :—

قالوا : إنه ليس بلازم أن يذكر لفظ المشبه فى المكنية بلفظه الموضوع له على الحقيقة بل جوز وأن يذكر بلفظ مجازى على وجه الاستعارة كأن يشبه شئ بأمرين من وجهين مختلفين ويذكر بلفظ احدهما ويثبت له لازم من لوازم الآخر من مثل قوله تعالى " فاذاقها الله لباس الجوع والخوف • فقد شبه ماغشى الانسان عند الجوع والخوف من الضرر والالم من حيث الاشتمال باللباس واستعير لفظ اللباس على طريق التصريحية وشبه ماغشى الانسان • الى آخره مرة ثانية بعد أستعمال لفظ اللباس فيه من حيث كراهية النفس بالطعم المر البشع ثم حذف المشبه به على طريق المكنية وايقاع الأذاقة دليل المشبه به استعارة تخيلية •

ففى الآية ثلاث استعارات تصريحية ومكنية وتخييلية هذا كله بالبناء على امكان بناء الاستعارة على المعنى مجازى وقيل انه الصحيح كما قيل ان الاذاقة مع كونها تخييلية للمكنية فيمكن عدها تجريدا بالنسبة للتصريحية • (١)

---

(١) ينظر رسالة الصبان بحاشية الانبابى ص ٢٩٠ ص ٢٩١

شرط اللازم

ذكر صاحب عروس الافراح انه يشترط ان يكون لازم المشبه به قرينة المكنية مساويا للمشبه به أى أن الذهن ينتقل من اللازم الى المشبه به ولو بحسب العرف العام كذ لــك ينتقل الذهن من المشبه به الى لازمه كأظفار المنية فهى مساوية للسبع لان اظفار غيــره لاينسب اليها نشب على التحقيق .

وأما اللازم غير المساوى فهو الذى ينتقل الذهن فيه الى المشبه به ولا عكــس على ماذكره الامبابى وفعل له بالاظفار بالنسبة للمجترئ — ينظر حاشية الابيابى علــى الرسالة البيانيه ص ٣٠٠

وقد سبق للسكاكى فاشترط ذلك وهو بصدد الحديث عن قرينة المكنية وينظـر المفتاح ص ١٧٩ .

وقد دفع الصبان هذا الشرط فذكر أن الدلالة فى الجملة كافية فى مثل ذلــك الرسالة البيانية ص ٣٣٠ والحق أن المقصود الدلالة على خصوص المشبه به .

الحكم عند وجود اكثر من لازم :—

اذا كان المذكور فى الاسلوب احد لوازم المشبه به فقط كان هو القرينة ولا اشكال ولكن وقع الخلاف عند تعدد اللازم فقيل يجعل اقواها وأبينها دلالة على المحذوف قرينـة وقيل بل أسبقها فى الدلالة . وهو اختيار العصام وعلى محلا الاحتمالين يكون غير القرينة ترشيحا للمكنية ولامانع من اعتباره ترشيحا للتخييلية معها ايضا لان الترشيح يكون للمجــاز اللغوى بأقسامة بذكر ملائم الموضوع له الحقيقى كما يكون للمجاز العقلى بذكر ملائم المسنــد اليه الحقيقى . مثلما يكون للتشبيه بذكر ملائم المشبه به (١) .

---

(١) ينظر رسالة الصبان الموضع السابق .

جريان الترشيح والاطلاق والتجريد مع المكنية : —

وذكروا أن الترشيح والاطلاق والتجريد كما يكون فى التصريحية يقع كذلك فى المكنية فالترشيح يكون عند ذكر ملائم المشبه به المحذوف بعد تمام القرينة ، ومثلوا له بقولهم نطق لسان الحال (١) فذكر اللسان ترشيح عند اعتبار النطق قرينة واعتبار العكس صحيح كما سبق .

ومن المكنية المرشحة قول ابى العتاهية يهنئ المهدى بالخلافة : —

أتته الخلافة منقادة   اليه تجرر أذيالها

فقد أستعار الغادة الحسناء للخلافة وأضمر اللفظ المستعار . ودل على تلك الاستعارة بأثبات لازم المشبه به للمشبه وهو (أتت) على سبيل المكنية واثبات الاثبات للخلافة قرينتها تخييلية وقوله منقادة اليه تجرر اذيالها ترشيح لانه مما يلائمه المشبه به.(٢)

والاطلاق يحصل بمجئ المكنية عارية عن ذكر مايلائمه المستعار منه المحذوف . وكذا المستعار له المذكور . حقيقة أو حكما بأن يقع ملائم لهما معا . ويمكن ان نمثل بقول المتنبى : —

ولما قلت الابل امتطينا   الى ابن ابى سليمان الخطوبا (٣)

استعار الابل للخطوب استعارة مكنية قرينتها : اثبات الامتطاء . وهو من لوازم الابل للخطوب واثبات الاستطاء المذكور للخطوب استعارة تخيلية وليس فى تركيب الاستعارة مايلائم ، أيا من المستعار منه . أو المستعار له فالمكنية مطلقة (٤)

فان وجد مع المكنية ملائم للمشبه سمى سميت مجردة لتجريدها عما يقويها . ويمكن ان نمثل لها بنحو : (اشرقت حجتك العقيلة) فيكون اثبات الاشراق للحجة قرينة على استعارة الشمس لها لوضوحها . ولفظ العقلية الملائم بمعنى الاصلى للحجة اى المستعار له فهو تجريد والاستعارة مكنية مجردة

---

(١) السابق ص ٤٢٨
(٢) ينظر محاضرات فى البيان د . يوسف البيومى ص ٩٠
(٣) ينظر عروس الافراح للسبكى — شروح التلخيص
(٤) ينظر أسرار البيان د — الهاوس . ص ١٠٠ جـ١ ص ١٣٣

مجئ أكثر من مكنية فى لفظ واحـــــد :ـ

ولم تقعد هم القواعد عن أن يروا أمكان اجتماع مكنيتين فى لفظ واحد بأن يشبــــه شئ بأمرين ويذكر لفظه ويثبت له لازمهما .

ومثلوا لذلك بقولهم : رفعت عن معارفك قناعا وغلقا (١) فقد شبهت المعارف تارة بمحجبات العرائس ورمز اليه بالقناع . وأخرى بمخزونات النفائس ورمز اليه بالغلق (٢) .

(ولوجاريناهم على أساليبهم فى الجدل لقلنا ان ذلك لايظهر الا على مذهب السكاكى والخطيب) لان التشبيهين متعلقان بمشبه واحد .

وقد يجوز لنا القول بعد ما سبق ان المتأخرين من أصحاب الشروح والحواش كـان لهم جهد فى بحوث المكنية والتخييلية حيث انزلوها على كثير من قواعد وتقسيمات الاستعـارة مطلقا . وان لم ينتج ما خلفوه كبير اثر فى جانب الفن البيانى الخالص قدر مساوقته طريقتهم فى البحث الدرس عن التعميد والتحديد لكل سبيل .

وبعد أن عرضنا لاصول هذا المذهب كما قرره السعد وقفنا على اضافات المتأخرين بعده بيد والخلاف واضح بين هذا المذهب ورأى الخطيب من جهة فى حين يظهر الخـلاف اكثر وضوحا بينه وصريح كلام السكاكى فى كل من المكنية والتخييلية غير ان بعضا من البلاغيـين يرى امكان التماس وجه للتقريب ان او التوفيق .

السعد يقوم بالتوفيـــق :

وقد بنى السعد رأيه هذا على ان السكاكى يريد بذكر المكنية تارة معناهـــا حيث يصرح بأنها ذكر المشبه مرادا به المشبه به كما يريد بها معناها اللفظى تـارة . اخرى حين يصرح بأنها لفظ المستعار . ثم يؤول السعد كلام المفتاح فى التهميــــــة والمجاز العقلى الموهم للمخالفـــة .

(١) الغلق بفتحين المغلاق وهو مايغلق به الباب
(٢) رسالة الصبان ص ٢٨٨ ، ص ٢٨٩
(٣) ينظر تفصيل هذا الموضوع فى رسالة الصبان بحاشيته الانبابى ص ٤٨٦ ، ٤٨٧

يقول السعد بعد محاولته الجواب على اعتراض الخطيب: والحق أن ...
الاستعارة بالكناية هو لفظ السبع المكنى عنه بذكر رديفه الواقع موقعه لفظ المنية المرادف له أو ادعاء.

والمنية مستعار له . والحيوان المفترس مستعار منه على ما سبق . والسكاكي حيث فسر الاستعارة بالكناية بذكر المشبه وإرادة المشبه به اراد بها المعنى المصدري وحيث جعلها من اقسام المجاز اللغوى اراد بها اللفظ المستعار . وقد صرح بأن المستعار في الاستعارة بالكناية هو اسم المشبه به المتروك وعلى هذا لا اشكال عليه . الا انه صرح في اخر بحث الاستعارة التبعية بأن المنية استعارة بالكناية عن السبع . والحال عن المتكلم الى غير ذلك من الامثلة.
وفي أخر فصل المجاز العقلي بأن الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي فجاء الاشكال فالوجه ان يجعل مثل هذا على حذف المضاف اى ذكر المنية استعارة معناها المصدري . اعنى استعمال المشبه في المشبه به ادعاء فيوافق كلامه في بحث الاستعارة بالكناية . وحينئذ يندفع الاشكال بحذافيره. (١)

ولكن رأى السعد لم يلق قبولا تاما فقد علق السيد بأن الاولى الحكم على مذهب السكاكي بأنه مختل لتناقض عباراته . (٢)

ومع تقديرنا لرأى السعد وجهده في الدفاع عن السكاكي ومذهبه الا اننا نعتقد أن الاقرب الى الصواب اخذ المذهب على صريح كلام صاحبه وان لم يخل من التكلف فأن محاولة السعد لم تسلم هي الاخرى من تكلف.

ومرد الامر كله الى ان السكاكي لم يستطع ان يقنعنا برأيه بأيضاح كاشف لاصول مذهبه المخالف بما يدفع عنه الغموض الذى شابه وأدى الى اختلاط الامر على من بعده شأن أختلاط الامر عليهم في نسبه المذهب الذى قرره السعد ونخلص من كل ما سبق الى ان المذهب الثالث انما هو مذهب جمهور المتأخرين من أصحاب

---

(١) المطول ص ٤٠١ ، ٤٠٢
(٢) حاشية السيد على المطول نفس الموضع.

الشروح والحواشي أخذاً من استنباط السعد وبعض علماء عصره مما ورد بشأن المكنية عند الزمخشري والتخييلية عند عبد القاهر وعن الرازي فيهما وان اغفلوا ذكره • وعلى الرغم من ان ذلك المذهب قد سلم من كثير من الشبه التي اورد تعلى مذهب السكاكي والخطيب فأنه لم يستطع ان يفض النزاع تماماً ففهم بعضهم أو رأى مذاهب اخرى •

المبحث الثالث

مذاهب أخرى

هناك اتجاهان آخران أسوقهما في إيجاز لأنهما لم ينالا الشهرة المذاهب الأخرى فوق أنه قد وقع حولهما نزاع قد لا يجدي الوقوف عنده طويلا .

ما استنبطه السعد عن صاحب الكشف (١)

أستخلص السعد في حواشيه على الكشاف من كلام بعض الناظرين في ما اعتبره قولا رابعا في المكنية وذلك بأن تكون الاستعارة في اللازم المذكور من حيث كونه كناية عن استعارة المشبه به للمشبه وسمى اللازم استعارة حينئذ لاستعارته للمشبه وبالكناية لأنه كناية عن النسبه أي اثبات نحو الحبل للعهد (٢) .

يقول السعد (قد كنا في عويل من اختلاف اقوال القوم الى ثلاثة .. حتى فهم بعض الناظرين في هذا الكتاب (الكشاف) ان الاستعارة بالكناية في قولنا اظفار المنية نشبت ، هي الاظفار من حيث كونها كناية عن استعارة السبع للمنية وفي قولنا : شجاع يفترس اقرانه . الافتراس مع أنه استعارة تصريحية لاهلاك الاقران فهو كناية عن استعارة الاسد للشجاع . اذ الكناية لا تنافي ارادة الحقيقة لكن المقصود بالقصد الاول هو التنبيه على أنه اسد كي يجيء الافتراس وسائر ما للاسد من اللوازم بالضرورة . ثم هذه الكناية من قسم الكناية في النسبة اعني اثبات الاسدية للشجاع والحبلية للعهد للقطع

---

(١) ت ٧٩٢ هـ . تاريخ علوم البلاغة ص ١٥١

(٢) ينظر رسالة الصبان ص ٢٨٧ ، ٢٨٨

بأنه ليس كناية عن المسكوت نفسه بل دال على مكانه) (١)

وقد عقب السيد بأن السعد يريد بالناظر المنسوب اليه هذا الفهم صاحب الكشف معترضا على صحة نسبة ذلك الفهم الى صاحب الكشف وقد وصف السعد بالسهو والغفلة ثم نقل كلام صاحب الكشف ليخرج بأن صاحب الكشف لم يخالف ما عليه من السلف(٢) وقد ناقشه عبد الحكيم وصحح استخلاص السعد على ضوء عبارات صاحب الكشف فى مواضع عديدة (٣)

مذهب العصام ت ٩٥١ هـ

وللعصام رأى خامس فقد ذهب الى :
ان فى مثل ألمنية انشبت اظفارها (٤) استعارة وكناية والاستعارة متفرعة على تشبيه مقلوب اى أنها لفظ المشبه به المقلوب المستعمل فى المشبه المقلوب مع جعل مجموع الكلام بعد ذلك كناية اصطلاحية وقرينة الاستعارة هى ذكر ملائم المشبه المقلوب وقرينة الكناية حالية .

يقول العصام فى حاشيته على السمرقندية بعد أن ذكر الاقوال الثلاثة (فاستمع لنا تحقيق رابع أرجو ان يكون ممن ليس اعطاه مانع . وهو ان الاستعارة بالكناية من فروع التشبيه المقلوب كما يجعل المشبه مشبها به مبالغة فى كماله فى وجه الشبه حتى استحق ان يلحق به المشبه به كقوله :

وبدا الصباح كأن غرته ⁂ وجه الخليفة حين يمتدح

حيث شبه غرة الصباح بوجه الخليفة كذلك يستعار اسم المشبه للمشبه به فيكون غاية المبالغة فى كمال الشبه فى وجه الشبه كما فى اظفار المنية فالمراد

---

(١) حاشية السيد على المطول (طبعة منفصلة) ص ٢٠١
(٢) ينظر السابق ص ٢٠٢ وما بعدها .
(٣) ينظر حاشية الانبابى ص ٢٨٨
(٤) تاريخ علوم البلاغة ص ١٧٩

بالمنية السبع . ويجعل الكلام حينئذ كناية عن تحقق الموت بلا ريبة .

فنشبت المنية اظفارها بفلان . بمعنى أنشب السبع اظفاره به كناية عن موته لامحالة .
وحينئذ لا تجوز فى اضافة الاظفار الى المنية . ولا اشكال فى جعل المنية استعارة . ووجه
تسميتها استعارة بالكناية فى غاية الوضوح (١)
وحاصل مذهب العصام على قول الشاعر :—

واذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

أن الشاعر شبه الرجل بالعناية . مبالغة فى قوة الشبه كما يشبه السبع بالمنية . وكذا يشبه
غرة الصباح بوجه الخليفة ثم يستعار لفظ المشبه به للمشبه . وهو العناية للمشبه وهو
الرجل . ويكون معنى ملاحظة عيون الرجل . كناية طلب الكرامة له مثلا (٢)

وقد اعترض على هذا المذهب بوجوه منها أن كل أحد يعرف أن المراد بالمنية مثلا
الموت قطعا فيبطل كون لفظها استعارة للسبع . ومنها : أنهم اعتبروا فى الكناية أن تكون
قرينتها مانعة من اراد المعنى الموضوع له وهذا غير مطرد هنا ومنها : أن حصول المعنى
يصلح لان يكون كناية غير مطرد أو غير ظاهر فى بعض التراكيب . ومنها أنه يلزم أن يكون
المذكور فى الاستعارة بالكناية المشبه به لأن المنية على هذا الوجه كذلك (٣) وهذا باطل
لمخالفته واقع الاساليب العربية (٤) ولئن تعددت الاقوال والمذاهب فان المذهب الثالث ظل
هو السائد وعليه المعول والاجراء ليس عند الجمهور المتأخرين فحسب وانما المحدثون كذلك
على الرغم من ظهور اتجاهات أخرى أستند بعضها الى أصل ثابت فى التراث فى حين أستمد
الكثير منها من واقع الأدب الحديث سواء العربى منه أو الأجنبى

---

(١) رسالة الصبان ص ٢٨١ وما بعدها وكذا أورده فى أطوله بعبارات أخرى
(٢) ينظر أمالى على عبد الرازق ص ١١٨
(٢) ينظر رسالة الصبان ص ٢٨٤
(٢) ينظر البيان بين عبد القاهر والسكاكى أ د على البدرى الطبعة الأولى ص٢٠٢ مطبعة السعادة

الفصل الثالث

صور المكنية

المكنية ذات المشبه القريب
المكنية ذات المشبه البعيد

المكنية الملتبسة مع صور البيان الأخرى

المكنية الملتبسة مع التشبيه
المكنية الملتبسة مع التصريحية
المكنية الملتبسة بالتبعية
المكنية الملتبسة بالكناية
المكنية الملتبسة مع الحقيقة
المكنية والمجاز العقلي
المكنية الملتبسة مع المجاز المرسل

* * * * *

صور المكنيـــة

تتعدد صور المكنية وتختلف باعتبار حال الشبه معها قربا أو بعدا وباعتبار كونها خالصة فى الحمل عليها أو مجيئها ملتبسة مع فن من فنون البيان الأخرى ومع أنه قد سبق أن عرضنا لأكثر تلك الصور فى سياقه إلا أن الدراسة تحتم تناول تلك المسألة هنا فى شئ من التوسع والتفصيل ونرى أن ذلك يعد أمرا مهما جدا لما فيه من جمع لما تفرق والأهم أن عرض تلك الصور على هذا النحو سوف يطلعنا على أبرز وأخطر مشكلات المكنية ملتمسين الحلول والحدود الفاصلة بينها وبين كل لون آخر ملتبس معها على ضوء التحليل للشواهد ومعونة السياق وقرائن الأحوال ٠

المكنية ذات الشبه القريب :-

كثيرا ما تأتى صور هذه الاستعارة وقد بنيت على شبه قريب بحيث يكون وجه الشبه الواصل بين المستعار له والمستعار منه واضحا قويا لاتحتاج إلى بذل جهد أو محاولة متكلفة فى اعتباره كما فى قوله تعالى " وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (١) ، فقد وصف الميثاق الذى هو العهد الموثق والمؤكد بالغلظ الذى هو من خصائص الأجرام والوجه أن الميثاق قد شبه بالحبل المتين والعلاقة قائمة وواضحة لأن كلا من الميثاق والحبل يربط بين أثنين ثم حذف المشبه به وذكر وصفه على طريقة المكنية ولنا بعد ذلك أن نستخلص دقة هذه الاستعارة وجمال تصويرها ورسوخ قدمها فى باب التصوير البيانى إذ قد خيلت ميثاق الله وعهده لأنبيائه جسما غليظا مرئيا زيادة فى وضوحه وتشخيصه فى وجدان أممهم ليظل رؤية قائمة وحاجزا كثيفا بينهم وبين كل باطل والمهم وضوح العلاقة بين ما استعير منه والمستعار له على مابينا ٠

ويقول عليه الصلاة والسلام "الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة" (٢) فقوله عليه السلام تطفئ الخطيئة استعارة مكنية من حيث شبهت الصدقة بالماء والعلاقة قائمة وواضحة وهذا التوجيه أولى من توجيه المكنية على تشبيه الخطيئة بالنار ثم حذف المشبه به والدلالة عليه بلازمة (٣) وذلك لأن المقصد الأصيل الذى سيق من أجله الكلام إنما هو الصدقة وبيان أثرها ومن هنا كانت أولى بالاعتبار ومن هذا الضرب كذلك قوله عليه الصلاة والسلام : النِّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ (٤)

(١) سورة الاحزاب الآية (٧)
(٢) المجازات النبوية ص ١٨٦
(٣) التصوير البيانى د أبو موسى ص ٢٥٤
(٤) المجازات النبوية ص ٢٠٢

فقد شبه الشيطان بصائد ثم استعير له الصائد وحذف ورمز إليه ببعض روادفه وهي الحبائل ثم إنه عليه السلام قد جعل النساء كتلك الحبائل وقد عقب على ذلك الشريف الرضى بقوله " وهذا من أحسن الاستعارات وذلك أنه عليه السلام جعل النساء من أقوى ما يصيب به الشيطان الرجال فهن كالحبائل المبثوثة والأشراك المنصوبة لأنهن مظان الشهوات ومقاود الخطيئات وبهن يستخف الركين ويستخون الأمين (١)

ومما ورد على هذا الضرب قول مسلم بن الوليد :

وَلَمَّا تَلاقَيْنَا قَضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ ... بِوَجْهٍ لِوَجْهِ الشَّمْسِ مِنْ مائِهِ مِثْلُ (٢)

فالليل ينتهي كما ينتهي من يموت ومن ثم جاز وقرب تشبيه الليل بالانسان الذي يحيا ويموت ونظير ذلك في قرب الشبه قول ذي الرمة : —

وَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّيْلَ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ ... حَيَاةَ الَّذِي يَقْضِي حُشَاشَةَ نَازِعِ (٣)

نراه وصف الشمس بالحياة لانها تشبه ذا الروح من ناحية أنها تقوى وتضعف

وقول أوس بن حجر : —

وَإِنِّي امْرُؤٌ أَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ بَعْدَمَا ... رَأَيْتُ لَهَا نَاباً مِنَ الشَّرِّ أَعْصَلَا (٤)

نراه في قوله : "لها ناباً" قد شبه الحرب بحيوان مفترس لما في كل منهما من الضرر والهلاك وحذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو الناب .

ومما نراه موافقا لما نحن بصدده قول أبي تمام

رقيقُ حَواشِي الحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ ... بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ في أنه بُرْدُ (٥)

ومع أن هذا البيت وما فيه من استعارة قد أضحك أبا العباس وعارضه الآمدي وغيره لما فيه من بعد ومخالفة للمألوف إلا أننا نرى أن الاستعارة هنا مقبولة وقريبة الشبه إذا راعينا ثقافة أبي تمام وملابسات عصره

ويقول أبو عبادة البحتري :

وكنتَ إذا استبطأتَ ودَّك زرتُه ... بتفويف شعر كالرداء المحبَّر

---

(١) المرجع السابق نفس الموضع
(٢) شرح ديوان صريع الغواني ص ٢٦١
(٣) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص
(٤) البديع لابن المعتز ص ٢٢١
(٥) شرح التبريزي ج٢ ص ٨٨

عتاب بأطراف القوافي كأنه طعان بأطراف القنا المتكسر

فقوله تفويف شعر لأن النظم إذا كان نسجا ووصف بالصقال والرقة وكثرة الماء والمناث وغير ذلك مما هو من خواص الثياب المنسوجة، ومن ثم كان التفويف مسندا إلى النظم جاريا هذا المجرى كما يقول ابن سنان (١)

واضح أننا في تلك الصور السابقة وأمثالها نجد صفة مشتركة بين طرفين وهي ذات أثر في معنى الكلام وسياقه مما ينبغي أن يحتفظ بها إلا أن تكون كذلك ولا يلزم أن توجد الصفة بعينها في الطرفين لأننا قد نراها أحيانا توجد في أحد الطرفين ويوجد مثلها في الطرف الآخر. والمتأمل يدرك كل ذلك بهذا.

المكنية ذات الشبه البعيد :-

وهناك ضرب آخر من الاستعارة بالكناية يخالف ما سبق اذ لا تستوى فيه الشبه المعدود أصلا في بناء الاستعارات ظاهرا وانما يأتي مع اعتبار خاص يتضح أمره على ضوء تحليل بعض النصوص

يقول أبو تمام

تحل بقاع المجد حتى كأنها

على كل رأس من يد المجد مغفر (٢)

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٧ (٢) الموازنه جا ص ٢٦٢

ويقـــــول أيضـــــا

ساس الأمور سياسة ابن تجـــارب

رمقتــــــــه عين الملك وهو جنين (١)

قوله فى البيت الأول "يد المجد" أضاف فيه اليد إلى المجد وليس للمجد على الحقيقة يـــد ولو قلنا إنه قد شبه المجد بذى اليد لما وجدنا صلة بين الطرفين . وكذلك الشأن فـــى البيت الثانى فقد أسند فيه العين الى الملك وليس له فى الحقيقة عين ولو قلنـــــا إنه قد شبه الملك بذى عين لخرجنا إلى حديث لايوافق الشعر وأبرز خواصه وهو الخيـــال وإنما تقوم الاستعارة هنا على أساس من التشبيه المتخيل أى أن الشاعر جعل الملك فى صورة انسان على وجه التخييل والادعاء وشبهه بانسان فى الملاحظة ودقة المراقبة وهذا الوجـــه موجود فى الملك على ضرب من التخييل والادعاء . وذلك جار على عاداتهم فى جعل الاشياء مصورة بصور الآدمى واضفاء الصفات الانسانية عليها ولكن فى تراثنا الأدبى من ذلك كثير، وممـــا يحمل على نحو هذا التوجيه قول أحد الشعراء

أَتَا أَبُوكَ فَعَيْنُ الجُودِ تَعْرِفُـــه وأَنتَ أَشْبَهُ خَلْقِ اللهِ بالجـــود (٢)

وكذلك قول ذى الرُّمة مجسما لأحد كواكب السماء فجعل للثريا أيادى تمتد جانحة نحـــو المغـــرب

أَلاَ طَرَقَتْ مَيٌّ هَيُوماً بِذِكْرِهـــا وأَيْدِى الثريا جُنَّحٌ فى المَغَـــارِبِ(٣)

فلو ذهبت الى تصور تشبيه واقع بين الثريا وذى اليد على وجه الحقيقة لكان فيما ذهبـــت إليه تعسفا وخروجا عن طبيعة الأدب وشئونه . ومما يجرى مجرى ما سبق قول أبى تمام

تَكاد مَغانِيهِ تَهِشُّ عراصُـــها فتركَبُ مِن شَوْقٍ إلى كلِّ رَاكِـــبِ (٤)

(١) التصوير البيانى ص ٢٦٨
(٢) كتاب الاغانى المجلد الثانى ص ٥٢
(٣) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٤٨
(٤) ديوان ابى تمام ج ١ ص ٢٠٤

فقد استعار الهشاشة للمراض وهي ساحة الدار يريد أن يقول من شهوته لاعطاء المال يبذ له تكاد ساحة الدار تسير إلى من يسير إليها طالبا نيله ·

ونأخذ كذلك قول " تأبط شرا "

فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا   به كدحه والموت خزيان ينظر (١)

أراد أنه تجاوز في عدوه الحزن الصعب من الأرض · وخالط سهلها ولم تؤثر حجارتها فيه · والموت الذي كان يضغر في مثل هذه الحال بغيره وقف خزيان ينظر إليه في دهش وتعجب من هذه الصلابة · وهذه القوة التي تعوق من الأهوال الماحقة لاوجه لان نقول إنه شبه الموت بإنسان من غير أن تعتبر أن الشاعر أضفى على الموت الصفات الانسانية · وأقامه في خياله في صورة انسان تتواردعليه المشاعر والأحوال · فيشعر بخزي الخيبة كما يشعر بزهو الانتصار والظفر وكذلك فعل صاحبه الشنفري في الجوع في قوله :—

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حتَّى أُمِيتَهُ   وأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَأُذْهَلُ
وَلَوْلا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ   يُعَاشُ بِهِ إلاَّ لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
ولكن نَفْسًا مُرَّةً لا تُقِيمُ بِي   عَلَى الذَّأْمِ إلاَّ رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ (٢)

ادعى للجوع حياة وحسا فشبهه بحي ذي حاجه يلح عليه في المطالبه · وهو يماطله حتى يميته · فلا يعود يشعر به · الخيال هنا يحيل الفراسة إلى صور مجسده يبث فيها المعنى الانساني ليقضي عليها الموت بهذه المماطله التي تشهد للشنفري بالقوة وصلابه النفس والبلوغ في العزه والأنفة مبلغا غريبا ·

وواضح أن التشبيه الذي تقوم عليه الكناية في هذا الضرب مخالف للتشبيه الذي تقوم عليه الكناية في الضرب الذي سبقه ·

الكناية الملتبسة مع صور البيان الأخرى :

هناك صور أخرى للكناية تأتي فيها ملتبسة مع أحد فنون البيان الأخرى فمنها

---

(١) الصناعتين ص ٧٦
(٢) شاعر الصعاليك الشنفرى ولامية العرب د — عبد الحليم حفني ص ١٣٠ — ١٣٢

مايلتبس مع التشبيه أو مع الاستعارة التصريحية والتبعية كما أن منها ماجاء ملتبسا مع المجاز بغير الاستعارة سواء أكان عقليا أم مرسلا بل وقد تلتبس مع الكناية وربما الحقيقة أيضا .

المكنية الملتبسة مع التشبيه :

ومما نراه ملتبسا بين المكنية والتشبيه الذى أضيف فيه المشبه به إلى المشبه على الخصوص قول بن نباتـــه :ــ

حتى إذا بهر الأباطح ولربّـــا نظرت إليك بأعين النـــوّار

يلتبس قوله " اعين النوار بهذه الاستعارة فيظن أنه كيد الشمال . أى أنه جعل للنـــوار عيونا . وعلى ذلك مضى ابن سنان الخفاجى حيث قال : [تنظر أعين النوار من أشبهـــه الاستعارات . وأليقها . لان النوار يشبه العيون . وإذا كان مقابلا لمن يجتاز فيه ويمـــر به كان كأنه ناظر إليه . وهذه الاستعـــارة الصحيحة الواضحة التشبيه [1] وعند التحقيـــق يرد مافى البيت الى التشبيه وليس هذا استعارة والأصل نظرت اليك بنوار كالعيون والشبه بين النوار والعيون قائم وواضح والأمر الذى يدعو الى النظر صنيع ابن سنان حيث قـــارن بين بيت ابن نباته الأول وبين قول ابى تمام .

قرّتْ بقُرّانَ عينُ الدين وانْشَــتَرَتْ بالأشترين عيونُ الشِّرْكِ فاصْطَلَمَــا

أراد ابن سنان بهذه المقارنه الوصول إلى الأصل الذى تقاس به الاستعارات حسنـــا أو قبحا وهو قربها أو بعدها من حيث التشبيه فيقول : " ومع تأمل هذين البيتـــين يفهم معنى الاستعارة لأن النوار والشرك لاعيون لهما على الحقيقة وقد قبحت استعـــارة العيون لأحدهما وحسنت للأخر وبيان العلة فيها أن النوار يشبه العيون . والدين والشرك ليس فيهما ما يشبهها ولا يقاربها وهذه طريقة متى سلكت ظهر المحمود فى هـــذا الباب من المذموم [2]

ولعلنا نلحظ ماوقع فيه ابن سنان من تناقض لانه مادام هناك شبه بين النوار والعيون كما ذكر والطرفان مذكوران فهو من التشبيه ولايكون من الاستعارة بحال . وأما قول السّرىّ الموصلى

---

(١) سر الفصاحة ص ١١٤
(٢) السابـــق ص ١١٥

أقول لحنّان العشىّ المغرّد ... يَهُزُّ صفيح البارق المتوقّدِ
تبسم عن مرّيّا البلاد حَبيبُهُ ... ولم يبتسم إلا لإنْجازِ مَوْعِدِ
وبادرها الشرقىّ لازال رائحٌ ... يحلّ عقودَ المزن فيك ومغتدى
عليلةُ أنفاسِ الرِّياحِ كأنّما ... يُعلُّ بماءِ الوَرْدِ نَرجسُها النَّدَى
يَشُقُّ جُيُوبَ الوَرْدِ فِي شَجَراتِهِ ... نَسيمٌ مَتَى يَنْظُرْ إلى الماءِ يَبْرد

وقد عقب ابن سنان على تلك الأبيات بقوله وفى هذه الأبيات استعارات عدة كل منها مختار. أما حنان العشى المغرد فمعروف والعادة جارية باستعارة الحنين والتغريد للغيث لان له صوتا على كل حال وكذلك صفيح البارق وأشبه شئ بالبرق لمع السيوف والتبسم فيه أيضا ظاهر لضوء برقه فى ظلاله وعقود المزن لائقة لتشبيه القطرات من الماء والدمع بالعقد اذا وهى من سلكه وأنفاس الرياح تكاد تكون حقيقة لوضوحه واستعمال العلة فيها كناية عن الضعف والخفوت وقلة الحركة على وجه التشبيه بالمريض وجيوب الورد مختار لأن النسيم اذا أظهره من أكمامه ونشره عن طيه بعد ذلك كان بمنزلة الجيوب التى تشق وعبارته عن سرعة برود الماء بالنسيم أنه متى نظر إليه برد موضعه لأن النظر ليس هو الرؤية وإنما هو ضرب من المقابلة والمواجهة تقع الرؤية بعده وهذا فى النسيم موجود ولائق غير بعيد (١) ومتابعة ابن سنان لتلك الصور لاشك يعد أمرا يحمد عليه غير أن الأمر يحتاج الى أن نتتبعه فيما وجه به لنصل إلى ما نعتقد أنه الأنسب والأليق بالمعنى والسياق.

فأما استعارة الحنان للغيث فهى على ماقال تعد من قبيل التصريحية. وصفيح البارق أعنى سيف البرق ليس استعارة كما قال لانه لم يجعل للبرق سيفا يهزه وإنما أراد أن البرق كسيف يهتز. واستعارة التبسم لانشقاق السحابة عن البرق استعارة صحيحة كما قال. وعقود المزن من الاستعارة التصريحية لان العقود مستعار لقطرات الماء كما يقول: وأنفاس الرياح تشبيه وليس استعارة لان المراد الرياح الناعمة الخافتة كالانفاس. وكذلك جيوب الورد لان الورد حين تتفتح أكمامه يشبه الجيوب التى تشق فليس فيه استعارة وإنما هو مثل أعين النوار. ولجين الماء. وقوله " متى ينظر إلى الماء يبرد " استعارة مكنية وهى حسنة جدا ترى فيه النسيم ينظر إلى الماء وكأنه آمر مطاع يأمره بالعذوبة والبرودة والماء مأمور مطيع – متى ينظر إلى الماء يبرد يعد من قبيل التشبيه وليس المكنية أيضا قول أبى تمام

---

(١) السابق ص ١٢٦

الى مَلِكٍ فى أَيكةِ المَجْدِ لَمْ يَزَلْ ... على كَبِدِ المَعْرُوفِ مِنْ نَيْلِهِ بَرْدُ (١)

الأيكة الشجر الملتف وأيكة المجد من اضافة المشبه به إلى المشبه ومما أورده بن سنان بالاضافة إلى ماسبق ويجرى على التشبيه لا على استعارة كما زعم قول الرضى

وَسَا النَّسِيمُ بِوَادِيكُمْ وَلَابَرِحَتْ ... حَوامِلُ المُزْنِ فى أجْدَاثِكُمْ تَضَعُ

وَلَايَزالُ جَنِينُ النَّبْتِ تُرْضِعُهُ ... على قبوركُمُ العَرَاضَةُ الهُمَعُ

وقد ذكر ابن سنان معقبا أن ما فى قول الشريف يعد من أحسن الاستعارات وأليقها لان المزن تحمل الماء وإذا هملت وضعته فاستعارة الحمل لها والوضع المعروف من أقرب شئ وأشبه وكذلك قوله " جنين النبت لأن الجنين المستور مأخوذ من الجُنَّة وإذا كان النبت مستورا والغيث يسوقه كان ذلك بمنزلة الرضاع وكانت هذه الاستعارات من أقرب مايقال وأليقه (٢)

وعند التحقيق نرى ما فى البيت محمولا على التشبيه لانه يستساغ القول : المزن كالحوامل وكذلك يقال النبت كالجنين والشبه موجود وقريب والطرفان ثابتان .

واستخلاصا مما سبق يمكن أن نضع أصلا يعين على فهم وتوجيه تلك الصور ونظائرها التى يلتبس فيها الأمران أضافة المشبه به للمشبه والاستعارة المكنية وهذا الاصل يتحقق فى أننا لانجد فى نحو يد الشمال وجناح الذل وعين الملك شبها بين طرفى الإضافة على خلاف مثل جنين النبت وأعين النوار ثم شبه وعلاقة ظاهرة بين الطرفين . أما نحو يد الشمال فليس الشمال مشبها باليد وإنما يشبه الشمال بما له يد على الحقيقة . وأما نحو أعين النوار فليس النوار مشبها بما له عين بل بذات العين . إذن فالمضاف إليه فى الاستعارة المكنية لازم المشبه به والمضاف إليه فى التشبيه الملتبس بها هو المشبه به ذاته وثمة فرق فى المعنى والخيال والصورة بين قولنا أعين النوار جنين النبت وانفاس الرياح وحوامل المزن وبين قولنا نوار كالأعين والنبت كالجنين والرياح كالانفاس والمزن كالحوامل وليس مرد هذا الفرق إلى أن هذا تشبيه وذلك استعارة وإنما مرد الفرق فى الحقيقة إلى تغيير الصياغة فالتركيب الذى يضاف فيه المشبه به إلى المشبه يخيل شيئا آخر لانجده فى الطريقة التى رجعنا بالتركيب إليها تخيل ان للرياح أنفاسا والنور عيونا لان تلك الإضافة أكثر ماتكون على معنى اللام إذن هذه الصور التى تلوح لك فى هذه الصياغات بنت هذه الاضافة وليست وليدة تشبيه أو تخييل سابق عليه على ماهو التوجيه فى المكنية لأن الإضافة فيها قد سبقها تجوز ثم الحق هذا التجوز بتلك الاضافة ليتم بها التصوير والتشخيص (٣)

---

(١) السابق ص ١٣٤ (٢) السابق ص ٢١٥

(٣) ينظر التصوير البيانى ص ٢٨٠

الكناية الملتبسة مع التصريحية

وقعت صور للكناية قد التبست بالتصريحية وهذا الضرب كثير جداً فقد ورد بعض الأوصاف وقد أضيفت إلى غيرها عن نحو كلمة الأنف والجناح والرداء والجبهة مما يختلف أمر التوجيه معها على مقتضى الأصل الفارق والمستخلص من تحليل الشواهد وسياق الكلام فقد جاء في الموروث الأدبي قولهم أنف الليل وأنف النهار وأنف الطريق وأنف الجبل وجبهة الغور ويراد في كل ذلك أول الشيء .

ومن الكلمات التي تدور كذلك على طريق التصريحية أو الكناية كلمة الجناح فيقال : جناح الطريق وجناح الوادي وجناح الانسان كل هذا مستعار للجانب مما يجري على التصريحية أما نحو قولهم جناح الأمن أو جناح الخوف على مثل ما ورد عن الأمام على كرم الله وجهه ... " ولم يُمْسِ منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف "(١)

فهذا محمول على الكناية لأنه جعل للأمن جناحا فصوره في صورة . طائر قد ألقى جناحه هادئا لا يفزعه شيء . والطائر من أدق الحيوانات حسا بالأمن والخوف فهو إذا سكن وهدأ كان ذلك من فرط الأمن والدعة . وذلك مهم في السياق . ثم جعل للخوف قوادم . فصوره في صورة طائر مذعور قد مد قوادمه جادا في الهرب . ولهذا آثر القوادم هنا على الجناح ليشعر بامتداد الجناح وسط القوادم . وناهيك عمن يكون على قوادم طائر مذعور والعرب يقولون في القلق غير المستقر هو على جناح طائر أو كأنه على جناح طائر أو كأن قلبه جناح طائر .

وانظر إلى دقة على كرم الله وجهه حين خالف بين حرفي الجر فقال في جناح أمن وعلى قوادم خوف فاستعمل حرف الظرفية والتمكن مع الأمن كما استعمل حرف الاستعلاء مع الخائف فأفاد أن الأول مستقر في الأمن الوادع الخفض الجناح . وأن الثاني قلق فوق قوادم طائر خائف مذعور (٢)

---

(١) الصناعتين ص ٢٨٨
(٢) التصوير البياني ص ٢٨١ ، ٢٨٧

ومن أجمل مواقع الجناح على مقتضى المكنية قوله تعالى "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة" (١) فقد جعل الذل طائرا وله جناح ، وعلى مثال الأنف والجناح كلمة الرداء فقد جاءت فى تراكيب وفيها ألوان من الخيال شتى ومن مواقع هذه الكلمة التى التبست فيها المكنية مع التصريحية قول طرفه :

ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه نقى اللون لم يتخدد (٢)

ويجعلون كذلك لليل رداء أو شملة يلف بها الوجود . قال ذو الرمه :

ضم الظلام على الوحش شملته ورائح من نشاص الدلو منسكب (٢)

يريد بالنشاص مطر نوء الدلو .

كما جعل ذو الرمه للفجر ملاءة أو رداء يلف به الثريا حين أخذ ضوء الفجر يثبت فى السماء والثريا تتحدر نحو مغيبها مؤذنة بانقضاء الليل حاديا فى ملاءة بيضاء يسوق أمامه قافلة من النجوم تهدى فى رحلة لها عبر السماء . يقول ذو الرمه مصورا هذا المعنى .

أقامت به حتى ذوى العود فى الثرى
وساق الثريا فى ملاءته الفجر (٣)

وقد ذكر ابن سنان موضحا وجه الاستعارة فى البيت لأن الفجر لما غطى الليل ببياضه وشمل الأرض عند طلوعه حسنت استعارة الملاءة له لتضمنها هذا المعنى وعبر بطلوع الثريا وقت طلوع الفجر بأنه لفها فى ملاءة وتلك أحسن عبارة وأوضح استعارة (٤)

وكلام ابن سنان هذا يؤذن بأن ثمة صورتين الأولى نجد فيها الفجر ذا ملاءة تلف الوجود، وأما الثانية فنرى فيها الثريا حسناء فاتنة قد تلفعت بملاءة الفجر والحق أنه إن أمكن أن نجد لأمثال هذه الصور سبيلا إلى التصريحية فربما قيل إن الرداء مستعار للظلمة التى تحيط بالوجود كما يحيط الرداء بلابسه وكذلك ملاءة الفجر ورداء الشمس فقد يقال إنه مستعار لضوئها فهناك معنى فى كل هذا يمكن أن ينص عليه ، ومع كون ذلك

---

(١) الاسراء : ٢٤ . (٢) الخصائص ص ٤٤٥ .
(٢) ذو الرمه شاعر الحب والصحراء ص ٣٤٦
(٣) السابق ص ٣٤٧
(٤) سر الفصاحة ص ١١١، ١١٢ ومابعدها وانظر : التصوير البيانى ٢٨٦ ـ ٢٨٩

التوجيه ممكنا وميسورا لكننا لانجد له من الحسن والخيال وجمال التصوير أيماثل مانجده إذا ما وجهنا على الكناية حين نجعل الشمس وكأنها ذات رداء تلقيه على الوجود والفجر كأنه ذو ملاءة لان التصوير حينئذ أعمق وأدق وأخصب حيث تسير هذه الجمادات أناسي ذات أردية وذلك دون ريب أنسب وأمس رحما بالمعنى فى مثل تلك السياقات •

وعلى هدى ما سبق يمكن أن نستخلص أصلا يرد إليه أمر الفصل بين التصريحية والمكنية وهو أنه متى وجد معنى للوصف المضاف إلى غيره يمكن أن ينص عليه وجه الأمر إلى التصريحية وأما إذا لم يكن هناك هذا المعنى الذى يمكن أن يقال إنه قصد أستعير الشيء له فحينئذ تكون المكنية •

وإهمال هذا الاصل فى التفريق بين الضربين يوقع فى الخطأ ولذلك نرى أن ابن سنان وأمثاله قد جانبهم الصواب حين لم ينظر وافى هذا الاعتبار فقد جمع ابن سنان أمثلة عديدة لهذا الضرب الملتبس وعالجها على أنها جميعا تدخل فى باب المكنية المذمومة لما فيها من تكلف ومع أن ابن سنان قد أشار إلى أن هناك من يخرج أمثال هذه الاستعارات على التصريحية بما يبعدها عن التكلف إلا أنه لم يرتض هذا التوجيه لعدم إمكان مثل هذا الحمل مع جميع الشواهد ورغبة ابن سنان فى التعميم قد أفسدت عليه القضية والأوفق فيما نرى فى مثل هذه التراكيب أنها تدور بين التصريحية أو المكنية والمعول عليه الأصل الذى سبقت الاشارة إليه ولا حاجة أذن أن نسلك طريق الحذف كما ذهب ابن سنان مع بعض الشواهد(١) لما فيه من تكلف وبعد عن مجال التصوير والخيال المفاد فى نحو تلك الصياغات

---

(١) سر الفصاحة ص ١١٦ ومابعدها

المكنية الملتبسة بالتبعية :ـ

وربما كانت المكنية الملتبسة مع التبعية هى أكثر صور المكنية الملتبسة وسبق أن عرضنا لرأى البلاغيين فى تلك المسألة ونريد الآن أن نستخلص الأصل الذى يكون به الفصل بين الضربين على هدى من النصوص وشئ من التحليل .

ومما هو معلوم أن الاستعارة فى الفعل تقع إما على الفاعل وإما على المفعول وفى كلا الحالين تلقى ظلا على ما تقع عليه يصير به وكأن فيه هو نفسه استعارة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم إِنَّ الْمُسْلِمَ إذا تَوَضَّأَ ثم صلى الخمس تَحَاتَّتْ خطاياه كما يَتَحَاتُّ الوَرَق [1] ، وقوله عليه السلام فى حديث ذكر فيه أشراط الساعة فعند ذلك تقئ الأرض أفلاذ كبدها [2] . الاستعارة فى الحديث الأول تحاتت خطاياه وفى الثانى تقيئ الأرض . ويقول تعالى : " فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ [3] ، وقوله عز اسمه " إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ " [4] وقول الشاعر :ـ

ولما أتانى أَنَّ ميًّا تزوجــــت   خصوصاً بكى سَهْلُ المَعَا وحُزُونُهـــا [5]

وقول أبى نواس :ـ

مُبَاحَةُ سَاحَةِ القلوبِ لــــه   يرتعُ فيها أطايبَ الثمــــر [6]

وأمثال هذه الاستعارات كثير مما قد يسلك معه طريق التصريحية أو المكنية ولكن الوقوف على مغازى الكلام وفق السياق بعد تحليل النص يحجب اللبس ويوجب التوجيه ويوجد الأصل الفارق ولسوف يبين هذا الأمر من عرضنا لبعض الأمثلة غير التى سبقت فلدينا الكثير مما يدخل فى هذا الضرب الملتبس

يقول الله تعالى : " وَقَطَّعْنَاهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا . مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ . وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [7]

---

(١) المجازات النبوية ص ٣١٥

(٢) السابق ص ٣٠٥

(٣) سورة الاحزاب الآية ١٩

(٤) سورة الحاقة الآيـــة ١١

(٥) ذو الرمه شاعر الحب والصحراء ص ٣٥٨

(٦) الوساطة ص ٣٥

(٧) الاعراف : ١٦٨

والقطع فى أصله إنما يكون للاشياء المتماسكة كالخشب أو الثوب وإنما يقال فى الأقوام تفرقوا وقد استعير التقطيع للتفريق وذلك لأن التقطيع يشير إلى معنى نفسى دقيق . والمهم أن الاستعارة محمولة على التصريحية مع أنه يمكن أن توجه على المكنية بأن يقال إن القوم قد شبهوا بثوب أو خشب أو نحوه ثم حذف المشبه به واستعمل مع المشبه أحد روادف المشبه به لكن هذا التوجيه بعيد ومتكلف . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم خير الرجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار اليها (١).

فالطيران مستعار للسرعة فهى استعارة فى الفعل ومع ذلك فقد خيل أن فى الفاعل استعارة فسار كأنه يشبه الطائر على مجرى المكنية بأن يقال إنه قد شبه الفارس بطائر ثم حذف ورمز له ببعض توابعه وهو طار وهكذا فى كل استعارة تبعية يمكن أن يتصور معها صحة جريان الاستعارة فى قرينتها ومن هنا وقع اللبس حتى لقد ذهب بعض البلاغيين إلى رد التبعية إلى صور المكنية لدوافع سبق عرضها ومناقشتها ، ومرد الأمر عندنا بذل الجهد فى التعرف على المعنى والمغزى الذى يحققه المجاز فى التركيب فثمة صور يحتم المعنى والسياق وقرائن الاحوال أخذها على التصريحية وهناك صور أخرى توجب أخذها على طريق المكنية والأصل مردود إلى موضع الاهتمام والغرض المراد فإذا كان مركز الاهتمام فى الفعل كان هو موضع التجوز وتكون الاستعارة تبعية وما نجده فى قرينته حينئذ انما جاء تبعا وعلى هذا جرت الاستعارة فى الآية والحديث فالغرض فى الآية بيان تشتت هؤلاء القوم وتوزعهم فى جوانب الأرض المختلفة فلذا فقد استعير التقطيع للتفرق وأيضا فالمراد فى الحديث بيان سرعة هذا الضرب من الرجال وأنه يندفع ملبيا نداء الله فى غير تردد أو تباطؤ وإنما على سرعة كأنها الطيران فلاقصد إذن الى تشبيه الفارس بالطائر إنما المعنىُّ بالذات تصوير تلك السرعة وإبرازها فى صورة مؤدية أمر تلك السرعة فى وضوح وجلاء وأما إذا كان موضع العناية هو الفاعل أو المفعول كان التجوز فيه وحملت الصورة على المكنية فقول ذى الرمة

ولما أتانى أنّ ميّا تزوّجت ... خسوماً بكى سهل المعا وحزونها (٢)

فالانسب إجراء الاستعارة فى السهل بحيث يصور فى صورة الاحياء الذين يقع منهم البكاء وفى هذا الخيال ما يحقق المشاركة بين تلك الكائنات والاحياء وكذلك قوله :

---

(١) البديع لابن المعتز تحقيق د • خفاجى ص٦١٣ واسرار البلاغة د : خفاجى ص١٤٩ جـ ١

(٢) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٥٨

سقاه الكرى كأس النعاس ورأسه لدين الكرى من آخر الليل ماجسه(١)

نجد أن الفرض منصب على إبراز غلبة النوم على نفسه وسلطانه عليه وكأنه فى صورة ساق وكذلك قوله فى وصف شدة القيظ فى الصحراء

تموت قطا الفلاة بها أواما ويهلك فى جوانبها النسيم

نجد أنه قد خيل النسيم حيا يموت فى جوانب هذه البلاد من إحساسه بشدة الحر ونظير هذا قوله :ـ

سخاوى ماتت فوقها كل هبوة من القيظ واحتثت بهن الحزاور(٢)

فالهبوات شخوص صغيرة تموت فوق هذه الوهاد (٣) بل إن ذا الرمة قد جعل الحر نفسه يموت حين يؤذن الصيف بالانقضاء

تقيظ الرمل حتى هز خلفته تروح البرد ما فى عيشة رتب
ربلا وأرطى نفت عنه ذوائبه كواكب القيظ حتى ماتت الشهب(٤)

وكذلك فقد جاء القرآن مصورا الخوف فى صورة هول ورعب فى قوله تعالى : " فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت(٥) فمجيئ الخوف على مايرشد إليه السياق فيه تصوير للخوف فى صورة الحى الذى يتحرك ويجيئ وقوله جاء دليل هذا التصوير ورمز هذا المجاز الذى هو من قبيل الكناية . وماورد فى هذا الضرب من القرآن كثير . ومنه أيضا قوله تعالى "ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (٦) فقد خيل الصبر ماءا باردا يفرغ على قلوب المؤمنين فيذهب ما يجدون فى صدورهم من حر الكرب والفزع .

" والمهم فى إدراك خصائص الصور والتمييز بينها أن نجتهد فى إدراك الفروق بين فنون الاستعارة فنوجه كل تعبير الوجهه التى هو بها أشبه . وربما رأيت فيما قلته خلاف الذى قلته ـ ولاعليك ـ وإنما المهم أن تكون الرؤية رؤية مجتهد يحاول ان يتعرف على دقائق ملامح المجاز

(١) ذو الرمه شاعر الحب والصحراء ص ٣٥١
(٢) ذو الرمه شاعر الحب والصحراء ص ٣٥٨
(٣) التصوير البيانى ص ٣٠٠،٣٠١
(٤) ذو الرمه شاعر الحب والصحراء ص ٣٥٨،٣٥٩
(٥) التصوير البيانى ص ٣٠٢
(٦) سورة البقرة الآية ٢٥٠

الكناية مع المكنية :

سبق القول بأن هناك من الكلمات ما استعملت فى تراكيب مختلفة وهى تحمل ألوانا من الخيال شتى بما يختلف معه أمر التوجيه البيانى وكان من تلك الكلمات كلمة الرداء ورأينا كيف أنها وردت فى سياقات مختلفة وقد التبست المكنية فيها مع التصريحية وقد جاءت كلمة الرداء فى سياق آخر مختلف فى نحو قول قيس ابن الخطيم

وَقَدْ جَرَّبَتْ مِنِّى لدى كل مأقط ... دحى إذا ما الحَرْبُ أَلْقَتْ رِدَاءَهَا (١)

يريد بقوله ألقت رداءها : أن الحرب قد اشتدت واستعرت وقد شبه الحرب بإنسان غاضب يلقى رداءه تهيؤا لمنازلة قاسية ثم حذف المشبه به ودل عليه ببعض روادفه وعلى ذلك يحمل ما فى البيت على الاستعارة المكنية وعند التحقيق نرى أنه كناية بنيت على مجاز وهذا نظير المجاز الذى بنى على الكناية فى قوله تعالى "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ الآية" (٢) . حيث أن الشاعر جعل الحرب شخصا يلقى رداءه وهذه المكنية ثم أريد بهذا التركيب شدة الأمر على سبيل الكناية . ومما يمكن أن يحمل على قول قيس قول أبى تمام

هُنا لِكَ فَلْقَى الجُودَ حَيْثُ تقطعت ... تَمائِمُهُ والمَجْدَ مُرخَى الذَّوائِبِ (٣)

أراد أن المجد كائن فيهم لا يتحول عنهم إلى غيرهم . فقوله مرخى الذوائب فيه مكنية ثم يفيد هذا التركيب كناية عن المعنى الذى قصده .

ومما يجرى على هذا الطريق قولهم : بنات الليل . يريدون الهموم . وبنات الطريق وبنات الشوق ومرادهم الدوافع والنوازع . كما قال دريد

ولما رأيتُ البَشر أعرض دوننا ... وحالت بناتُ الشوق يحنُّنَ نزَّعـا
بكتْ عينى اليسّرى فلما زجرْتُها ... عن الجَهْلِ بعدَ الحلْمِ أسْبَلَتا معَا

ويقولون أطفال الحب . ويريدون الأسباب والخواطر . وهذا كله من الكنايات المفردة التى تكون عن موصوف ووجه حسن هذه الكنايات أن الهموم تتوالد وتتكاثر فى الليل فكأنها بنات وكذلك خواطر الحب ونوازع الصبوة فيها من الوضاءة والطراوة كما تتصورها النفس مما يجعلها إلى البنات والاطفال (٤) لكن يلاحظ أن هذه الكنايات جاءت على ضرب من التجسيم فالهموم شواخص فى بنات وخواطر الشوق ونوازعه ماثلة فى بنات " يحنَّنَ نزعا أو أطفال تتواثب فرائصه

---

(١) التصوير البيانى ص ٢٨٧ (٢) المائدة : ٦٤
(٣) ديوان ابى تمام جـ ١ ٢٠٣ (٤) التصوير البيانى ص ٢٩١

فى صورة ملا ئكية (١) . وهذا التوجيه فى مثل تلك التراكيب أولى وأسلم من الحمل على وجوه أخرى لما قد يبدو معها من تكلف يأباه طبع هذا العلم وأولى كذلك مما لجأ إليه بعض العلماء حين أدخلوا أمثال ذلك فيما أطلقوا عليه اسم التوسع وإن كان بعضهم قد أفرط فى إدخال صور كثيرة يمكن أن تجرى على قواعد المجازات والكنايات كما سبق عند ابن الأثير وأوضحناه فى موضعه .

المكنية الملتبسة مع الحقيقة : —

وردت صور من التعبيرات التبست فيها المكنية مع الحقيقة التى لا تجوز فيها أصلا كما التبست مع التصريحية على نحو ما نجده فى أمثال كلمة ماء . حيث جاءت مضافة إلى غيرها وهى تحمل صوراً شتى من الخيال فهم يقولون . ماء الوجه . وماء الحياء . وماء الشباب . كما يقولون شعر له ماء أولا ماء له وكلام له ماء (٢) وذلك كله داخل فى الاستعارات التصريحية لأن ثمة ما ينص عليه وهو الحالة الشبيهة بالماء فيما أضيف إليه كالنضارة والطراوة .

وأما قولهم ماء الصبابة . وماء الشجى . وماء الشوق . وماء الحب . وماء الهوى . وأمثاله فيحمل على الحقيقة لأن المراد به الدموع . لأننا نرى السياق الذى ورد فيه يؤكد أنه حقيقة فى مثل قول ذى الرمة

أأنْ توهمتَ من خرقاءَ منزلـــــةً ماءُ الصبابةِ مِنْ عَيْنَيْكَ مُنْسَجِـــمُ (٣)

وأما ماء الملام التى وردت فى بيت أبى تمام صاحب القصة المشهورة فقد اختلف النقاد والبيانيون فى أمر التوجيه فحمله البعض على الحقيقة ومال به آخرون إلى طريق التصريحية على حين اتجه بعض البلاغيين إلى المكنية ما لكون فى ذلك وجوه شتى فى هذا التخريج على تفصيل سبق فى موضعه

---

(١) ينظر التصوير البيانى ص ٢٩١ ، ٢٩٢

(٢) سر الفصاحة ص ١٣١

(٣) المصدر السابق نفس الموضع

المكنية والمجاز العقلي :ـ

بقى من ضروب الالتباس التي تقع بين المكنية وغيرها صورتان الأولى والأهم ما نجده فى مثل قوله تعالى " وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا " (١) وقولهم إن الدموع يرقرقها نسيم الصبا الذى جاس خلال ديار الأحبة يحمل أنفاسهم . ووميض الغمام . يهيج غوافى الأشواق ويشعل لهيب الحنين والبرق وغناء الحمام يشجى ويستفز لواعج الهوى وحمام بطن ودان يثير بلابل الشوق فى نفس قيس بن الملوح . (٢) كل هذه الصور من القول وما يحاكيها نرى أن الافعال والأحداث فيها لم تسند إلى ما يتصف بها على وجه الحقيقة . وإنما جاء على ضرب من التجوز حيث أسندت هذه الأحوال إلى غير ما هى له لملابسة انطلاقا مع الخيال واستجابة للحس ألا ترى الإخراج قد أسند إلى الأرض فى القول الكريم وهى لا تخرج على الحقيقة . وإنما يخرج الله منها أثقالها . فهى مكان الفعل وليست فاعله وفى هذا الاسناد تخييل حيث نرى الأرض فاعلة تخرج أثقالها والاضافة فى الآية تشعر أنها أثقال هائلة . وواضح أن هذا ضرب خاص من التجوز ومن هنا أفرده البلاغيون ببحوث خاصة وقد أطلقوا عليه اسماء ومصطلحات عديدة نقبل المجاز العقلى أو الحكمى أو الاسنادى مما لا يدخل فى غرضنا الآن تحقيقه لكن لما كان هذا الفن يلقى ظلا يخيل الأمر معه وكأن ثمة استعارة فى الفاعل وقع الالتباس بين المجاز العقلى والمكنية فقوله تعالى " فى عيشة راضية " (٣) فيه تخييل أن العيشة قد شبهت بمن يتأتى منه الرضا . وكذا قولهم سار بهم الطريق .

نرى فى العبارة خيالا يوهم أن الطريق مشبه بمن يسير ولذلك فقد اتجه السكاكى إلى إدخال صور المجاز العقلى فى المكنية على طريقته فيها فيكون قوله تعالى " فما ربحت تجارتهم (٤) " . وقد شبهت التجارة بالمشترين ثم ادعى أن التجارة مشبه به ثم أطلق لفظ المشبه الادعائى على المشبه به وهكذا تنصرف نظرته عن الاسناد ولا يرى فيه تجوزا دائما . التجوز كائن فى الفاعل الحقيقى وسواء أكان الدافع وراء مسلك السكاكى الرغبة فى تقليل الأقسام أم كان غير ذلك على ما سبق تفصيله فى سياقه فإن الأهم أن لا يغفل دارس البلاغة عن الخصوصيات التى تتميز بها طرق التصوير البيانى المختلفة فى أداء المعانى فلنأخذ كل صوره بما يلائمها وكثير من صور

---

(١) الزلزله : آية ٢
(٢) خصائص التراكيب د ـ أبو موسى ط وهبه ص ٦٤
(٣) القارعة : الآية : (٧)
(٤) البقرة : الآية : (١٦)

المجاز العقلي يطفئها جريانها على طريقة الاستعارة بالكناية ألا ترى لو قلنا في قول الفرزدق " سقا خروق في مسامع — انه شبه الخروق بالساقي فاننا نكون قد خرجنا بالشعر عن مقتضاه ومراده لأن الفرزدق لم يلحظ هذا ·

والمقصد الأهم في صور المجاز العقلي إلى الاسناد والتصرف فيه نعم إن ذلك قد يلقى ظلا يتخيل معه تشبيه الفاعل المجازي بالفاعل الحقيقي ولكن هذا يأتي ظلا وتبعا نعم هناك صور أوردها كثير من الدارسين وهم يرددونها بين المجاز العقلي والاستعارة المكنية وعند التدقيق والتحقيق نرى تميزا بين تلك الصور على أن التردد بين الفنون إنما يأتي غالبا في الامثلة المؤلفة أو المختلقة التي يراد بها غالبا إجراء الاصول والقواعد وعلى كل فان التأمل في الأساليب ينتج فرقا بين المجازين وإن دق وغمض فلا داعي إذن لتكلف رد التبعية مطلقا أو المجاز العقلي على عمومه إلى المكنية بل تؤخذ كل صورة على ما يناسبها من مقتضى السياق والمراد المقصود فيها والأصل المختار في ذلك ما ذكره السيد الشريف ناقلا عن صاحب الكشف وعرضناه في موضعه ·

المكنية الملتبسة مع المجاز المرسل :—

لم يبق من صور الالتباس غير صورة لم تشغل الفكر البلاغي كثيرا لذلك أرجأتها قاصدا بتناولها الحصر والتتميم لصور الالتباس وأعني بذلك ما نجده في مثل قوله تعالى " وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ "(١) وقول العرب "بنو فلان يطؤهم الطريق" · وما يحاكي تلك الصور مما جرى معها العرف البلاغي على اعتباره من قبيل المجاز المرسل الذي تكون العلاقة فيه غير المشابهة لكن مال بعض علمائنا الاسلاف إلى طريق المكنية وكأن الأمر على مذهبهم تشبيه القرية بمن يصح سؤاله ثم حذف ودل عليه بلازمه والقاعدة المعتمدة في التمييز هنا هي ما أثبتناه في الفرق بين التبعية والمكنية وكذا المجاز العقلي والمكنية وكذا سائر صور الالتباس وعلى مقتضى ذلك الأصل نرى أن حمل الآية على مقتضى المكنية فيه مزيد مبالغة هي بالمعنى والسياق أنسب ·

وهكذا يهديك التأمل في الصور والتعرف على معانيها إلى الوجه الذي تستقيم عليه من ضروب البيان · فقد رأينا في التراكيب التي جاءت على طريق الاضافة ما هو من قبيل

---

(١) يوسف : ٨٢

الاستعارة التصريحية وماهو من قبيل الحقيقة ورأينا فى صور أخرى كيف دار الأمر معها على طريق التجوز فى الاسناد أو على طريق التجوز الذى مآله إلى المكنية والمهم أن نبعد عما فيه تكلف فلا ينبغى أن نأخذ إلا على الوجه الميسور وكان عبد القاهر امام هذا الفن وهو باحث بعيد الغور يلح على هذا و يأخذ نفسه به ويعمل على مقتضاه .

تعقيب

وبعد :

فهذا هو مبحث الاستعارة بالكناية فى البلاغة العربية . وتلك مسيرتها درسا وبحثا عبر العصور . ولدا علمائنا الاسلاف . على اختلاف مناهجهم ومنازلهم وغاياتهم .

ولعله قد ظهر كيف كان هذا المبحث مثار عناية واهتمام الباحثين فى شئون البلاغة والاعجاز وقضايا الادب والنقد ذلك . كما وضح ايضا أن كثيرا من المشكلات قد صاحبت المكنية . أو جدت عليها تبعا لاختلاف العصور وتفاوت الدارسين .

وقد حاولت جاهدا الالمام بكثير من القضايا والمسائل البلاغية والنقدية المتصلة بهذا الضرب . كما حاولت قدر الطاقة أن أفض بعض المشكلات . وخاصة ما يتصل منها بالضروب الملتبثة بين المكنية وكثير من فنون البيان الأخرى . وذلك بمحاولة التماس الحدود والاصول الفارقة بين ضرب وآخر على ضوء من التحليل وبمعونة السياق والقرائن .

وقد ذكرت عقب الأبواب والفصول ما أعده استخلاصا يغنى عن ذكر النتائج هنا تجنبا للتكرار . وبعد عن التطويل .

والله أسأل مخلصا فى هذه الايام المباركة أن يكون فى هذا العمل المتواضع ما يفيد . وأن يكون فيه ما يرضى وجهه الكريم . انه نعم المولى ونعم النصير ؟

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١ ـ الابانة عن سرقات المتنبي للعميدي تحقيق ابراهيم الساپس ط دار المعارف .
٢ ـ ابن يتمة ليس سلفيا ـ منصور عويس ط النهضة العربية سنة ١٩٧٠م .
٣ ـ ابن تيمية وموقفه من التأويل ـ محمد السيد الجليند ـ مجمع البحوث الاسلامية
٤ ـ ابن الرومي حياته وشعره عباس العقاد ط مصر بدون تاريخ .
٥ ـ ابن المعتز وتراثه في النقد والبيان د . خفاجي ط دار العهد الجديد سنة ١٩٥٨ ثانية .
٦ ـ أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ـ د . بدوي طبانه ـ ط الانجلو المصريه ـ الطبعه الثانية ـ سنة ١٩٦٠م .
٧ ـ الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ط ـ دار الفكر ـ بيروت بدون تاريخ .
٨ ـ أثر القرآن في تطور النقد العربي ـ د . محمد زغلول سلام ط دار المعارف ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٨ .
٩ ـ أثر النحاة في البحث البلاغي د . عبد القادر حسين ط دار نهضة مصر سنة ١٩٧٥م .
١٠ ـ أخبار أبي تمام لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي تحقيق محمد عبده عزام ـ خليل محمود عساكر ـ مطبوعات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت الطبعه الثالثه سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م .
١١ ـ أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ط القاهرة ـ أولى سنة ١٣٩٢ هـ .
١٢ ـ الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة د . مصطفى سويف ط دار المعارف سنة ١٩٧٠م .
١٣ ـ الأسس النفسية للادب ـ حامد عبد القادر .
١٤ ـ أساس البلاغة لجار الله الزمخشري ط الشعب سنة ١٩٦٠م .
١٥ ـ أساليب التعبير الشعبي د . نبيلة ابراهيم ط نهضة مصر سنة ١٩٧٨م .
١٦ ـ الأسلوب : أحمد الشايب ط النهضة المصرية سنة ١٣٩٦ هـ .
١٧ ـ الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة ـ محمد بن علي بن محمد الجرجاني ـ تحقيق د / عبد القادر حسين ـ ط نهضة مصر سنة ١٩٨٢م .

١٨ — الأصمعيات — اختيار الأصمعي تحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هـارون
ط دار المعارف سنة ١٩٦٧ م .
١٩ — الأطول للعصام — ط الآستانة بدون تاريخ .
٢٠ — الاعجاز في دراسات السابقين — عبد الكريم الخطيب — ط دار الفكر
سنة ١٩٧٣ م .
٢١ — اعجاز القرآن للباقلاني — ط دار المعارف سنة ١٩٦٣ م .
٢٢ — اعجاز القرآن للرافعي — ط دار الفكر — بيروت بدون تاريخ .
٢٣ — الافصاح للأستاذ أحمد الحجار ط السعادة .
٢٤ — الاكسير في علم التفسير للطوفي البغدادي — تحقيق د . عبد القادر حسين
— ط النموذجية سنة ١٩٨٢ م .
٢٥ — الأمثال في الأدب العربي القديم — عبد المجيد عابدين ط دار مصر
٢٦ — الأمالي لأبي علي القالي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٥ م .
٢٧ — أمالي علي عبد الرازق ط النيل سنة ١٣٣٠ هـ .
٢٨ — أمالي المرتضى للشريف المرتضى تحقيق أبو الفضل ابراهيم ط دار الكتاب
العربي — بيروت الثانية ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .
٢٩ — الايضاح في علوم البلاغة للقزويني ط صبيح سنة ١٣٩٠ هـ .

(الباء)

٣٠ — بحوث في اللغة والأدب — عباس العقاد — مكتبة غريب سنة ١٩٧٠ م .
٣١ — بحوث المطابقة لمقتضى الحال — صورها وعلاقتها بالنقد الأدبي الحديث
أ د / علي البدري — ط النهضة المصرية الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢ هـ
٣٢ — البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ — تحقيق ، د . حامد عبد المجيد
ط مصطفى الحلبي ١٣٨٠ هـ .
٣٣ — بديع القرآن لابن أبي الاصبع تحقيق د . حفني شرف ط نهضة مصر ط ثانية .
٣٤ — البستاني والياذة هوميروس للبدوي الملثم ط دار المعارف سنة ١٩٦٣ م .
٣٥ — بغية الايضاح — عبد المتعال الصعيدي ط النموذجية .
٣٦ — البلاغة تطور وتاريخ د / شوقي ضيف ط دار المعارف الطبعة الثانية بدون تاريخ .
٣٧ — بلاغة العرب في القرن العشرين لمحيي الدين رضا ط الرحمانية بدون تاريخ .

٣٨ — البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د · محمد أبو موسى ط دار الفكر ·
٣٩ — البلاغة والنقد بين التاريخ والفن د · مصطفى الجوينى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب — فرع الاسكندرية سنة ١٩٧٥م ·
٤٠ — البلاغة الواضحة — على الجارم ومصطفى أمين ط دار المعارف سنة ١٩٧٥م ·
٤١ — بلاغة الاسلوب د · بسيونى عرفة ط دار الرسالة سنة ١٩٨٣ م ·
٤٢ — البلاغة التطبيقية د · أحمد موسى ط المعرفة سنة ١٩٦٣ م ·
٤٣ — البلاغة عند السكاكى د · أحمد مطلوب ط بغداد طبعه أولى ١٣٨٤ هـ ·
٤٤ — البهاء السبكى وآراؤه البلاغية والنقدية — د · عبد الفتاح لاشين ط دار الطباعة المحمدية ط سنة ١٣٩٩ هـ ·
٤٥ — البارودى رائد الشعر الحديث د · شوقى ضيف ط دار المعارف طبعه ثانيه ·
٤٦ — البيان العربى د · بدوى طبانة ط الأنجلو مصرية ط رابعة سنة ١٩٦٩ م ·
٤٧ — البيان والتبيين لأبى عثمان الجاحظ تحقيق حسن السندوبى طبعه ثانية — القاهرة سنة ١٣٥١ هـ سنة ١٩٣٢م ·
٤٨ — البيان بين عبد القاهر والسكاكى أ · د على البدرى ط السعادة — الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ·

(التـاء)

٤٩ — تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها — أحمد مصطفى المراغى ط مصطفى الحلبى طبعه أولى سنة ١٣٦١ هـ ١٩٥٠ م ·
٥٠ — تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق سيد صقر — دار التراث سنة ١٣٩٣ هـ ·
٥١ — تجريد البنانى على مختصر السعد على متن التلخيص ط الخيرية سنة ١٣٢٩ هـ ·
٥٢ — تحت راية القرآن — مصطفى الرافعى — دار الكتاب العربى — بيروت ·
٥٣ — التعبير البيانى — د · محمد أبو موسى ط وهبة سنة ١٩٨٠ م ·
٥٤ — التصوير الفنى فى القرآن — د · بكرى شيخ أمين ط دار الشروق سنة ١٤٠٠هـ ·
٥٥ — التصوير الفنى فى القرآن — سيد قطب ط دار الشروق بدون تاريخ ·
٥٦ — التفسير البيانى للقرآن الكريم — د · عائشه عبد الرحمن ط دار المعارف ·
٥٧ — تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للطبع والنشر بدون تاريخ ·

٥٨ — تفسير سورة الاخلاص للامام ابن تيمية تقديم د ٠ محمد عبد المنعم خفاجي
ط دار الطباعة المحمدية — بدون تاريخ ٠
٥٩ — تفسير الطبرى — جامع البيان عن تأويل أى القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى — تحقيق محمود شاكر ، مراجعة أحمد شاكر ٠ ط دار المعارف — بدون تاريخ ٠
٦٠ — تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده — ط الأميرية طبعة أولى سنة ١٣٢٣ هـ ٠
٦١ — التلخيص فى علوم البلاغة بشرح الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ط التيل بمصر سنة ١٣٢٣ هـ ٠
٦٢ — تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى — تحقيق عبد الغنى حسن ط الحلبى سنة ١٩٥٥ م ٠

(الثـاء)

٦٣ — ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن للرمانى والخطابى وعبد القاهر ت تحقيق محمد خلف الله احمد ، محمد زغلول سلام ط دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ ٠

(الجيـم)

٦٤ — الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادى تحقيق د ٠ مصطفى الصاوى الجوينى — نشر منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧٨ م ٠

(الحـاء)

٦٥ — حاشية الانبابى على رسالة الصبان فى علم البيان — ط أميرية أولى سنة ١٣١٥ ٠
٦٦ — حاشية البيجورى على السمرقندية ط عيسى الحلبى — بدون تاريخ ٠
٦٧ — حاشية السيد على المطول — ط عثمانية سنة ١٣١٠ هـ طبعة أولى ٠
٦٨ — حاشية الشيخ الخضرى على شرح الملاوى على السمرقندية ط الأزهرية سنة ١٣٤١ هـ ٠
٦٩ — حاشية مخلوف على شرح الدمنهور لمتن الأخضرى ، ط عيسى الحلبى ، بدون تاريخ ٠
٧٠ — حصاد الهشيم — ابراهيم المازنى — ط دار الشعب — بدون تاريخ ٠
٧١ — الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — ط مصطفى الحلبى ٠

(الخاء)

٧٢ — الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام — د • عبد الفتاح لاشين ط دار المعارف ط أولى سنة ١٩٨٢ م •

٧٣ — الخصائص لابن جني تحقيق محمد على النجار ط دار الهدى — بيروت •

٧٤ — خصائص التراكيب — د • محمد أبو موسى ط مكتبة وهبة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م •

٧٥ — خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم — د • محمد رجب البيومي — سلسلة البحوث الاسلامية سنة ١٩٧١ م •

(الدال)

٧٦ — دائرة المعارف الاسلامية — اعداد وتحرير : ابراهيم زكى خورشيد أحمد الشنتاوى — د • عبد الحميد يونس ط دار الشعب بدون تاريخ •

٧٧ — دراسات أدبية عمر الدسوقي، ط: دار النهضة مصر طبعه ثانية — بدون تاريخ •

٧٨ — دراسات في الشعر العربي المعاصر — د • شوقي ضيف ط دار المعارف طبعه سادسة ١٩٧٦ م •

٧٩ — دراسات في علم النفس الأدبي — حامد عبد القادر — ط النموذجية •

٨٠ — دراسات في نقد الأدب العربي — د • بدوى طبانة — القاهرة سنة ١٩٧٣ م •

٨١ — درر العبارات وغرر الاشارات في تحقيق معاني الاستعارات لأحمد بن محمد مكى الحسيني الحموى المصرى تحقيق عبد الحليم أبو شادى مخطوط •

٨٢ — دفاع عن البلاغة العربية — د • أحمد حسن الزيات — ط الرسالة سنة ١٩٤٥ م •

٨٣ — ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزى تحقيق محمود عبده عزام — ط دار المعارف سنة ١٩٦٤ م •

٨٤ — ديوان ابن المعتز • تحقيق محمد بديع شريف ط دار المعارف طبعه أولى سنة ١٩٧٧ •

٨٥ — ديوان البحترى تحقيق حسن كامل الصيرفي ط دار المعارف طبعه ثانية سنة ١٩٧٣ م •

٨٦ — ديوان البهاء زهير — شرح وتحقيق : محمد طاهر الجبلاوى ، محمد أبو الفضل ط دار المعارف سنة ١٩٧٧ م •

٨٧ — ديوان حافظ ابراهيم — ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين — أحمد الزين — ابراهيم الأبيارى — ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م •

٨٨ ـ ديوان السرى الرفاء الناشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥٥ هـ .
٨٩ ـ ديوان عامر بن الطفيل ـ ط دار صادر بيروت ـ رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن ثعلب سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م .
٩٠ ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة ط الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٨ .
٩١ ـ الديوان . عباس العقاد ـ المازني ـ ط دار الشعب طبعة ثالثة بدون تاريخ .
٩٢ ـ دلائل الاعجاز عبد القاهر الجرجاني ـ القاهرة ـ طبعة أولى سنة ١٩٦٩ م .
٩٣ ـ دلالات التراكيب ـ د . محمد أبو موسى طبعة أولى وهبة سنة ١٣٩٩ هـ .

(الـراء)

٩٤ ـ الرازي والبلاغة العربية ـ مخطوط بمكتبة كلية اللغة العربية أ.د . محمد جلال الذهبي .

(الـزاى)

٩٥ ـ زهر الآداب وثمرات الألباب للحصري تحقيق علي محمد البجاوي، ط عيسى الحلبي ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٩ م .
٩٦ ـ زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع للشيخ أحمد الحلاوي ـ مصطفى الحلبي ط سابقة سنة ١٣٩١ هـ .

(السين)

٩٧ ـ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ـ شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي ط صبيح سنة ١٣٨٩ هـ .

(الشين)

٩٨ ـ شرح أبيات سيبويه لأبي جعفر النحاس ـ تحقيق زهير غازي زاهد . ط بغداد .
٩٩ ـ شرح ديوان الأخطل تحقيق وشرح ايليا سليم الحاوي ط دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٨ م .

١٠٠ـ شرح ديوان زهير لثعلب ـ ط الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٤ م

١٠١ـ شرح ديوان الشريف الرضي ـ محيى الدين عبد الحميد ط الحلبي ط أولى سنة ١٣٦٨ هـ ٠

١٠٢ـ شرح ديوان صريع الغواني تحقيق د ٠ سامي الدهان ـ ط دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٧٠ م ٠

١٠٣ـ شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ط التجارية الكبرى سنة ١٣٤٨ هـ ٠

١٠٤ـ شرح سقط الزند ـ نسخة مصورة عن دار الكتب الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٤ ٠

١٠٥ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، للأنباري تحقيق عبد السلام هارون ط دار المعارف ٠

١٠٦ـ شرح القصائد السبع للنحاس ـ تحقيق أحمد خطاب ط بغداد سنة ١٣٩٣ هـ ٠

١٠٧ـ شرح المعلقات السبع للزوزني ط دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعه الثانية سنة ١٩٧٣ م ٠

١٠٨ـ شروح التلخيص ط عيسى البابي الحلبي ـ

١٠٩ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ط دار المعارف الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧ م ٠

١١٠ـ شاعر الصعاليك د ٠ عبد الحليم حنفي ط النموذجية سنة ١٩٧٦ م ٠

١١١ـ الشوقيات ـ الناشر ـ المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٧٠ م ٠

(الصاد)

١١٢ـ الصبح المبني للشيخ يوسف البديعي تحقيق مصطفى السقا محمد شتا ـ ط دار المعارف سنة ١٩٧٧ م ٠

١١٣ـ الصيغ البديعي في اللغة العربية ـ د ٠ أحمد موسى ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م ٠

١١٤ـ الصاحبي لأبي الحسين أحمد بن فارس ط عيسى الحلبي سنة ١٩٧٧ م ٠

١١٥ـ صحيح البخاري بحاشية السندي ط دار احياء الكتب العربية بدون تاريخ ٠

١١٦ـ الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق البجاوي وأبو الفضل ابراهيم ط عيسى الحلبي سنة ١٩٧١ م ٠

١١٧ـ الصورة الأدبية ـ د · مصطفى ناصف مكتبة مصر طبعه أولى سنة ١٩٥٨م ·
١١٨ـ الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ـ د · حفنى شرف ط نهضة مصر سنة ١٣٨٥ هـ ·
١١٩ـ صور من تطور البيان العربى ـ د · كامل الخولى ـ دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٣٨٣ هـ ·

(الطاء)

١٢٠ـ طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط دار المعارف طبعه ثانية سنة ١٩٦٨م ·
١٢١ـ الطراز العلوى ط المقتطف سنة ١٩٣٦ ·

(العين)

١٢٢ـ عبد القاهر الجرجانى د · أحمد بدوى من سلسلة أعلام العرب نشر مكتبة مصر بدون تاريخ ·
١٢٣ـ العبرات ـ مصطفى لطفى المنفلوطى ـ الناشر المكتبة التجارية الكبرى ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٣٣م ·
١٢٤ـ علم البيان ـ د · بدوى طبانة ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ بدون تاريخ ·
١٢٥ـ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق تحقيق محيى الدين عبد الحميد ـ ط دار الجيل ـ بيروت سنة ١٩٧٣ م ·
١٢٦ـ علوم البلاغة ـ أحمد مصطفى المراغى ـ ط القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ ·

(الغين)

١٢٧ـ غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلى بن ظافر الأزدى المصرى ـ تحقيق محمد زغلول سلام ، ومصطفى الصاوى الجوينى ط دار المعارف سنة ١٩٧١م ·
١٢٨ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٤م ·
١٢٩ـ فقه اللغة وسر العربية للثعالبى تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابيارى ط عيسى الحلبى ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م ·

١٣٠— فن البلاغة — د • عبد القادر حسين — مكتبة الآداب سنة ١٩٧٧ م •
١٣١— الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — د • شوقى ضيف — ط دار المعارف
١٣٢— فى الأدب والنقد — د • محمد مندور — ط دار نهضة مصر •
١٣٣— فى النقد الأدبى — د • شوقى ضيف — ط دار المعارف بالرابعة سنة ١٩٧٦ م •

(القاف)

١٣٤— القرآن والصورة البيانية د • عبد القادر حسين ط نهضة مصر •
١٣٥— قواعد الشعر لثعلب — شرح محمد عبد المنعم خفاجى ط الحلبى سنة ١٣٦٧ هـ • ١٩٤٨ م •

(الكاف)

١٣٦— الكامل — للمبرد ط التقدم سنة ١٣٣٥ هـ •
١٣٧— كتاب أرسطو طاليس فى الشعر نقل أبى بشر متى بن يونس من اليونانية الى العربية — تحقيق د • شكرى عياد — الناشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر سنة ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٧ م •
١٣٨— الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون ط دار القلم سنة ١٩٦٦ م
١٣٩— الكشكول لبهاء الدين العاملى تحقيق الطاهر الزاوى ط عيسى الحلبى •

(اللام)

١٤٠— اللغة الشاعرة — للعقاد — ط مكتبة غريب — بدون تاريخ •

(الميم)

١٤١— المثل السائر لابن الأثير ط بولاق بدون تاريخ •
١٤٢— مجاز القرآن لأبى عبيدة تحقيق فؤاد سركين ط دار التراث بدون تاريخ •
١٤٣— المجازات النبوية للشريف الرضى تحقيق د • طه الزينى ط الحلبى سنة ١٣٨٧ هـ •

١٤٤ـ محاضرات في تاريخ البلاغة العربية د • عبد الرحمن الكردي ط السعادة طبعة أولى سنة ١٩٧٠م •

١٤٥ـ المدائح النبوية في الأدب العربي ـ زكي مبارك منشورات المكتبة العصرية ـ بيروت ـ بدون تاريخ •

١٤٦ـ المذاهب النقدية في شعر شكري ـ د • محمد السعدي فرهود ط السعادة •

١٤٧ـ امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية ـ د • الطاهر أحمد مكي ط دار المعارف •

١٤٨ـ المزهر لجلال الدين السيوطي ط المكتبات الأزهرية سنة ١٣٣٥ هـ •

١٤٩ـ مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل لأبي محمد بن أبي بكر الرازي ـ تحقيق ابراهيم عطوة ط مصطفى الحلبي ـ بدون تاريخ •

١٥٠ـ مشاهد القيامة في القرآن الكريم ـ سيد قطب ط دار المعارف سنة ١٩٧٠م •

١٥١ـ معاني القرآن للفراء ـ تحقيق محمد علي النجار ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م •

١٥٢ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص تأليف الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ ط عالم الكتب ـ بيروت بدون تاريخ •

١٥٣ـ مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي ط مصطفى الحلبي طبعة أولى سنة ١٣٥٦ هـ •

١٥٤ـ مفهوم الاستعارة ـ د • أحمد الصاوي ط الهيئة العامة ـ اسكندرية سنة ١٩٧٩ م •

١٥٥ـ من أسرار التعبير القرآني د • محمد أبو موسى ط دار الفكر سنة ١٣٩٦ هـ •

١٥٦ـ من بلاغة القرآن ـ د • أحمد بدوي ط دار نهضة مصر ـ الثالثة ـ بدون تاريخ •

١٥٧ـ من حيث الشعر والنثر ـ د • طه حسين ط الصاوي بالقاهرة • •

١٥٨ـ من قضايا اللغة والنحو ـ علي النجدي ناصف ط دار نهضة مصر بدون تاريخ •

١٥٩ـ من الوجهة النفسية في دراسات الأدب ونقده ـ محمد خلف الله أحمد ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧م •

١٦٠ـ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي ـ تحقيق السيد أحمد صقر ط دار المعارف ط ثانية سنة ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م •

١٦١ـ الموازنة بين الشعراء ـ أبحاث فى أصول النقد وأسرار البيان ـ زكى مبارك ـ ط مصطفى الحلبى ـ الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م .
١٦٢ـ الموشح للمرزبانى تحقيق على محمد البجاوى ط نهضة مصر سنة ١٩٦٥م .

(النـــون)

١٦٣ـ النبأ العظيم د . محمد عبد الله دراز ط دار القلم الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م .
١٦٤ـ نظرية البيان بين عبد القاهر والمتأخرين د . حسن اسماعيل طبعه أولى سنة ١٤٠٠ هـ ط دار الطباعة المحمدية .
١٦٥ـ نظرية عبد القاهر فى النظم ـ د . درويش الجندى ط دار نهضة مصر سنة ١٩٦٠م .
١٦٦ـ نظرية الفن المتجدد وتطبيقها على الشعر ـ عز الدين الأمين ط دار المعارف ط ثانية سنة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١م .
١٦٧ـ نظرية المعنى فى النقد العربى د . مصطفى ناصف ط دار القلم .
١٦٨ـ النظريات النقدية فى شعر شكرى د . محمد السعدى فرهود .
١٦٩ـ النقد الأدبى ـ أصوله ومناهجه ـ سيد قطب ط دار الشروق الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م .
١٧٠ـ النقد الأدبى عند العرب ـ د . حفنى شرف ط مكتبة الشباب سنة ١٩٧٠ .
١٧١ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجى ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ـ طبعه أولى ـ سنة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م .
١٧٢ـ نقد النثر لقدامة بن جعفر تحقيق د . طه حسين ، وعبد الحميد العبادى نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٦ هـ .
١٧٣ـ نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز للفخر الرازى ، ط الآداب .

(الواو)

١٧٤ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، وعلى البجاوى ط عيسى الحلبى بدون تاريخ .

(اليـــاء)

١٧٥ـ يتيمة الدهر للثعالبى ـ مطبعة حجازى بالقاهرة .

فهرس الموضـــوعـات

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة
قرينه المكنية	٢٠٥
ما يرجح به هذا المذهب	٢٠٦
من اضافات المتأخرين	٢٠٧
المكنية المركبة	٢٠٧
المكنية التبعية	٢٠٨
عدم وجوب ذكر لفظ المشبه بلفظة الموضوع له حقيقة ..	٢٠٩
شرط اللازم	٢١٠
الحكم عند وجود اكثر من لازم	٢١١
جريان الترشيح والاطلاق والتجريد مع المكنية	٢١١
السعد يقوم بالتوفيق بين هذا المذهب ومسلك السكاكي	٢١٢
المبحث الثالث: مذاهب اخرى فى المكنية	
المذهب المنسوب الى صاحب	
الكشف	٢١٥
مذهب العصام	٢١٦
اعتراضات على هذا المذهب	٢١٧
الفصل الثالث : صور المكنية	٢١٨
المكنية ذات الشبه القريب	٢١٨
المكنية ذات الشبه البعيد	٢٢٠
المكنية الملتبسه مع صور البيان الاخرى	٢٢٢
المكنية الملتبسة مع التشبيه	٢٢٣
المكنية الملتبسه مع التصريحية	٢٢٦
المكنية الملتبسه مع التبعية	٢٢٦
المكنية الملتبسه بالكناية	٢٣١
المكنية الملتبسه مع الحقيقة	٢٣٣
المكنية والمجاز العقلى	٢٣٤
المكنية الملتبسه مع المجاز المرسل	٢٣٥
تعقيب	٢٣٧
مراجع البحث	٢٣٨
فهرس الموضوعات	٢٤١